MAYSALOON HADI

NOVEL

ميسلون هادي

حفيد الـ(بي بي سي)

حفيد الـ (بي بي سي) / رواية عربيّة
ميسلون هادي / مؤلّفة من العراق
الطبعة الأولى ، 2011
© حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عبد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 - الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
عمّان ® 95297109 7 00962
لوحة الغلاف : **حيدر المحرابي / العراق**
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **دمو برس / بيروت ، لبنان**

© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

©جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .

ISBN 978-614-419-005-0

رواية
NOVEL

ميسلون هادي

حفيد الـ(بي بي سي)

إهداء

الى سهيل سامي نادر

«ليكون ظاهره لهواً للخواص والعوام وباطنه
رياضة للعقول الخاصة»

من مقدمة «كليلة ودمنة» لابن المقفع

الفهرست

الفصل الأول : الرقيب الوفي وجدَّته الفاتنة
الفصل الثاني : شهرزاد التي رأت
الفصل الثالث : فحل التوت
الفصل الرابع : عذراء بعد الزواج
الفصل الخامس : بالمشمش
الفصل السادس : نسر وتاج وشجرة أرز
الفصل السابع : التمساح يطير
الفصل الثامن : شريف روما
الفصل التاسع :حلبوصة كنت
الفصل العاشر : الذئب الوديع والحقول المسحورة
الفصل الحادي عشر : معطف غوغول
الفصل الثاني عشر : حسون الأمريكي
الفصل الثالث عشر : الدنيا ريشة بهوا
الفصل الرابع عشر : حية وبطنج
الفصل الخامس عشر : شعيط ومعيط وجرار الخيط
الفصل السادس عشر : الحدائق جنة العالم
الفصل السابع عشر : لحية القاضي
الفصل الثامن عشر : قيام جلوس
الفصل التاسع عشر : هنا لندن
الفصل العشرون : بدر وسازوكي
الفصل الواحد والعشرون : كامل في الشهر التاسع
الفصل الثاني والعشرون : عربة همر للإله مردوخ
الفصل الثالث والعشرون : فنجان قهوة مع عبد الحليم
الفصل الرابع والعشرون : كلكامش في المترو

الفصل الأول

الرقيب الوفي وجدته الفاتنة

شهرزاد مكنستها جميلة وأطباقها جميلة والوسادة التي تنام عليها جميلة . . ومن المرجح أنها ولدت عندما كانت البيضة تباع بفلسين ، والطرق تضاء بالفوانيس ، والماء يكتسب البرودة من تخزينه بالسراحيات والمشربيات والجوالق الفخارية . . المهم أنها جاءت إلى الدنيا بعد أن بلغت بريطانيا ، أكبر امبراطورية في التاريخ ، أوج عظمتها عام ١٩٢٠ فشملت مساحتها ما يقرب ربع مساحة اليابسة في العالم . حينئذٍ أسس الإنكليز مشروع الكهرباء لإنارة الطُّرق الرَّئيسة بعد دخولهم بغداد في الحادي عشر من آذار عام ١٩١٧ ، ثم أناروا بعد ذلك الطُّرق الفرعية حتى وصلت الكهرباء إلى بيت النبي إبراهيم القريب من زقورة أور ، المدينة التي اخترع فيها السومريون الكتابة والمكيال وأقدم آلة موسيقية في التاريخ وهي القيثارة المطعمة بالذهب . . . .

هناك ولدت شهرزاد الى الجنوب من بغداد والشمال من البصرة ، في المنطقة التي دارت فيها معركة ذي قار الشهيرة بين الفرس والعرب قبل قرون عديدة ، ثم سميت فيما بعد بالناصرية نسبة الى أمير عربي ، عندما أسسها الوالي العثماني مدحت باشا عام ١٨٦٩ ، وخطط شوارعها المستقيمة مهندس

بلجيكي على هيئة سبعة شوارع متعامدة على بعضها البعض بشكل مستقيم رائع يشبه رقعة الشطرنج . كان يحيط بها سور على هيئة نصف دائرة وترُها نهر الفرات ، ولكن ذلك السور هُدم في نهايات العشرينيات من القرن الماضي ، بعد اتساع المدينة وبلوغ تعدادها نصف مليون نسمة تزايد فيما بعد إلى مليونين إلا ربعاً وفق البطاقة التموينية التي توصلت إليها الحكومة أيام حصار التسعينيات الذي اختفتت فيه الخردة من الجزادين والطائرات من السماء . . . . الطريق الإسفلتي الوحيد المعبد بالقار في ذي قار كان يسمى بالمكيّر ، ولأنه يؤدي الى زقورة أور بعد مروره بمحطة القطار في الناصرية ، فقد ظن الناس أن المكير ومحطة القطار شيء واحد . . مما جعل الشاعر زامل سعيد فتاح يخلد تلك المحطة في قصيدة تقول : «مشيت وياه للمكير أودْعنّه ، مشيت وكل كُتُر مني إنهدم بالحسرة والونة» ، لحنها كمال السيد على مقام الرست وغناها المطرب ياس خضر عندما دخل التلفزيون الملون إلى العراق ، فوضعوا خلفه درزن باينباغات ملونة تتدلى من سقف الإستوديو كما الرماح .

ولد أبوها ناظر تلك المحطة قرب مزارع الرز العنبر في ناحية الشامية التابعة للواء الديوانية ثم تزوج في شطرة الناصرية من فتاة تدعى شمسة مولودة في محلة البغادّة بسوق الشيوخ الذي أسماه السومريون (سوك مارو) أي سوق الحكيم . يقول رواة المدينة إن سوق الشيوخ نشأت على مرتفع واسع من الأرض أو تل أسود كبير يقع على واحدة من اليشن السومرية القديمة

حيث وجد فيه بعض الباعة من أبناء الأرياف القريبة خيرَ ساحة لمبادلة البضائع المختلفة . هناك ولدت شهرزاد ابنة شمسة ابنة محمود الذي استشهد في ثورة العشرين بعد أيام من ولادة شمسة لبكرها شهرزاد . . . . . وفي الوقت الذي كان فيها جدها المهوال محمود يثور ويهزج ضد الانكليز «الطوب أحسن لو مكواري» ، أُعجبت شمسة ، التي رأت مصباحاً كهربائياً لأول مرة في حياتها ، بمخترعات المحتلين الإنكليز الجديدة ، وأرادت أن تسمي مولودتها الجديدة مصباحاً ، لولا تدخل زوجها صبيح الذي غير اسمها إلى «غزال» بعد سماعه قصيدة «يا غزال الكرخ» لمحمد سعيد الحبوبي . وبقي اسمها في سجلات الأحوال المدنية غزالاً وكذلك في سجلات المدارس والمحاكم الشخصية ، لكنه تحول في البيت إلى شهرزاد تيمناً باسم جدتها الأولى شهرزاد ، أول امرأة تتذوق البيرة في العراق بناءً على نصيحة الحلاق عاصي الذي طببها من الاعتلال الكلوي المزمن .

وهي صغيرة تأخرت في النطق فزوّرتها أمُّها شمسة ضريحَ السيد أحمد الرفاعي والسيد خضير وباقي سادة أرض ذي قار ، فانحلّت عقدة لسانها ، وتحولت بقدرة قادر من خرساء إلى لبلبان . . وعندما تعلمت المشي سارت أولى خطواتها بين تلال أم العقارب وممرات زقورة أور وآثار أريدو ولكش ، ثم سبحت وهي في سن الثالثة في مياه هور الحمّار . . أتقنتْ الكتابة والقراءة عند الملا لبيبة قرب مقام المنصور ، هذا المكان الذي قال

أبوها صبيح إن الإمام علي عليه السلام مر به مع جيشه عند ذهابه إلى البصرة قبل معركة الجمل الشهيرة . . هناك قرب المدخل الغربي للناصرية وعند مقام المنصور الذي تحيط به مقبرة قديمة يدفن فيها الأطفال ، نهضت أسطورة شهرزاد التي أظهرت براعة غير مسبوقة في الحفظ ، فسميت بنابغة الناصرية ، وأصبحت فرجة دائمة لضيوف أمها وأبيها بعد أن حفظت جزء (عمّ) في ساعات معدودة ، والنتيجة أن أباها قرر أن يسجلها في مدرسة في عَكْد النصارى ببغداد عندما نُقل إلى هناك ناظراً للمحطة العالمية في الصالحية وكان قبل ذلك سائقاً لقطار الخط النازل من غربي بغداد إلى البصرة عبر الناصرية . . أبوها صبيح هو أقدم سائق للقطار في المحطة وكان معلّماً لسائق القطار الشهير الذي عبر الجسر الحديدي عند افتتاحه عام ١٩٤٥ ، بعد أن تراجع السائق الهندي عن ذلك رهبةً من وجود الملك في القطار . هذا السائق الشهير هو المرحوم عبد عباس المفرجي ، الذي عرف فيما بعد بسائق قطار الموت ، وهو الذي أنقذ ٥٢٠ سجيناً سياسياً ، وُضعوا جميعاً في عربات الحمولة من موت محقق دون أن يدري . . كانت السلطات قد طلبت منه في الرابع من تموز عام ١٩٦٣ ، بأن يسير بشكل بطيء بإولئك السجناء ، لكي يقضوا حتفهم في الطريق بين بغداد ونقرة السلمان ، بعد أن أَغلقت عليهم جميع المنافذ التي يمكن أن يتسرب منها الهواء إليهم . ولكن سائق قطار الموت حينما علم بأن قطاره ينقل مئات الوطنيين العراقيين ، عرف مقصد الذين

طلبوا منه أن يبطئ في سيره ، وتحركت عنده مشاعر الوطنية ، وبدأ يسير بأقصى سرعة ممكنة ، حتى أوصلهم الى محطة قطار السماوة ، ثم فتح الأبواب أمامهم ليتنفسوا الهواء الطلق ، وتنكتب لهم حياة جديدة . كان ذلك السائق صديق أبيها صبيح وتلميذه ، وشاءت العناية الإلهية أن تختاره السماء لإنقاذ ابنها معيط من الموت المحقق ، في ذلك القطار الذي لا تذكره شهرزاد إلا وتذكر معه ذلك الحدث البطولي . . .

سكن أهلها في عكد النصارى قريباً من محل جواد الساعاتي ، أول مسلم امتهن بيع الساعات في شارع الرشيد بداية الأربعينيات ، وكان محله قريباً من المكان الذي حاول صدام حسين فيه اغتيال عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٩ ، تبعه ابنه ناجي جواد في افتتاح محل للساعات في ساحة حافظ القاضي عام ١٩٤٨ ، ومنه اشترى قارئ المقام ممتاز ساعة أولما محترمة وضعها في معصمه يوم زفافه إلى شهرزاد . . . . الضاحية التي انتقل لها أهلها ، بعد عكد النصارى ، لم تكن تحمل اسماً من الأسماء ، ثم أصبحت تعرف بقناة الجيش بعد أن افتُتحت في عهد ابن الصويرة عبد الكريم قاسم بداية الستينيات وسميت بهذا الاسم كونَها شُقّت من سرية الهندسة الأولى في فوج موسى الكاظم ، وذلك لدرء الفيضان عن نهر دجلة من خلال تمرير مياهه الفائضة جنوباً لتصب في نهر ديالى عند منطقة الرستمية . أصبحت شهرزاد في المدرسة مشهورة بابنة ناظر المحطة والوحيدة التي ركبت القطار عندما انتقلوا من

الناصرية الى بغداد فأجلسها أبوها قربه في مقطورة القيادة .

صار من المكروه في عُرْف أبيها صبيح أن لا يرث أبناؤه مهنته ولا يظهروا اهتماماً بها كما هو معتاد في أخلاق هذه المهنة ، عدا شهرزاد التي أرادت أن تتعلم مهنة الرجال ، فكانت تتوسل أباها أن يأخذها معه في جولاته التفقدية بين محطات بيجي وبغداد والبصرة . . وقادت وهي في العاشرة من العمر مسافة عشرة كيلومترات من الطريق بين جلولاء وشهربان . . . . كانت الأصغر بين أبنائه الذكور الذين لم يفلحوا في المدرسة الغربية برصافة بغداد ، بينما أظهرت هي نبوغها المتوقع ، وتفوقت في القراءة والحساب والتاريخ ، لكن بسبب قامتها المديدة ، نفتها المعلمة إلى مؤخرة الصف لتجمع هناك بين الشطارة والوكاحة ومضغ العلكة أثناء الدرس . . وبسبب طولها المفرط أطلقت عليها البنات لقب الطنطل ثم المغزل دادة ثم لقباً ثالثاً هو القرعاء بعد أن امتلأ رأسها بالقمل فراحت أمها تطحن الحبة السوداء جيداً وتعجنها في خل التمر ثم تدهن بها رأسها بعد حلقه نمرة صفر . كانت شهرزاد تبرطم شفتيها ، عند تعريضه لأشعة الشمس ، وتضرب عن الكلام حتى يغسلوا لها رأسها من دواء القمل بعد مرور خمس ساعات عليه . شعرها عاد لينمو من جديد وينسدل على كتفها كالشلال ، فكانت أمها تلمه لها بذيل حصان من الخلف وتبرم ناصيته على شكل لوامس أغصان العنب من الأمام . جمال شعرها أصبح لعنة عليها فلم تكمل الدكتوراه في أي علم من العلوم ، وأظهرت

فتنة مبكرة وقواماً خلاباً كعود السيسبان ، فخطبها ممتاز وهي في الإعدادية وتزوجت منه وهي في السادسة عشرة وبات بيتهما في قناة الجيش محطة للقطار شبيها بالمحطة العالمية في العلاوي . . يبيت فيه أهلها القادمون من الشطرة والجبايش وسوق الشيوخ وقلعة سكر ، وأهل زوجها القادمون من القلعة والقورية وجمجمال . . كانوا يجلبون لها الرز العنبر من الشامية ، ولقم القاضي من كركوك ، والرمان من شهربان . .

وفي شهربان ولدت أولى بناتها نهاوند عندما كانت ترافق ممتاز إلى هناك ليغني في حفلات مقهى حسن كركوكلي المجاور لمقهى حسن سفر حيث كان (القصّخون) يسرد قصص المياسة والمقداد ، وعنتر وعبلة ، وأبي زيد الهلالي ، ومن بعده كان المرحوم عكار ، وهو والد المطرب المعروف جبار عكار ، يأتي إلى شهربان ويقرأ الشعر بمصاحبة الربابة في المقاهي . بعد ابنتها البكر نهاوند خلفت نصف درزن بنات هن حجاز وميان وصبا وصباح وبلقيس وعالية التي ولدت بداية الخمسينيات بعد وفاة الملكة عالية . . ثم رزقت نهاية المطاف بثلاثة أولاد ذكور . . وشهدت حرباً عالمية ثانية وستة انقلابات وثلاثة حروب طاحنة ، ورأت كل وسخ الدنيا من الروبية القادمة من الهند إلى العانة التي هتف لها العراقيون في الستينيات عاش الزعيم الذي زيد العانة فلس ، ومن العانة إلى ورقة المئة ديناراً التي مسح بها زوجها ممتاز أنفه أيام الحصار ثم نفاها إلى سلة الزبالة وهو يقول إن هذه الورقة أصبحت أرخص من ورق الكلينكس

وهي التي كانت ـ كفي لشراء بيت في الثلاثينيات . . . عاصرت زلزالاً وفيضاناً وجلوساً ملكياً في الخمسينيات ، وأدركت هروب الكركدن من حديقة الزوراء نهاية السبعينيات وليلة نجمة أم ذويل نهاية الثمانينيات وعصر سامكو الزعفراني في التسعينيات . . تجولت مع زوجها قارئ المقام في كل محافظات العراق وعاشت في بحبوحة لأنه فاز بعدة جوائز في الموسيقى الشرقية قبل أن ينتهي بستجياً في مقاهي عزاوي والعبخانة وفضوة عرب . . كان يقرأ المقام مع مطرب المقام والمربعات قاسم الجنابي بعد مباريات المحيبس الرمضانية بين محلات الكفاح والفضل وأبو سيفين وباب الشيخ وغيرها . . ويفتخر بأنه غنى واقفاً وهو في العشرينيات من العمر مقام اللامي أمام محمد عبد الوهاب الذي زار العراق في الثلاثينيات ، فأفاد منه عبدالوهاب في تلحين (أغنية يللي زرعتوا البرتقال يلة اجمعوه) .

يقول ممتاز إن السيد درويش فعل مثل ذلك أيضاً مع أغنيتين شهيرتين هما «زوروني بالسنة مرة» و«طلعت يا محلى نورها شمس الشموسة» اقتبسهما من الملا عثمان الموصلي . . . كما شرح لأولاده وأحفاده أنه يوجد في الموسيقى الغربية مقامان فقط وهما سلم ميجر المقابل لمقام العجم ، وسلم ماينر المقابل لمقام النهاوند . وبنفس الطريقة يجري في الموسيقى الشرقية عزف هذين المقامين أو النغمين في مواقع مختلفة من السلم الموسيقي ، ولكن الشرقيين فرّعوا هذين المقامين بأشكال

مختلفة ، فجعلوا أي تغيير في ترتيب الأبعاد السبعة من السلم أو أي تغيير في كيفية إنهاء المقام ، مقاماً منفصلاً . . وهكذا نشأت مقامات عديدة تختلف عن بعضها البعض مثل الحجاز والنهاوند والنوى والحجاز كار والحجاز كار كرد واللامي وغيرها .

شرح ممتاز لهم أيضا مشكلة الربع تون في الموسيقى العربية وقال لهم إن المسافة بين نغمة الدو ونغمة الرِي مثلاً تعتبر تون ، ونصف المسافة تعتبر نصف تون . . وهذا ما يتعامل به الغربيون مع موسيقاهم . . أما نحن الشرقيين فأضفنا الربع تون . . وهو ربع المسافة بين النغمة والتى تليها . . وهذا نابع من زيادة إحاسيسنا وعواطفنا الجياشة . . عكس الغربيين الذين يتعاملون بالمسطرة والخطوط الحادة مع التون وهو النغمة الكاملة . وقد خلق هذا الربع تون امكانية وجود عدد كبير آخر من المقامات التي لا تستخدمها الموسيقى الغربية ، فنشأت مقامات الرست والبيات والصَّبا و السيگاه والمخالف والبستة نگار وغيرها ، مما جعل المقامات تسجل رقماً يزيد على التسعين مقاما . ولكن ما هو المقام العراقي؟- سألت شهرزاد اللبلبان زوجها ممتاز - في يوم قائظ من أيام آب اللهّاب- وما اختلافه عن باقي المقامات؟

قال لها : المقام يعني السُّلَّم أو النغم . أما المقامات العراقية فهي مجموعة نتاجات غنائية معينة مؤلفة مسبّقاً بالضبط والتمام ، وحين يقرأ قارئ المقام مقام الرست فإنه يعيد غناء هذا المقام المعين بالضبط كما أخذه عن أسلافه من قراء المقام العراقي . ولذلك مثلاً حين يذكر مقام البهرزاوي حتى لدى

قراء المقام أنفسهم يُذكر كما غنته صديقة الملاية كأحسن مثل لقراءته . وبطبيعة الحال يكون في تركيب كل مقام عراقي أحد المقامات كالرست والبيات والصبا والسيگاه والمخالف والحجاز والنهاوند ، نظراً إلى أنه لا يمكن أن تكون هناك موسيقى بدون أن يكون لها مقام أو نغم خاص بها . ولكنّ بناء المقام العراقي لا يقتصر على هذا فقط ، بل إن لتركيب المقام العراقي قواعد أساسية تختلف في تركيبها عن سائر المؤلفات الغنائية حتى في الموسيقى العراقية نفسها . وعلى الملحن الذي يضع مقاماً جديداً أن يلتزم بهذه القواعد وإلا فلن يعتبر نتاجه مقاماً عراقياً . فهناك مقامات تغنى بالقصيدة وهناك مقامات تغنى بالموال العراقي أو الزهيري . . فإذا غنى واضع المقام مقامه بالقصيدة فعلى كل قارئ أن يغني ذلك المقام بالقصيدة من بعده وإذا غنى واضع المقام مقامه بالزهيري فعلى كل قارئ مقام ان يغني ذلك المقام بالزهيري من بعده . . وضرب لها مثلاً بما حدث للقبانچي حين كان في برلين سنة ١٩٢٩ ، لتسجيل بعض المقامات العراقية ، فوصله نبأ غير صحيح بوفاة والده . ولكي يعبر عن مشاعر الحزن لدى تلقّي هذا الخبر وضع مقاماً من نغم اللامي أسماه مقام لامي ، وخلافاً لكافة المقامات المعروفة غنى القبانچي هذا المقام مع أبوذية . فقد وجد في (الأبوذية) أفضل تعبير عن حالته النفسية تلك اللحظة . . وهكذا أصبح كل من يغني ذلك المقام يغني بعده (يلي نسيتونا يمتى تذكرونا) .

كان ممتاز يحصل على قران واحد كأجر يومي عن حفلاته الغنائية ، يتقاضاه عن تعلولة من تعلولات المقهى التي كان أشهر روادها رضا الشاطئ ورشيد القندرجي وفخري الزبيدي ويعزف فيها الجالغي البغدادي الذي حرّمه العثمانيون على المسلمين أيام حكمهم للعراق ، فكان يعزف فيه ذلك الزمان عازفون من اليهود فقط من أمثال يوسف بتو وصالح شميل ويهودا شماس . ولكن الوضع تغير فيما بعد وأصبح المسلمون ، من أمثال شعوبي إبراهيم والحاج هاشم رجب ، يعزفون أيضاً فيه . وفي ليالي رمضان كان يُؤتى بمطربي المربعات علي الدبو وعدنان الشيخلي وفاضل رشيد ، لإحياء الحفلات بعد لعبة المحيبس . ذلك القران كان يعادل عشرين فلساً في زمان الفلسان الذي كان فيه الدينار المكون من ألف فلس يكفي معيشة شهر كامل ، وكان نوط المئة دينار المكون من مئة ألف فلس ، يكفي لشراء منزل . . هذ القران المكون من عشرين فلساً هو نفسه أجر أخيه المسّاح أنور ، والذي عمل في بناء الجسر الحديدي في المسيب عام ١٩٣٧م ، فخلده قُرّاء المقام ببستة شهيرة تقول : حيّك بابة حيّك . . ألف رحمة على بيّك . . هذوله العذبوني . . هذوله المرموني . . وعلى جسر المسيب سيبوني .

لا يزال ممتاز يحتفظ بحبزبوز وقرندل والزمان وصحف قديمة أخرى كصوت الفلاح والتآخي التي نشرت له بحوثه الموسيقية عن الحافظ عثمان الموصلي والملا ماشاء الله المندلاوي والقارئ رحمة الله شلتاغ الكركوكلي سيد المقام العراقي ومبتكر مقام

التفليس ، وهو من مقام السيكا المنسوب إلى تبليسي عاصمة جورجيا ، وقد جلبه أحد المشاركين في الحرب العالمية الأولى مع الجيش العثماني في القوقاز . كما قام بنقل العديد من المقامات من كركوك إلى بغداد ، كمقام القوريات ومقام الموجيلا الذي ابتكره قارىء المقام موجي الكركوكلي والذي سمي بمقام المدمي في بغداد .

ما ضجرت شهرزاد قط من حكايات زوجها ممتاز المخملية ، ولم تجدها تتعارض مع ملايين المرات التي كوت فيها الملابس وشلّعت فيها أقراص الخبز أو غسلت الشراشف المليئة بروائح التأوه والتمني . . . . وذلك كله لم يكن يتعارض أيضاً مع آلاف الحكم تنطق بها والتي لم يسمعها حفيدها عبد الحليم من امرأة قط . . . كانت تقول لا تكرهوا من هو أفضل منكم ، بل تعلموا منه شيئاً واحداً فقط فتصبحوا أفضل منه . . . كل شخص تغارون منه تعلموا منه شيئاً واحداً فقط فتصبحوا أفضل منه . . وهذا ما وجدها تتعلمه من كل امراة تعاشرها أو تراها أو تسمع عنها أو تغار منها . . فتعلمت حبها للحُلي والزينة من شبعاد ، الملكة السومرية المنحدرة من نهاية العصر السومري الحديث في أور ، والتي خطفت الزهرات الثلاث البديعة فوق رأسها ، نظر شهرزاد عندما رأتها في المتحف . . . . . وقرب نينوى ، التي زارتها في أعياد الربيع ، رأت تخطيط أميرة الحضر محفوراً على جدار المعبد الثالث ، ففتتنت بوجهها المعبر وجسمها الممتلئ وملابسها المليئة بالكسرات والطيات ووشاحها المنسدل على

كتفها وظهرها حسب تقاليد الحضر ، أما عندما مرت بخرائب قصر شيرين في خانقين الواقعة على الحدود العراقية الإيرانية ، فقد أُعجبت بقوة المرأة الميسانية شيرين ، إمبراطورة ساسان وزوجة خسرو الثالث التي جعلت زوجها كسرى يخضع لإرادتها ويسكن في المدائن على ضفاف دجلة لتكون قريبة من أهلها العراقيين . . ومن فدعة شبيهة الخنساء استوحت البطولة عندما كانت ترافق عشائر الخزاعل في قتالها مع عشائر المنتفك وزبيد . . لم تكن سوى ابنة صريفة في أرياف الرميثة ترعى الجاموس وتصنع اللبن والقيمر ، ولكن مقتل أخيها حسين فجر شاعريتها فلبست الأسود ما تبقى من حياتها وقالت أجمل المراثي ، كما واظبت على حضور مجالس امبراطورة النواح أم علي ، وتعلمت منها قول الملاحم في عاشوراء ورفع حرارة الموقف وسط النساء النائحات وبين مساعداتها الندابات القوّالات ، حيث تمتزج أحياناً طقوس الموت بطقوس الفرح ، فتدور صينية القاسم بالحناء والشموع والآس على النساء وتطلب العذروات المراد من يوم القاسم ، ثم ينتهي فاصل الفرح بإطفاء الشموع وسكب الدموع تمهيداً لطقس العرس الدامي وموعد القاسم ابن الحسن مع الموت . . كان قد عقد قرانه على ابنة عمه سكينة ابنة الحسين تنفيذاً لوصية أبيه الحسن ، ولكن الدخول لم يكن على فراش العرس بل على تراب الموت والدم . . فأصبحت عروس القاسم هي المراد المرتجى بين العذروات الراغبات بالزواج .

في الطرف الآخر من تلك الجلسات الريزخونية المليئة بالمراثي والدموع الغزيرة ، كانت التركمانية باجي كُلبهار خاتون من التون كوبري في كركوك هي راعية الأمل والفرح وعاشقة الكحل والسبداج ، وهي التي رقصت في زفة شهرزاد عروس ابنها ممتاز ، يتقدمها راقص هزلي مغطى بالقطن المصبوغ ، وهازجون في دبكة هالاي يحيطون بهودج العروس لحين وصولها إلى ممتاز ، العريس الذي كان ينتظر عروسه على سطح البيت لكي ينثر عليها النقود والحلوى بيمينه المزدانة بساعة أولما فاخرة الثمن اشتراها من محل ناجي جواد الساعاتي . صدَقَ من قال حتى مكدّي كركوك علّيقته من القطيفة . فقد ظلت باجي كلبهار تصبغ شعرها وعينيها باللون الأسود وترتدي فساتين الكيمونة ، حتى بعد أن أصبحت طاعنة في السن ينادونها أحفادها بالنانا . .

بعد خطبة شهرزاد إلى ممتاز أخذوها إلى الساحة الكبيرة الواسعة التي تقابل جامع مرجان ، وفيها يتجمع الباعة ليبيعوا لليهود ، العائدين إلى بيوتهم مساء ، كل ما يخطر على البال . . وفي تلك الساحة رأت أول مكينة سيفون وجنجر وصودا ، كما تذوقت الناملية الذي كان يباع جاهزاً بالقناني المغلقة بالكرات الزجاجية . ومن نهاية هذه الساحة يبدأ شارع البنك بخان مرجان على جهة اليمين وخان علي صائب الخضيري على جهة اليسار ثم تليهما دربونة (النملة) التي تتصل بشارع المستنصر الذي يسمّيه العامة بشارع النهر . هناك رأت ملابس

العرائس ودشاديش النوم الشفافة للمرة الأولى . . سوق العرائس ذاك كان يسمى قديماً بخان الشابندر وكان يضم أكثر من سبعين معرضاً للصاغة أكثرهم من الصابئة المندائيين واليهود العراقيين قبل هجرتهم و تسفيرهم من العراق بعد النكبة .

حين توقفت مع ممتاز وأمه كلبهار خاتون لشراء كردان الذهب من الصائغ خضوري تناهت إلى أنفها رائحة بخار قادمة من نهاية الدربونة ، وهناك شاهدت محلاً لكيّ الملابس بالبخار للمرة الأولى في حياتها . كان ممتاز الفنطازي القادم من كركوك أكثر انفتاحاً من أهلها القادمين من الشطرة ، فكان يرتدي قاطاً وباينباغاً وقميصاً أبيض اللون كواه عند مكوى الأرمني (توماس ميمريان) بروبية واحدة ، وهو المكوى الذي أعجبت شهرزاد برائحته ونظافته التي لم تر لها مثيلاً من قبل ، كما لم تر مثيلاً أيضاً لأناقة متجر خضوري الذي لم يغادر العراق عند تهجير اليهود ، فظلت تتردد عليه لشراء الذهب حتى أواخر الأربعينيات . . أيامها كان الوضع في بغداد متوتراً ، وقد انفجرت قنبلة صغيرة في ركن اليهود الذي كانوا يجلسون فيه بمقهى الشط الواقع نهاية شارع النهر ، فقال ممتاز إن ذلك إنما هو لدفع اليهود إلى الهجرة إلى إسرائيل .

في ذلك المقهى كان يغني ممتاز مع فرقة الجالغي البغدادي التي يشكل اليهود أغلب عازفيها ، وليلاً عندما يضاء مقهى الشط باللوكسات المستوردة من ألمانيا ، يلتقي هناك وجوه بغداد المعروفة آنذاك أمثال قاسم باشا وحسن باشا وعبد القادر باشا

الخضيري ، الذي كانت ترسو مراكبه أمام المقهى ، والشاعرين الرصافي والزهاوي في بعض الأوقات . بعد ذلك الحادث غادر خضوري فباع متجره للذهب وسافر إلى إسرائيل ولم يعد ، ولكن قلب شهرزاد تعلق بسوق شارع النهر المائج بالبشر وظلت تتردد عليه بشكل أسبوعي . . كان السوق ملاصقاً لأقدم سوق للكتب منذ أيام العباسيين ، وهو سوق السراي الذي يغص بالمطابع والمكتبات . . وفي أيام رمضان كانت شهرزاد تصل إلى هناك من منطقة المصبغة المجاورة لسوق الخفافين لتجد مقهى الشط ذا الطابقين ، والمُزيّن بالزخارف البغدادية الجميلة ، مفتوحاً خلافاً لباقي المقاهي . هناك كان زوجها ممتاز يغني في المقهى التحتاني ، يرافقه قارئ المقام اليهودي يوسف حورش ونخبة من الموسيقيين كصالح الكويتي ويوسف بتو وعزوري وجميعهم من اليهود الذين غادروا بعد حادثة القنبلة وإعلان الأحكام العرفية ببغداد . كان الجمهور يقبل على سماع قراء المقام أحمد زيدان ورشيد القندرجي الذي عندما كان يغني في الرصافة يُسمع صوته في الضفة الأخرى من نهر دجلة المحتشد بقوارب الصيادين والقفف والمهيلات والأكلاك وهي تنقل الخضراوات والفواكه من ضفة الرصافة الى ضفة الكرخ . أما المقهى الفوقاني الذي كان يشهد حفلات التياترو الراقصة مرتين يومياً فتحيي حفلاته أشهر راقصات ومغنيات ذاك الزمان أمثال طيرة وسلطانة يوسف وصديقة الملاية .

لا تزال شهرزاد تكشف لأحفادها روعة تلك الرحلة التي

اكتشفت فيها جمال بغداد يوم شرائها لنيشان زواجها ، فرأت لأول مرة في حياتها المكوى والجامخانة والمكتبة وسمعت بالسيفون والسينما والبندق والفستق والدوندرمة . سار ممتاز ، الفنطازي الهابط إليها من الجبال والخاطف قلبها وقلوب أهلها منذ النظرة الاولى ، بالركب حتى نهاية شارع النهر ، حيث البناية الضخمة لشركة لنج للنقل النهري ، ثم خرجوا إلى شارع الرشيد من ركن أنيق قال لهم ممتاز إنه مكنزي ، المكتبة الإنكليزية المشهورة في بغداد ، وتقدموا تلقاء محل الخياط البيروتي الشهير علي رضا الذي خاط له بدلة العرس ، وبعده سنترال سينما التي جرت فيها حفلة المصارعة المشهورة بين الهير كريم الألماني والمصارع العراقي الحجي عباس الديك ، ثم مروا بالمباني التي اشتملت على المصورين والخياطين والصرافين ومسارح اليهود وملاهي الآرتيستات والكاولية ودكاكين الأرمن الذين يبيعون البسطرمة والكيك واللبن الرائب والدوندرمة والمكسرات . . واستنتجت ، بعد تلك الزيارة الأولى لشارع الرشيد ، أن عالم الجمال والمأكولات اللذيذة في بغداد كان يصنعه اليهود والصابئة والمسيحيون والأرمن . أما عالم الفنون والجنون فأنشأت له شركة بيضافون محلاً في خان دله ببغداد لإنتاج الإسطوانات التي تدور حول نفسها كالمراوح وتنطق بأصوات جميع مطربات ومطربي بغداد المشهورين كمحمد القبانجي وسليمة باشا مراد ونرجس وزكية جورج ومنيرة الهوزوز وزهور حسين وصديقة الملاية وحضيري أبو عزيز وغيرهم ، ثم

سجلت بيضافون أيضاً قوانات لمطربين من البصرة والناصرية والموصل ومنهم زوجها ممتاز صدوقي قارئ المقام الكركوكلي مما دعاه إلى شراء فونغراف أسود اللون بخمسين روبية صار عجبةً لأهل البيت . ولشهر زاد التي استمعت من خلاله فيما بعد إلى أغنيات رضا علي وفراقيات عباس جميل على نغم الجورجينا .

لا تزال شهرزاد تذكر لأحفادها روعة تلك الرحلة التي راحت تكررها بعد ذلك كل أسبوع مستقلّةً باصها رقم (٤) من ساحة الميدان إلى ساحة النصر ، سابحة في نهار شارع الرشيد الجميل من الشورجة إلى مطعمي الإخلاص وتاجران ، ومن كعك السيد وكاهي الحيدري إلى مكتبة مكنزي وأورزدي باك ، ومن مطحنة قهوة آرتين ومقهى البرازيلية إلى محلات الباسطرمة الأرمنية وشربت الحجي زبالة ، ومن مقهى المربعة وصالون حكمت الحلي إلى سينما الوطني وروكسي وساحة حافظ القاضي .

الفصل الثاني

شهرزاد التي رأت

من صابون الهندية إلى صابون اللوكس الذي «تستعمله تسعٌ من كل عشرٍ من نجوم السينما» عاشت شهرزاد عصور الصوابين كلها . . وارتدت فساتين الكريب ستان وملحقاتها من الصاية والكيش والعباءة والملوي والاسكاربيني المشترى من باتا . . وتزوج أولادها وبناتها وغادروا إلى بيوتهم في الكرادة والكرنتينة وحي الإسكان ، ما عدا المنغولي جرار الخيط الذي بلغ منه العمر خمسين عاماً فلم يمرض ولم يمت . . بقي معها في ضربة بوش الأولى والثانية ، وصب لها الماء الشحيح عندما كانت تسقي النباتات بالإستكان وتأكل مع بلابلها من ملعقة واحدة . . وأزجى وقت الحرب بصبغ جميع المناضد والكراسي المشخّطة بالبوية البيضاء .

جاء لها البستاني عاتي الهدهد ببضعة بلابل من بساتين الفحامة القريبة من حي أور برصافة بغداد ، فكانت سلوتها في الحرب التي توقفت فيها المراوح عن الدوران مما جعل بلابلها تنجو من الموت بريش المراوح أو بجرائم أحفادها البشعة مع القطط والكلاب والبلابل . لم يكن لديهم مولّد كهرباء ، فكان جرار الخيط يدفع ريشات المروحة بعصا الممسحة لتحريكها وتضحك شهرزاد من أعماله الطفولية مع مروحة القادسية التي

اكتسبت اسمها من الحرب وقيل إنها إذا ما دارت فلن تتوقف عن الدوران .

وقبل يومين من اليوم الذي أعلنه بوش موعداً أخيراً لضرب العراق ، وبدلاً من ركوب الباص رقم (٤) المتوجه إلى ساحة النصر ، قررت شهرزاد أن تركب الباص رقم (٤٨) المنطلق من قناة الجيش إلى باب المعظم ، ثم الباص رقم (٥) المنطلق من باب المعظم إلى سبع أبكار . . أرادت أن تتجول في طريق غير الطريق الذي اعتادت عليه كل أسبوع . . وكان طريقاً جميلاً يحاذي نهر دجلة وتحيط به الشواطئ والمشاتل وتملؤه البساتين . تذكرت ليالي الصيف القمرية عندما كان زوجها ممتاز يغني المقام على ظهر زورق من الزوارق التي تنطلق عادة من الكريعات حتى جسر الصرافية ومعها يردد شباب الجراديغ المنتشرة على ضفاف دجلة ما يحفظونه من بستات يستلمونها من قراء تلك المقامات ويرددونها مهللين . . دشداشة صبغ النيل كومي بطركها . . هلو . . والكذلة ست طيات ماندل فركها . . هلو .

تستطيع شهرزاد استرجاع لحظات السعادة التي شعرتْ بها يومئذ عندما توقفت لشراء بعض الشتلات والسنادين وشربتْ قدحاً من مزاج الزنجبيل ، وكأن الحرب بعيدة جداً ، بل لا يمكن لها أن تقع أبداً . لكن الناس الذي اعتادوا التهيّؤ للحروب كانوا يحفرون الآبار في حدائقهم ويشترون كل ما تقع عليه أياديهم من مواد غذائية استعداداً للحرب القادمة . شعرت شهرزاد

بالخطأ الفادح فجأة لأنها لم تحفر بئراً في حديقتها ، وبأنها ستموت عطشاً مع ابنها جرار الخيط إذا حدثت الحرب . . خرجتْ من البيت عدة مرات لشراء قناني الماء وأوصت شكرية وفتحية ونورية بشراء أوعية إضافية لحفظ المياه وأكياساً كبيرة من النايلون السميك ، ملأتها بالماء وكومتها تحت الدرج . وعندما وصل أفراد عائلتها إلى بيوت أجدادهم في كركوك وذي قار ، سار ذلك اليوم ، وكان التاسع عشر من آذار من عام ٢٠٠٣ ، بشكل طبيعي ، وكانت الأحاديث تدور بين الناس وفي البي بي سي حول الموعد الأخير الذي أعطاه بوش للحرب في خطابه .

استهلكت تلك الليلة خمسين إستكاناً من الشاي واليانسون وورد لسان الثور وثلاث علب من التتن الملفوف وخمسين محطة إذاعية دون أن تستسيقظ فجراً على أصوات الانفجارات وهي تتعالى من مناطق مختلفة ، وكيف تستيقظ وهي لم تنم أصلاً؟ . . ولن تنام الليالي التي بعدها أيضاً . وأخذت بين ساعة وأخرى تصعد على سطح البيت المغطى بالهباء الأسود ، فترى الأفق وهو يشتعل بالحمم التي تقذفها الطائرات والصواريخ على بغداد فيصير منظرها المشتعل وكأنه الجحيم . . أخذوا المال والذهب في هربهم من الحرب وتركوا الورد والزرع في الحديقة لكي يجف ويموت . . فلازمت شهرزاد حديقتها كحدوة حصان وحصّنتها بسور سليمان ، وصعدت الغيرة في رأسها وقررت أن تحمل المسحاة وتفلح في الأرض

بينما ابنها المنغولي جرار الخيط يغني ، أثناء صباغته الكراسي القديمة بلون أبيض ، عونك ياتاع إي والله ذولة احنة ثباع إي والله .

كان الوقت ربيعاً ، فارتفع نقيق الضفادع في السواقي ، وجاء السنونو مع الطيور المهاجرة ليعشش قريباً من زاوية مطبخها ، وهناك علّم ابنه الطيران بين العش وسعفة البرحية بينما الأرض تثور وتهتز من وقع القنابل والصواريخ ، والفضاء يسود ويتصخم من دخان الإطارات المشتعلة . طلبت من البستاني عاتي الهدهد أن يصوغ لها الياس على شكل صاروخ معد للانطلاق ، ولكن عاتي الهدهد ، الذي صب مهجته في نحت الياس ، لم يخرج إلا بمجسم محرج الشكل ضحك له كل من رآه ، فطلبت شهرزاد قطعه من الأعلى ، مما جعل شكشوكة تقول لنبيهة وهي تؤشر أسفل بطنها ها أنت قد رأيته أخيراً قبل وبعد الختان .

من منصبها الرفيع ذاك ازدرت أم البيت هروب أولادها الجماعي ، وقالت لهم تروحون فدوة للطير المهاجر الذي يزورها مرة بالسنة ويأتي من بلاد السند والهند إلى نفس الزاغور من حديقتها ، بينما هربتم أنتم هلعاً كالدعيدع من مكان إلى آخر . . وساوت بينهم وبين مجسمها المسخ الشبيه بالأحليل الذي لم يعد عاتي لتشذيبه قط بعد أن سقطت قذيفة هاون على بيته في الفحامة وقطعت له أصابع يده . . نصبته شهرزاد بطلاً مع سائق الحافلة الذي منع النهيبية من سرقة أموال

الدولة وجاء بها أمام بيته لحراستها من اللصوص . . شارعها امتلأت بيوته بالقوارب الشراعية وحاويات الوقود النووي وحنفيات الذهب وعربات المرسيدس والنمور البنجالية . . ورفعت العقارب ذيولها بشموخ فوق الشبابيك المهشمة والمتروسة بالتراب . أخبرت شهرزاد أولادها ، عندما عادوا من كركوك والناصرية بعد انتهاء الحرب ، بأن الزجاج الذي تكسر قد حملته إلى خارج البيت في كيس أسود ، وفي اللحظة نفسها مرت دبابة أمريكية قطعت لها أسلاك الهاتف ونزل منها المارينز ثم انبطحوا على الارض كالكلاب المحترة وقال لها المترجم ماذا تفعلين؟ قالت له أنظّف البيت من شظايا الزجاج فصاح بها هيا ادخلي إلى البيت ، فرمت الكيس عليهم وجرحت اثنين منهم . . هجم الجنود عليها وصاحوا إرهابية ، ولكنها ضحكت منهم بفمها الخالي من جسور الأسنان ، وقالت للمترجم : اسكت أحسن لك . . إرهابي ما يعيّب على إرهابي؟ . . .

تلك قصة افتخرت بها شهرزاد عدة أشهر ، وروتها حتى لكناس الشوارع إلى أن فاض الكيل بنورية الدنغوزة فخرجت عن صمتها وقالت إنها جاءت لكم بقميص كذب وإن تلك الرواية ، التي تناقلتها الألسن هي من تخاريف شهرزاد التي أضاعت بابوج فمها وأصبحت تحضر أرواح الموتى وتبول على نفسها في الفراش ، فكيف تقوى على جرح جندي أمريكي؟ أجابتها شهرزاد وهل هززت كاروكك يا مهمودة الشيب؟ يا من

تروحين فدوة للعقارب والحيايا . . يا من تستحين من عصافير النبقة . . أكُلُّ من يتزوج أمك تسميه عمك؟ يا من دعوت طاقم الدبابة على السمك المسكوف والطرشي المجلوب من حنانش . . فتناولت الغداء مع رئيس بعيون زرق وثلاثة مجندين سُود الوجوه سوّد الله وجهك . . لا حظتْ برجيلها ولا أخذت سيد علي . .

هكذا تحدثت شهرزاد الذيقارية وقالت لنورية البابلية : ها؟ لا تزِمّ ولا تشكر إلا بعد سنة وستة أشهر . . أسمعت؟ إلا بعد سنة وستة أشهر؟ وأنت شكرت بعد شهر واحد فقط . فسخرت منها نورية وقالت : غالي والطلب رخيص . . . . وردحت الاثنتان بما تعرفانه من أمثال بغدادية ، فاختلط الأمر على السامعين وتداخلت أصواتهما بين عذر أقبح من ذنب ، وإجت تكحلها عمتها ، وإذا صاحبك حلو لا تاكله كله ، وعصفور كفل زرزور واثنينهم طيارة ، والقرد بعين أمه غزال ، وتدهدر الجدر ولقى قبغة ، ومد رجلك على قد لحافك ، واقعد أعوج واحكي عدل ، وهم موت وهم خراب ديار ، ومن بره هله هله ومن جوة يعلم الله ، ونامي نامت عليك طابوقة ، ووقعت الفاس بالراس ، وبس إلماله أول ماله تالي ، ويموت الزمار وإيده تلعب ، وإنت طول عمرك دنغوزة ، وذاب الثلج وبان المرج ، ويا مغرّب خرّب ، ويا رايح كثّر من الفضايح ، ولا تقول سمسم حتى تلهم ، ولا يفل الحديد إلا الحديد ، ومن هالمال حمل جمال ، وإن إلك حاجة عند الكلب قوله حجي كليب وردناه

عون طلع فرعون ، والباب إللي يجي منه ريح سدّه واستريح ، والجار قبل الدار ، والحلو حلو لو لسّه صاحى من النوم والوحش وحش لو استحم كل يوم ، والصاحب اللي ما ينفعني في حياتي ما ينفعني بعد مماتي . .

وانفرط عقد صداقة نورية وشهرزاد أو كاد لولا تدخل شكشوكة التي هزت كتفيها هزتين وضحكت قائلة : الصلح بعد العداوة أطيب من الحلاوة .

كانت شهرزاد تسمى في طفولتها بالعاصفة ، وعندما كبرت تحولت الى زوبعة إذا مرت تركت خلفها الكثير من الدوامات التي تمشي في أثرها وتلاحقها على هيئة ثلاثة أجيال من النساء : جيل بعمرها وجيل أصغر منها وجيل أصغر منها بكثير . . . تبرر شهرزاد تلك الاستراتيجية المعلنة بالقول إنها إذا انكتب لها طول العمر وماتت رفيقاتها من الحرس القديم بعد عمر طويل ، سيبقى هناك حولها جيل موجود آخر مؤلف من الحرس الجديد المستعد للعب والضحك وسماع الحكايات . . . خواصها من الجيل الجديد هن معلمات المدرسة القريبة من بيتها في حي أور وصديقات «تأميم» حفيدتها التي خلفها «معيط» في ستوكهولم من امرأة سويدية تزوجها ثم طلقها فتركت له البنت ليربيها . . . جيلها من الحرس القديم كان مكوناً من الحيزبون نورية عاشقة الصمت والشاي واليانسون ، والدردبيس فتحية عاشقة بذور البطيخ والشمام ، والعطلبيس شكشوكة (شكرية سابقا) التي يصلح شعرها الغائم لالتقاط

قمر عربسات ونايل سات والأوروبي أيضاً . . كانت ترقص أحياناً وتهزه في الهواء عندما تغني البنات من الحرس الجديد : أمك على البير أمي على البير وتكولها ما يصير انطيني تفسير . .

شهرزاد . . . مرتفعة جدا عن الارض . . . بيتها أشبه بمحطة قطار . . روحها أطول من روح بزون وحركتها أبطأ من سلحفاة ولكن مكرها أدهى من واوي عتيق . . . . لديها ضمير نقي وحلم يتكرر لا أحد استطاع تفسيره من السامعين وهو أنها ترى نفسها تحمل نفسها بنفسها على نفسها ولا تصل إلى أي مكان . . ولكنها لا ترسو على بر واحد وتتنقل بين الفرح والحزن كما تتقلب في فراشها أثناء النوم . . بيضاء عسلية العينين تزدري أزواج بناتها السبع ولا تعترف بعمرها الحقيقي مدّعية أنها ولدت في نفس العام الذي ولدت فيه اليزابث الثانية ملكة بريطانيا العظمى ودول الكومنولث وهي الملكة الأخرى التي أعجبت بها جداً ، ولكنها أحبتها أكثر من كل ملكات الأرض كعالية الهاشمية وآسيا الفرعونية ونرجس النصرانية وبلقيس السبئية وزبيدة زوجة هارون الرشيد ، ولربما بسبب هذا الشبه في التولد ، ولأنها لا تزعل أبداً كما تقول شهرزاد ، فإنها بدلاً من أن تتعلم منها شيئاً واحداً كما كانت تفعل مع من تغار منهن من النساء ، راحت تقلدها في كل شيء ، فتبدأ برنامجها الصباحي ، كما يبدأ برنامج الملكة ، في السابعة والنصف صباحاً ، بتناول فنجان من الشاي وكوب من

الحليب الطازج من الأبقار التي ترعى في وندسور ، ثم تستمع بعد ذلك الى برنامج سياسي صباحي على البي . بي . سي . ، وأخيراً تطلّع على بريدها الخاص . كانت شهرزاد تقلدها في ذلك كله إلا قضية البريد الصباحي الخاص وحليبها القادم من جاموسة وكعة ذات الأنف المقروط . . كما أنها لم ترفع الملعقة من ميز الطعام فور أن علمت أن الملكة قد رفعتها من المائدة الملكية ، لأنه لم تكن هناك ملعقة بالأساس .

تروي شهرزاد لصويحباتها ، بطريقة كما لو كانت تدلي بتصريح مهم ، أنه كثيراً ما تضطر الملكة للجلوس أمام أحد الرسامين لأجلِ رسم لوحة زيتية جديدة لها ، لذلك لا يندهش أحد في القصر عند رؤيتها في الصباح مرتدية التاج أو ممسكة بالصولجان متجهة الى قاعة الرسم . ولكن الملكة ايضاً تجد وقتًا لمشاهدة التلفزيون أثناء تناولها للعشاء ، وقد تجلس لحل الكلمات المتقاطعة بعد ذلك . كان قلب شهرزاد يهوى من السعادة وهي تتخيل اليزابث الثانية تتجول في قصرها حاملة الصولجان للجلوس أمام أحد الرسامين في يوم عيد ميلادها . تسمي شهرزاد ذلك البرنامج بالبلانجو وفقاً لمعلومات عسكرية استقتها من صهرها مفتن الذي تاه في معارك الشمال .

وفي قلعة وندسور يزور السواح المهووسون ببريطانيا العظمى معرضاً لصور الملكة التي تعتبر أكثر شخصية ملكية يتم رسمها وتصويرها ، بينما في المعرض الملكي الملحق بقصر باكنجهام يمكنهم رؤية ما ترتديه من الإكسسوارات مع أزيائها كالقبعات

والأحذية فضلاً عن المجوهرات . سمحت الملكة أيضاً بعرض مجموعة من الأزياء التي ارتدتها على مدى الستين عاما الماضية للجماهير في معرض خاص . فتخبر شهرزاد صويحباتها بأن تلك الفساتين المعروضة في القاعة الملكية تُبيّن أن الملكة ، كانت تتمتع في العشرين من عمرها بقوام متناسق وخصر نحيف كخصر النحلة .

الدنيا حظوظ . . كانت تقول شهرزاد لشكشوكة بعد رواية تلك الأخبار . . فلا أحد يعترض على كل هذا العدد من الإكسسوارات واللوحات الزيتية الفاخرة ، ولكن لو شاءت الأقدار أن يرسم الرسامون صورة واحدة لها ، لوضعوا اسمها على اللائحة السوداء واستدعى الأمر خروجاً على القانون الدولي وعقوبات جديدة من مجلس الأمن؟

لولا أنها تنحدر من أسرة جنوبية محافظة ، لشك حفيدها عبد الحليم في أنها قد عملت راقصة باليه في شبابها أو فنانة استعراضية في ملهى لميعة توفيق أو مسرح جعفر لقلق زادة حيث كان جده يقرأ فيه المقام وغير ذلك . . . . جوقة من المتناقضات وموسوعة في الفن والفنانين أين منها دائرة المعارف البريطانية؟ ، وأريحية مع الأمور الخاصة إلى حد مزعج تُرجع فيه كل شيء إلى أصله الليلي معتقدة أن الحياة باكملها هي (شغل ليل) وضاربة المثل حول ذلك بأن شهر كانون الأول هو الأكثر زحمة بالمواليد الذين بُذرت بذورهم في فصل الربيع حيث تشتعل نيران الحب في القلوب وتتحول الصحارى إلى

حقول وجنان فيزداد شغل الليل . . أحياناً تضحك بفمها الملآن بجسور الأسنان وتقول إن الرجال والحمام والخيول والنمور والثعالب جميعاً يسيرون هكذا (وتضع يديها على كتفها كما يفعل الحمال) يحملونه على أكتافهم أينما يذهبون ، لأنه قصير القامة كما تعلمون . . تضحك شهرزاد وهي تومئ بيديها إلى أكثر من شبر للتأكيد على أنه قصير القامة . فتؤكد ذلك فتحية التي تمتلك دكاناً لتأجير المجلات القديمة ، بناء على معلومات موثقة من صفحة أسئلة القراء في مجلة طبيبك الخاص ، وتضع الحاجة نبيهة ، التي لم تتزوج قط ، فوطتها على فمها وتمتنع عن التعقيب على شيء لم تره في حياتها .

لا أحد يعلم من أية حاوية أوساخ كانت تأتي بنكاتها الخارجة عن الأدب؟ ولا كيف تستطيع حفظها؟ ، لكن هذه العجوز السومرية يزداد مزاجها خطورة كلما ازدادت تجاعيد وجهها ، أو ازداد لسانها طولاً مع تقدمها السن حتى أصبح أطول من لسان الزرافة . . . . كانت تمتلك القدرة الرهيبة على نحت أسطورتها الأبدية من تحويل تلك النفايات إلى دروس وحكايات مسلية يصفق لها جميع الطلاب . اقترحت على(تأميم) ، وهي ابنة معيط التي شحنها إليها من السويد لتربيها في بيت العائلة ، تزويجها من ابن عمها عبد الحليم شعيط قبل أن يفوتها القطار ، قائلة لها إنها قد ثقبت لها أذنيها وهي طفلة صغيرة وإن على حفيدها عبد الحليم شعيط أن يتولى الباقي . . الباقي هذا كان مثار ضحكات رقصت على

وقعها شكشوكة وخجلت لها البنت المسكينة ، فنهرتها شهرزاد وقالت : اللي تستحي من ابن عمها ما تجيب ولد؟

هز عبد الحليم رأسه أسفاً على جنون جدته شهرزاد التي أصبحت في شيخوختها لا تقوى على حمل ورقة دفتر واحدة بيدها ، ولكن لسانها كان يقوى على حمل جامخانة كاملة من دفاتر الكلام البذيء وتحويل لحية القاضي إلى مكناسة . . لو أنه كان قد صدق نظريتها عن أطباء الأسنان لما كان حدث له ما حدث . . لو أنه تزوج من فتاته التي أحبها ولاحقها قبل سنوات وما تأخر في الزواج ، لكان المدير في غرفته الآن معززا مكرما ولا يحتاج الى الخروج من باب المدرسة أو الجلوس على الاكتاف .

الفصل الثالث

فحل التوت

بومة . . كيف ضيعت تلك الفرصة من يدك قبل سنوات؟

في ذلك اليوم الأغبر الذي تحركت فيه الحافلة قبل أن يصلها ، كادت روحه أن تطلع فوق الدكة الحجرية المخصصة للانتظار . . جلس عليها ثم وقف وهو يتأفف ، ثم لاذ بساعته اليدوية يعبث بها ليخفف بذلك بعضاً من التوتر الذي ألمّ به ، وفي تلك اللحظات العصبية سمع عبدالحليم سؤالاً انطلق بصوت نسائي ناعم يأتي من مكان قريب . .

- كم الساعة ، من فضلك؟

ارتبك بشدة لهول هذا السؤال غير المتوقّع ، وارتفع قلبه ثم هوى وكأن أحداً ما قد أخبره فجأة بأنه جالس قرب مادة (T.N.T) شديدة الانفجار . أجاب :

- السادسة إلاّ ربعاً .

خرج صوت متحشرجاً دون أن يجد الوقت الكافي لتنقيحه بعد طول الصمت . . ثم بدأ يفكّر بغرابة ما يشعر به من اضطراب لدى سماعه صوتاً ناعماً بدلاً من الاحتفاء بالفرصة التي يجب اقتناصها ودونما أي احتراس ، فهل يقرر في ثانية واحدة أن يُقْدِم على التحدث مع تلك الفتاة؟ وكيف يفعل ذلك وقد مرّ وقت طويل على آخر لحظة يعدها من أجرأ

اللحظات في حياته ، عندما أعطى رقم هاتفه لبنت أُعجب بها أيام الجامعة ، فاتصلت به فعلاً في المساء وكتب رقمها باسم مستعار هو البنفسج ، وأصبح لا يستطيع أن يمنع وجهه من التحول إلى اللون البنفسجي كلما ذكر الطلاب اسم تلك البنت أمامه . ولكنها ليست زميلة دراسة أو عمل ليحدثها عن محاضرة من المحاضرات ، أو عن ملف من الملفات أو ملزمة من الملازم . . إنها غريبة عنه تماماً وليس بينه وبينها سوى سؤال عابر عن الوقت فبماذا يتحجج؟ . . وكيف يفتتح معها أول الكلام بدون خطة محبوكة ومضمونة النتائج؟ . . ومن أين تأتي تلك الخطة ، ولقد مر زمن طويل على أيام الخطط الصبيانية التي كان نادراً ما يصيبها النجاح؟ . . وهل هناك أمامه وقت للتفكير بذلك كله في موقف باص قد يغادره أو تغادره هي بعد لحظات؟ . نظر إلى يديها وهو يحس حماسته لتلك المغامرة تتصاعد كالحمى . رأى خاتماً من الفضة يعلوه لون شذري يلمع في إصبعها ، ولا يدري بعدها كيف بدأ السؤال في ذهنه أو كيف تخلّى عن خجله وأقدم على السؤال :

– آنسة . . أتسمحين لي بسؤال؟

أجابته دونما حرج :

– تفضل . .

– من أين ابتعت هذا الخاتم؟

– لماذا؟

– لأني أبحث عن واحد يشبهه تماماً . . أعني أن لون

خرزته الزرقاء هي ما أبحث عنه .

وبشكل أثار دهشته مضت تلك الفتاة الجميلة في إرشاده إلى مكان المحل بشكل طبيعي دونما تحفّظ ، بينما راح هو يراقب وجهها مستفيداً من فرصة التفاتها إليه كلّياً للتفرس في ملامحها التي بدت له بلا أخطاء ، مع ابتسامة مواربة كأنما تفضحه في نواياه ، وأنف جميل كأنه نُحت بمهارة فائقة . قدّر أنها لمّا تبلغ العشرين من العمر بعدُ ، وأنها لا تزال طالبة جامعية ، وأنها تبدو لطيفة ومؤدبة ورقيقة . وتمنى أن لا تتوقف عن الكلام الذي لم ينتبه إليه على الإطلاق ، ثم فز من ذلك الحلم القصير مع مجيء الحافلة ، والتفت إلى يمينه ليتأكد من وجود تلك الفتاة التي سألته عن الوقت ، فرآها تقترب من الحافلة التي توقفت . قال لنفسه إذن هي حقيقة وليست حلماً؟ . هرع خلفها وصعد إلى الحافلة واستقر في المقعد الذي يخالفها وهو يردد مع نفسه (السادسة إلاّ ربعاً) ، وعندما تركت الحافلة ، هبط خلفها . وبعد قليل رآها تدخل إلى منزل تبدو عليه الفخامة . . اقترب من المنزل ، بعد أن توارت هي عن الأنظار ، وقرأ الاسم المكتوب على اللوحة المثبّتة قرب الجدار ، فحفظه وقرر البحث عنه في دليل الهاتف .

ظل رقم هاتفها محفوظاً في جيبه أياماً وشهوراً ، وكان يلاحقها من بعيد وينوي مكالمتها أحياناً و لكنه في كل مرة كان يقترب فيها من الهاتف ، يحس ضربات قلبه تشتد وأنفاسه تتصاعد وأصابعه ترتجف ، فيحجم عن المحاولة ، وقد

يتجرأ فيكمل ضرب الأرقام ، ولكن ما أن ترن نغمة الجرس حتى يضع السماعة في مكانها فوراً . مرة واحدة من المرات انتظر حتى رُفعت السماعة من الطرف الآخر فجاءه صوت رجالي جعله لا يعرف كيف يطبق سماعة الهاتف بسرعة ويعيدها إلى مكانها بأي طريقة .

كلما يتذكرها ورقم الهاتف الذي يتمزق في جيبه يحس الألم يعتصر قلبه . . فلا يدري أحبٌّ لها هو أم سخط على نفسه؟ . ولكن القدر لعب لعبته من جديد في حكايته مع تلك الفتاة عندما وضعتها الصدفة مرة أخرى في طريقه ، ولم يصدق عينيه وهو يراها فجأة أمامه في عيادة طبيب أسنان . كانت جالسة وحدها بوجهها الجميل الخالي من الأخطاء ، تقلّب مجلة أزياء نسائية قديمة . هو الذي كان ينتظرها في محطة الباص كل يوم ولا تأتي . . ويتصل بها بالهاتف ولا يتكلم . . يراها هكذا . . وأين؟ في عيادة طبيب الأسنان . وفي الساعة السادسة إلاّ ربعاً . . صحيح أنّ العالم صغير . ومليء بالمصادفات . سحب مجلة وراح يقلّبها وهو ينظر من زاوية عينه اليسرى إلى يديها وصفحة وجهها . كان الخاتم نفسه الذي رآه أول مرة لا يزال في إصبعها . . يعلوه الحجر الشذري الجميل فراح يحدث نفسه قائلا «هذه المرة سأسألها عن الخاتم صدقاً وليس في الحلم . لن أدع الفرصة تضيع مني . . لا ، لن أدعها تضيع . . هذه المرة سأحدثها فعلاً . يا تُرى لو علمتْ بأن رقم هاتفها موجود الآن في جيب بنطلوني ، ماذا ستقول؟ . . هل

أخرجه لها الآن وأضعه أمام عينيها لأذهلها بالمفاجأة؟ لا . . لا . . لأتروَّ قليلاً . . لأبدأ خطوة فخطوة . . سأسألها عن الوقت . . لا بد أنها تتذكرني . . بالتأكيد هي تتذكرني . لأنتظر ، فلربما تبادر هي بالسؤال عن الوقت مرة أخرى . . أنتظر؟ . . هل أضيّع الفرصة مرة أخرى؟ . . لا . . لا ، سأسألها أنا عن الخاتم» . تنحنح بسعلة خفيفة وتململ في مكانه . . لكنها نهضت فجأة قبل أن يفتح فمه ليبادر بالكلام . . نهضتْ فور انفتاح الباب ، ثم توجهت نحو غرفة الطبيب ودخلت ثم خرجتْ ، وهو يقول لنفسه : «لا بد أنها لم تنتبه لوجودي . لو كانت رأتني لتذكرتني بالتأكيد . سأحاول أن أعرف من السكرتيرة موعدها القادم . . لا بد أن أراها ثانيةً . . ولا بد أن لديها موعداً لمراجعة أخرى» .

خرج من العيادة مرتاحاً سعيداً برغم الألم الذي سببه له الطبيب ، فقد رأى اسمها مثبّتاً في جدول المواعيد ، وهذه المرة تأكد من أن الاسم الذي بحث عنه في دليل الهاتف هو اسم والدها فعلاً ، ولكنه عندما اختلس نظرة إلى الكارت الخاص بمعلوماتها وجد الرقم مختلفاً عن ذلك الذي وجده في دليل الهاتف فتساءل مع نفسه : «لماذا الرقم مختلف؟» ثم انزعج وتحمس وقال : « هذه المرة يجب أن لا أُضيّع الوقت . . يجب أن أكلّمها بالتلفون على الرقم الجديد . هذا المكان لا يصلح . . سأكلمها على رقم التلفون الجديد» . ثم عاد إلى البيت ، وفي رأسه قرار أكيد اتخذه وقرار آخر بأن لا يرجع عن القرار الأكيد

الذي اتخذه .

أدار قرص الهاتف ، فجاءه بعد قليل صوت رجالي خشن جداً ، جعله لا يعرف كيف يعيد سماعة الهاتف إلى مكانها . جلس على القنفة ثم وقف وهو لا يصدق أو لا يريد أن يصدق أن ذلك الصوت الذي سمعه هو نفسه صوت طبيب الأسنان الذي كان في عيادته قبل قليل . معها كل الحق إذن جدته شهرزاد أن تقول إن أطباء الأسنان قليلو الأدب .

الفصل الرابع

عذراء بعد الزواج

كان حفيدها عبد الحليم شعيط واحداً من أولئك الأحفاد الذين عاشوا فوق سطح الأرض في المكان الذي تحولت فيه الطحالب والبزاقات إلى ذهب أسود بفعل النشاط الرياضي العظيم لأبطال البكتريا في التصارع ورفع الأثقال وكمال الأجسام . . عبد الحليم شعيط فتح عينيه على شعلة النفط الأزلية في بابا كركر ، والتي عجزت الأمطار والثلوج طوال آلاف السنين عن إطفائها ، كما ووهبت سكان العراق القدماء سيول النفط والقطران الخام لتبليط بعض الطرق وإكساء السقوف . وعندما كان عبد الحليم يقف على ربوة بعيدة لينظر إلى تلك الشعلة المتراقصة في صهد الشمس ، فإنه لا يستغرب أزلية تلك النار التي تتصاعد على شكل لهيب متقطع يبدو وكأنه يتصاعد من فم تنين خرافي ، فقد رآها منذ زمن بعيد يبدو وكأنه آلاف السنين . . عندما كان طفلاً يرسل بصره مندهشاً إلى الشعلة الملتهبة منذ فجر التاريخ عابقة بغاز كبريتيد الهيدروجين الذي طالما استسلمت له الريح وحملته إلى مسافات بعيدة . . . . ثمة جداول صغيرة من الزيت الحار تتدفق من الحقل النفطي توصف للتداوي من الأمراض الجلدية وقد تطببت بها جدته شهرزاد ذات يوم من حكة التايد المزمنة ،

بعكس الغاز الذي يجب تلافيه تماماً عند زيارة باباكركر ، واتخاذ الحذر ، وفقاً لنصيحة أبيه ، بمراعاة طريقة الوقوف مع اتجاه (الريح السائدة) وليس (عكسها) ، تجنبا لاستنشاق الغاز السام . . . .

عبد الحليم هذا استعار من زميله في رقابة الدوريات الأجنبية مجلة أمريكية اسمها (تايم) ، قرأ فيها أن الرجل يفكر بالجنس كل ٥٢ ثانية ، وهذا الرقم وإن بدا له قياسياً بامتياز ، إلا أن عبد الحليم رجح ، بعد إجراء التجارب على نفسه وعلى مدير المدرسة ، أن الرقم وارد بشكل معكوس ، مما جعله يتساءل عن ضرورة الإعلان ، في نفس المجلة ، عن دواء منشّط للطاقة الجنسية رسم على علبته برج إيفل المنتصب وكتب تحته (ليلة الأضواء الحمراء) . قلب تلك الصفحة إلى صفحة أخرى فقرأ أن سرعة الضوء هي النهاية المطلقة لكل السرعات وهي التي تنتقل الأشعة بها وتنتقل المعلومات أيضاً . وهي سرعة كبيرة جداً بدليل أن الاشعة الكهرومغناطيسية تستطيع أن تلف محيط الكرة الارضية سبع مرات بمجرد أن تنتهي من نطق كلمة (وان) .

لملم عبد الحليم شفتيه ورفع حاجبيه إلى أعلى عند هذا الخبر السعيد وقال بإعجاب مرة أخرى : هكذا إذن . . حتى سرعة الضوء تقاس بكلمة (واحد)؟ . . . وهذا إذن هو حال البشرية في سكرتها بالواحد منذ الأزل . . تكون للكبير طاقة كبيرة على الجذب ، فيدور الصغير حول الكبير كما تدور

الصخور في أفلاك الكواكب والنجوم لكي لا تسقط أو تتفتت . . فمن يكره كلمة (واحد)؟ . .الشعب ينام على صدر هذا الواحد ، ومن رأسه تخرج شهادات ميلادهم وتخرُّجهم وبطاقاتهم التموينية ، وهو الذي يفتي ويقرر ويعيش نيابة عنهم . . . ولكنه ليس كحامي الهدف ياشين الذي إذا عاد الى بيته ولبس البجاما سيكف عن حماية الهدف ، لأنه ليس ثمة مباراة كرة قدم تقام في غرفة المعيشة ، وليس كمايكل جاكسون الذي إذا عاد الى بيته ودخل الحمام سيكف عن تطريب الجمهور ، لأنه ليس ثمة حفلة تقام في الحمام . . . . هو السيد الرئيس الذي إذا دخل الى قصره المستورد رخامه من إيطاليا وبلوره من بلاد الجيك ، فلن يكف عن كونه رئيساً مسؤولاً عن الجميع .

تحفة معمارية فريدة من نوعها تشغل مع الحديقة الواسعة مساحة اثني عشر ألفا وخمسمئة متر لا تغيب عنها الشمس طوال النهار ، فقد تم تشييد قاعدتها الخرسانية على عجلات تدور بحيث يلف القصر بمن فيه (كل ساعة) ليرى السيد الرئيس من النوافذ والشرفات كل ما يدور حول قصره ويتبع الشمس في دورانها على مدار ساعات النهار كما تفعل زهرة عباد الشمس .

إذن إذا لبس مثل هذا الرئيس البجامة والنعلين فلن يكف عن كونه رئيس الشعب الذي يحيط بقصره قبل العصر وبعد العصر ، كما لا يمكن أن يكف عن التفكير بهذا الشعب لحظة

واحدة حتى وإن دخل الحمام أو فتح رجليه وتربع من أجل التغوط . . . . ولكن ماذا لو سحب سيفون الحمام فطغى ضجيجها العالي فوق أفكاره المخصصة للشعب؟ ماذا لو تعتعه السكر أو قرصته بعوضة مناوئة ظلت تلاحقه من مكان لآخر عدة دقائق دون القضاء عليها . . هنا سيحدث نسيان للشعب ، وقد يكون الأمر شبيهاً بأب ينسى طفله في الزحام فيتوه عنه إلى الأبد . . هنا قد تحدث الكارثة الأكيدة ويموت الطفل المسكين أو يخطفه المجرمون أو يباع إلى عصابات الدعارة . . . . . إذن من واجب الرقباء الأوفياء الأمناء أن يهبّوا لإجراء اللازم لتدارك أمر هذا السهو أو النسيان إذا ما وقع به الرئيس وإلى مطاردة البعوض حتى قبل أن يتجرا بالاقتراب منه . يفعلون ذلك من أجل أن لا تغرق السفينة في لجة البحر المتلاطم ، وهل يمكن للسفينة أو الطائرة أو العربانة إلا أن يقودها شخص واحد؟

العربانة التي يعيش فيها الرقيب الوفي عبد الحليم شعيط ممتاز ، لها كراج كبير محاط بسور ضخم وعال يتجاوزه كل يوم ليأخذ الباص الذي يقله الى غرفته الحقيرة في فندق (صح النوم) قرب ساحة الوطن الأكبر . . وكان يستغرب دردمة الناس كل يوم من إنشاء هذا السور الجميل الذي يحمي الكراج من المتطفلين قائلاً لنفسه وهو يسمع اعتراضاتهم التي لا تنتهي : «هؤلاء هم الدهماء . . هؤلاء هم الغنم الذين لا يفهمون شيئا غير الفقفقة والثرثرة الفارغة ، تارة من السور العالي وأخرى من

حزام الأمان أو من منع التجول يوماً واحداً لا غير . . . وباقي الإجراءات التي تتخذها الحكومة الحكيمة لحمايتهم وتأمين سعادتهم . . حقا إنهم رعاع ، وإذا لم يجدوا أحداً يتعاركون معه تعاركوا مع أنفسهم . . إنهم يجدون سعادتهم في التذمر وانتشاءهم بالأخبار الحزينة المزعجة . . . فلان مات وفلان اعتقل وفلان سرق وفلان حبس . . . ولو أن القائد نفسه مات (لاسمح الله) لكان هذا أكثر أخبارهم سعادة وربما داخوا بهذا الخبر المثير الى حد الثمالة» . لو كان الأمر بيده لأدخل قلمه الأحمر إلى رؤوسهم وحذف كل هذه الخزعبلات من رؤوسهم النتنة التي تعفنت وأسِنت من أكل الفول والفلافل وباقي أنواع الفطريات السامة ، وأنه ليستطيع رؤية الأفكار تتكون فوق رؤوسهم وقراءتها على شكل فقاعات تشبه تلك التي يرسمها رسامو الكاريكتير عندما يريدون التعبير عن أفكار الشخصيات التي يرسمونها .

لا يمكن لعبد الحليم شعيط إلا أن يشعر بالغضب من أفكار تلك الرعية وأفعالها الشائنة ، وهو يتناوش تلك الأفكار طوال الطريق إلى غرفته في فندق (صح النوم) ، ولكن عندما يعبر به الباص النهر العظيم باتجاه الضفة الاخرى ، وتهدأ نفسه قليلا من تلك الأفكار العصبية ، لا يدري كيف يجد نفسه يعترف بأنه هو نفسه يشعر بالإثارة عندما يفتح التلفزيون ويجد البث مقتصراً على تلاوة القرآن ، في غير موعده ، متبوعا بفاصل من الصمت المريب ثم عزف منفرد لعازف خفيف

الشعر يجلس رافعاً قدماً واحدة فوق (تختة) موضوعة أمام كرسيه الصغير المصنوع من الخيزران . . . . كان ذلك المشهد الكئيب أكثر إثارة لعينيه من أفلام الأكشن الامريكية التي تقذف فيها كواشر من الاطلاقات والسهام إلى صدور الرجال المستهترين . . . . . فهيهات أن تكون تلك الزقزقات النارية أكثر إثارة من من طنطنات العود التي تخبره ، إذا ما تعطلت لغة الكلام ، بأن أحداً من المسؤولين قد مات في الشرق الأوسط ، أو ربما أحد إخوته أو أبنائه أو أقاربه . حينذاك تبدأ هنا وهناك ثرثرات الناس المعتادة عن أسباب ذلك الموت المفاجئ ، ثم يتلذذون بالقيل والقال من الشائعات حول ذلك الخبر المثير مطلقين أعتى سجناء الخيال المريض من رؤوسهم إلى الهواء الطلق . أما هو فيظل ينتظر نشرة الأخبار ليعرف من هو ذلك الفقيد الغالي الذي سيلزمهم الحداد ثلاثة أيام تظل فيها آلة القانون تطنطن بلا توقف لحين موعد نشرة الأخبار الجديدة . كم تمنى أن يرتدي ذلك الخاتم السحري الذي ينتهي بإبرة تصعد فوق أوتار آلة القانون ثم تهبط منها كما الدرج .

تساءل بعد أن لاف الباص باتجاه ساحة الوطن الأكبر : ألا يقف الحاضرون في العالم الغربي دقيقة حداد من أجل الشهداء وضحايا الحروب؟ ، ألا يقرؤون الفاتحة على أرواحهم عندما يفتتحون الاحتفالات الرسمية والشعبية التي تمجّد أنتصاراتهم ومآثرهم التاريخية العظيمة؟ وهل الغرب هو من اخترع هذه الدقائق الصمتية المهيبة؟ أم أن هذا التقليد الجميل

هو اختـراع مسـجلة براءته باسم العـرب كـمـعظم باقي الإختراعات البارعة في تمجيد البطولات؟ . . في تلك الدقيقة من الصـمت لا يسـتطيع عـبـد الحليم أن يمنع نفـسـه من التمحيص جيداً في قفا الرجل الواقف أمامه أو في نهايات صلعته اللماعة ناظراً الى جذور الشعيرات النابتة خلف الآذان قـائلاً لنفـسـه ، وهو يهـبط من البـاص ، تلك البطولات والشـهـادات والمآسي هي التي تجـعل هذا الشـرق الأوسط العظيم ، الذي يصنعـه القـائد العظيم ، يتـصـدر الأخـبـار العظيمة . . وأشفق على السويد والدانمارك وسويسرا من أقدارها الكئيبة التي جعلتها غائبة تماماً عن الأخبار الموجزة والمفصلة في النشـرات الإذاعـيـة ، ولملم عـبـد الحليم نفـسـه عند هذا المنعطف التاريخي الذي يمر به كل يوم باتجاه مطعم الجمهورية المقابل لحمام السعادة ، واستعد لنسيان تلك المآثر العظيمة ، ليـأخـذ شـيـشين من الكبـاب وصـحناً من الطرشي مع قنينة سينالكو يضعها أمامه على المنضدة الخالدة . . . تلك لحظات ينسى فيها عبد الحليم الدنيا الفانية وأهلها الفانين ويصبح في عالم الروائح اللذيذة التي تسكره وتسْطُر رأسه فيذوب معها وينفصل المجال الكهربائي لدماغه عن التاريخ والجغرافيا والجماهير العريضة ، وما الى ذلك من الأعراض الجانبية للمواطن العربي ومجده التليد .

كانت قد مرّت ثلاث دقائق تلتها ثلاث دقائق أخرى وعبد الحليم شعيط يسير حاملاً مجلة تايم فوق رزمة مجلات

وصحف أجنبية طلبها من زميله عباس ، رقيب الدوريات الأجنبية ، تبدو في ظاهرها الاندبندنت والغارديان والتايم ، لكنها في واقع الحال للتغطية على الصن والستار والديلي ميرور ، التي قال له المدير الفيتنامي العام إنهم يشتركون بها من أجل معرفة الأسباب (الكامنة) التي ارتفع بها مردوخ من الإفلاس إلى قمة الشهرة والربح حتى وصل في نهاية المطاف إلى مكتبه في الغرفة الجديدة التي وجد فيها نباتات ظلية وارفة الاغصان علم أن هناك في الغرف المجاورة من يرعاها من الأناث الجميلات . زميلته منار التي تسكن إحدى تلك الغرف المجاورة قالت بعد جملتين فقط لا غير منذ دخوله إلى الغرفة وترحيبها به :

– من العيب أن يقولوا إن المرأة نصف المجتمع . . الرجل هو نصف المجتمع؟ .

يا لها من كلمة ترحيبية ألقتها سمراء مليحة ذات سيقان مفتولة كأعمدة الإغريق المرمرية ، ثم أضافت بعد ذلك وهي تأخذ صحيفة الغارديان من يده وتُقلّبها بين يديها ، قبل أن تأخذها وتذوب خلف مكتبها مثل حلاوة بيض اللقلق :

– انظر ما مكتوب في الغارديان؟ . . إنه بوب ديلان الذي أحبه بجنون . . هو وفرقته قد يؤلفون أغانيهم من كلمات موضوعة على لافتة متجر مروا من جانبه يوماً ما . . هذا هو الإبداع الحقيقي . . . هذا هو الفن! .

الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا . . قال

عبد الحليم لنفسه وهو لا يدري هل مشاعره اهتزت للصوت الجميل أم لمدير المدرسة الذي وجدها جميلة ولكن جريئة مسترجلة وربما مبتذلة . . كانت تروح وتجيء أمامه بتنورتها القصيرة السوداء وهي تقول :

– هل يمكنني استعارة الجغيدة لهذا اليوم؟هل هي للمدير العام؟

– نعم .

– يبدو أنه صديقك؟

بمهارة يحسد نفسه عليها أحياناً رد بهدوء وتعال :

– نعم ورقم تلفونه في جيبي .

كانت لها طريقة مميزة في تلفّظ الراء تجعل بلعومها يقوم بهذه المهمة بدلاً من اللسان . . هي ليست مهمة تدميرية بشعة كما يفعل البدو والعربان مع حرف العين . . . ولكنها نزاكة وترف ودلال كان أكثر ما يشده في النساء اللواتي يظهرن فجأة من الزوايا . . ظل صامتاً لا يدري ماذا يقول أمام ذلك الدخول التراجيدي في أول يوم داوم فيه ، المفروض أن يسلم فيه الماشي على الواقف والواقف على الجالس ، لكن الواقف ظل صامتاً بعد تلك الجملة الوردية ، التي قالتها تلك المليحة بلا خمار أسود ، إلى أن أخذت بطنه تطلق أصواتاً خافتة تشبه خوار البقر ، فاضطر إلى الإسراع في الكلام لئلا تسمع منار تلك الحمحمات التي بدأت تأتي من أماكن مجهولة في جسمه فاضطر إلى تمسيد شواربه السوداء كالفحم وهو يقول :

– أين سلة الزبالة؟

مـاذا تتـوقع من شـرق أوسطي ، يفطر على فـول (مش معؤول) ويتغـدى على لفة فلافل (بالخلطة الحراءة) ، غير أن يكون هوائيا سيّئ المزاج يائساً من الحياة والممات ، أو في أحسن الاحـوال عـصـابيـاً سـيّئ الطبـاع ، وكلُّ نظريات الانتخـاب الطبيعي والبقاء للأفضل لا تمت إليه بصلة بل لا تنطبق عليها أبداً . صدّقْ أو لا تصدق أنّ عبد الحليم شعيط لم يكن هذا ولا ذاك . . . بل كـان هادئ الطبع مرتّب الأوراق منظماً إلى حـد ترتيب أحلامه وفق الحروف الأبجدية الثمانية والعشرين للغة العربيـة ، فكان يحلم يوم السبت بالبـاميـة والبنات وبرج إيفل ويحلم يوم الجمعة بالقائد والقلم وقبة الصخرة ويترك الخميس يوماً حراً يختلط فيـه الحابل بالنابل ، فيحلم تارة بجارته ليلى ذات الجسـم الممـشـوق والصـدر الناهد وتارة بأمـه الميـتـة ذات الكراعين الطويلة التي تشبه سيقان المغزل دادة .

هذا الصباح كان قـديراً بامتيـاز لعبـد الحليم شعـيط الذي أفطر ذلك اليوم على إستكانَيْ شاي ومخلمة مطبوخة بالفطر المزروع في صحراء الرمادي ، مما جعله يتوقع لنفسه التسمم بمحو الأمية عن جهازه الهضمي ، ولكنه بدلاً من التسمم تسلّم أمر نقله من قسم الرقابة السياسية إلى قسم الرقابة المسرحية ، فبر المدير الفيتنامي العام بوعده الذي عاهده عليه بأن يكون أول تعيينه في قسم رقابة المطبوعات السياسية ، (ثم) بعد ذلك ينقله الى قسم أقل إزعاجا وخطورة . . لا يقلق فيـه أبداً ، وهو

قسم رقابة المسرحيات . . . . و(ثم) كما يتذكر من أيام الدراسة ، أداة عطف تفيد التراخي في الزمان . . وما هي إلا سنوات قلائل حتى مر الزمن متراخياً بلمح البصر ليجد عبد الحليم نفسه قد تخلص من همّ السين والجيم والكاف واللام وما إلى ذلك من أفخاخ مراقبة المطبوعات السياسية التي كانت أياماً كابوسية بجدارة . هناك حيث يتبرع أحد الموهوبين كل يوم بتحليل خاصية فيزيائية من خصائص الثورة ويتغنى بها كما لو كانت عيناً من عيون المها . . صحيح أنه كان يجد نفسه واحداً من أولئك الموهوبين التماسيح الذي يعومون بين الرصافة والجسر ، ولكن بعضهم كان يلعلع في فوق الجسر فيزف لهم كل يوم خطابات القائد الجديدة على انها أخبار سارة تماماً كمن يلتقيك صباحا ويبشرك بأن أم البزازين ، التي للتو تركت صغارها تحت برميل النفط ، حامل من جديد .

لا بد أنه يختلف عن أولئك الرقباء بخلفيته الثقافية العريضة ومعرفته باللغة الإنكليزية وأحياناً بقدرته العجيبة على التأمل أبعد مما تحتاجه ضرورات الوظيفة اليومية ، فتطرأ على باله شطحات إفلاطونية ويتساءل ساهماً ما فائدة العيون الخضراء والزرقاء للقطط والقرود؟ . . أهكذا يكافَأ من يطارد الحشرات والسحالي ويفرح بعمى أهله ولا يعرف شيئاً عن شكسبير أو تشيخوف أو ألفريد فرج؟ . .

الآن ، وليس غداً ، يستطيع العودة إلى ولعه القديم بقراءة المسرحيات والاستمتاع بروائع الأدب العالمي التي كانت تحال

إليه من الفرق المسرحية بعد تعريبها وتحويلها إلى مسرحيات محلية تتحول فيها البارونات إلى بيكات وأفندية ، وعربات الهمبركر والهوت دوغ الى عربات لبيع الشلغم والباقلاء واللبلبي . . . من الآن فصاعداً يستطيع أن يجري تغييراً جوهرياً على أحلامه ، فيحلم يوم السبت بالملهى والمطعم والمسرح ، ويحلم يوم الأحد بالعرش والمعبد والخزنة ، ويحلم يوم الإثنين بالصاية والصرماية والصولجان . . هذا هو المسرح . . ملابس مختلفةٌ ألوانُها ، وأضواءٌ تسطع في كل مكان ، وشخصيات تتنوع من الشحاذ إلى الملك ومن العاهرة الى القديس ، وبينهم سيقف هو مزهواً يحذف هنا ويؤشر هناك بقلمه الأحمر الذي يحمل الرقم خمسين بين أقلامه التي طلبها من قسم القرطاسية على مدى خمس سنوات ، وهو الآن يحتفظ بها بعد أن نفد حبرها داخل علبة من القطيفة الحمراء سماها (صندوق المحاربين القدماء) .

فيما مضى كان هو نفسه يكتب المسرحيات والقصص القصيرة والمقالات كمعظم طلاب دورته من الكلية ، ولكنه لم ينشر أياً منها في أي مكان . . ألْفُ فكرة وفكرة لم يأكل أو يشرب عليها أحد . . ألف شمعة وشمعة احترقت في ظلام الليل . . ألف ورقة وورقة تمزقت وانتهت الى سلة المهملات ، ثم ذهبت أدراج الرياح ، لأن أبطال الصفحات الثقافية كانوا يسخرون من جعله أبطال قصصه يختلفون حول جوهر القضية المركزية بين (مناصر) و(مؤيد) مؤكدين وجهات نظرهم التي لا

تقبل الطعن بكلمات مثل (لا غرو) و(لا مندوحة) و(لا بد) و(لا محالة) . . . . وعندما يريد (أو يحاول) جاهداً اللحاق بركب الحداثة عبر اقتنائه لموسوعات المصطلحات الأدبية ودائرة المعارف البريطانية وقواميس غرائب المفردات ، فإنه في النهاية يفشل في الكتابة عكس أدراج الرياح أو إقناع إنائه بالكف عن النضح بما فيه . . تلك قاعدة (جوهرية) لم يخترعها هو ، ولكنها تنطبق عليه وعلى غيره من الناس . . وظل كالعذراء بعد الزواج . . يذهب إلى جزيرة الأعراس السياحية (أم الخنازير سابقاً) ويعود منها دون أن يتمحور أو يتغير جوهره من حال إلى حال ، مما جعله مرشحاً مزمناً لمنصب الرقيب الأقدم في الوزارة ، وهو المنصب الذي توقع أن يقفز إليه بلمح البصر .

عندما تذكر ما درسه في الجامعة عن تيار الوعي وأبطاله من أمثال فرجينيا وولف وجيمس جويس ووليم فوكنر ، فإن كل الذي مر في باله سطّره أحد الأيام دفعةً واحدة على ورقات صغيرات كانت كافية لتسطير قصة قصيرة من ثلاث صفحات سارت كلماتها بشكل متراتب من الديموقراطية إلى كراج النهضة ونادي الزوراء وسيارة النفرات . . . صحصحها لاحقا إلى النافرات تماشياً مع ورك فتاة الاستعلامات وصدر فتاة الحسابات والشكل المستفز(لا محالة) لنادية الجندي أضاف إليها لاحقاً بسطال الجيش الشعبي والأسبوع الثقافي في موسكو وكيلو الباذنجان ولفة الفلافل وبطل السينالكو . . . . . ثم القلم الأحمر . . . وميرامار وأنت عمري وصوت السهارى التي

كان يخاف منها في طفولته وأخيراً عنابي يا خدود الحليوة أحبابي يا خدود الحليوة . . الحليوة طبعاً هو مديره الفيتنامي العام الذي خصص له غرفة زجاجية يغرق فيها مع نفسه ويغرف من أقلامها الحمر الكثيرة ، حيث تتوفر له الأجواء المناسبة لجعل الفرق المسرحية متشابهة مثل مكائن معمل الوفاء للجواريبات والفانيلات والمناشف اليدوية . . وليس أدعى للوفاء لجوهر القضية المركزية من وضع العراقيل أمام أية فرقة مسرحية تحاول التفلسف برؤوس الناس من خلال الحديث عن أشياء سخيفة لا معنى لها ولا طعم ، كالرموز والتداعيات والأقنعة والأنسنة والعصرنة وما شابه من سخافات طالما تبجّح بها بدر ، هذا الموظف (التقدمي) الغامض الذي يبدو كالذئب الوديع في حقول الحملان يسرح ويمرح على هواه . . . . كل يوم يحمل بين أسنانه جملة جديدة يدور بها عليهم ويتفلسف . . فتارة يقول له إن البنية الفوقية بآدابها وفنونها تعكس بأمانة ما تنطوي عليه البنية التحتية من علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وإن النظرية الماركسية تعد كل من لا يلتزم بهذا الطرح رجعياً متحللاً . . وتارة أخرى يقول له إن لوكاتش أمل في أن تلتحم الواقعية النقدية مع الواقعية الاشتراكية ، إذا تشبثت الأولى بالاستبصارات العقائدية الاشتراكية ، لأنها تمكّن الكاتب من أن يعطي تقريراً أكثر شمولاً وعمقاً عن الإنسان ككائن اجتماعي أكثر مما تستطيع أية عقائدية تقليدية . . . وفي غزوة ثالثة يقول له «وقد يؤخذ على لوكاتش

أنه لم يستطع التفتح على الأعمال الإبداعية الجديدة ، بالإضافة إلى تفضيله أعمالاً دون أخرى ، بدوافع أيديولوجية بحتة ، كذلك فإن تركيزه الشديد على المضمون أفقده الاهتمام بالشكل الفني للرواية . وهذا على العكس من نظيره لوسيان جولدمان ، الذي أبدى مرونة ومقدرة فائقة في استنتاج بناء البيئة الاجتماعية من الشكل الروائي» .

تفو عليهم جميعاً . . . صحيح كومة حجار ولا هالجار . . قرأ حتى تحول إلى فأر يقرض أوراق الكتب . . ثم استحال الفأر إلى ثعلب يدور حول نفسه فيزعج دورانه من يراقب ذلك الدوران ويدوخ من هذا الثعلب العجوز الذي غالباً ما يرمق عبد الحليم بنظرات ماكرة ، إلى أن ضحك له الحظ أخيراً وجاؤوا له بمنار ، تلك الموظفة السمراء التي استعارت منه صحيفة الغارديان في اليوم الأول لدخوله إلى الغرفة وقالت له ، في محاضرة من محاضراتها الألف ، إن بدر يُذكّرها بفيلسوف مغربي بدأ حياته راعياً للغنم في منطقة تقع قرب الحدود المغربية الجزائرية ثم عمل مدرساً في المرحلة الابتدائية يعلم صغار التلاميذ الحروف الهجائية (أ ب ت ث) ثم انتهى إلى أن يكون «ابن رشد العصر» . . هكذا وقفت منار كعادتها أعلى من مستوى سطح البحر ثم نظرت إلى واحد من فناجينها المقلوبة وقالت وهي تحك حاجبها الأيسر بإظفرها : إن بدر يقرأ كثيراً ويقرض الكتب مثل فأر ، ولا بد أنه يضج بالشكوى للقريبين منه قائلاً «إن هناك كتباً لم أقرأها بعد» ، وعلى الأرجح أنه في

كثير من الأحيان يقرأ بعض الكتب أكثر من مرة .

هي تعمل في قسم الدوريات بالمكتبة الوطنية ، ولكنها أصبحت تداوم معه في قسم رقابة المطبوعات ولا يدري لماذا انتقل هذا القسم ، الذي يعمل فيه ، إلى دائرة المكتبة الوطنية القريبة من الباب المعظم . . هي الآن تعيش معه في مكتبها المقابل لمكتبه في غرفة زجاجية . . وستسقي نباتات الظل والزينة من موقع قريب وتقصفه بين حين وآخر بنظرات حالمة تصرعه على الفور بنيران صديقة .

الفصل الخامس

بالمشمش

. . . . . كل الإنشاءات التي كتبها في الماضي لجيرانه وأقربائه وأبناء إخوته وأخواته لا زالت مصدر فخره وفخر العائلة التي لا تعرف من تلجأ له في أيام الأربعين لامتحانات البكالوريا سوى ابنها البار عبد الحليم . . كانوا يستنجدون به في تلك الأيام الطويلة ، فيهرع إلى نجدتهم بإنشاءات معتبرة عن الوطن أو الصداقة أو أخلاق الأمم ولا يرمي إنشاءً منها إلى سلة المهملات . يبدأ تلك الإنشاءات بجملة واحدة تقول : «على عتبات الزمن تمر الأيام وتتقلب لتتمخض عن أحداث جسام» . . في حين يمضي الزمان والأيام واقفة على بابه لا تمضي ولا تتقلب ولا تتمخض أبداً عن شيء . . لا زوجة ولا بيت ولا حديقة تزهو بوردة رازقي أو شجرة توت ، ولا إنجاز أدبي مرموق أو قصيدة عصماء ينال بها مكارم الشبل أو أبيه الأسد . .

«بالمشمش» . . قال لنفسه وهو يحدق في مكتبه الجديد الذي أصبح بيته الوحيد ، لا يفارقه إلا مضطراً من أجل النوم في غرفة حقيرة يضمها فندق رخيص اسمه (صح النوم) يقع مقابل (حمام السعادة) في شارع الجمهورية الذي تبدل اسمه ثلاث مرات في غضون عشرين عاما ، بينما تقول جدته شهرزاد

إن ساحة الطرف الأغر في لندن لا زالت تحمل الاسم نفسه منذ مئتي سنة منسوباً إلى الانتصار الإنجليزي الكبير في معركة الطرف الأغر البحرية والتي دَمّر فيها الأسطول البريطاني أسطولي فرنسا وأسبانيا عام ١٨٠٥م . . قرنان من الزمان وهذه الساحة ، التي يتوسطها تمثال ضخم لقائد المعركة اللورد نيلسون ، محاطة بأربعة أسود برونزية ومجموعة من النافورات والتماثيل المتباعدة ، تحمل الاسم نفسه .

قالت له أيضاً شهرزاد عاشقة الأخبار والحكايات ، إنها سمعت خبراً في البي بي سي يقول إن السلطات المحلية في لندن تدرس خططاً لنصب مُجسّم للملكة إليزابيث الثانية على ظهر حصان فوق قاعدة العمود الرابع الشاغرة في ساحة الطرف الأغر وسط العاصمة البريطانية . . شهرزاد حاولت لفظ الاسم كما سمعته من البي بي سي (ترافلغار سكوير) ولكنها لم تستطع نطقه بأكثر من طرف الجار ، كما لم تستطع تخيل ذلك العمود الشاغر إلا على شكل دنكة من الأسمنت تضع عليها بلدية رأس الحواش مجموعة من دلال القهوة المرة . قصر بكنكغهام أيضا تتخيله على صورة القصر الموجود قرب نصب الدلال المرة في ساحة عنترة بن شداد . أما جدران القصر فتتخيلها مصنوعة من الحجر الابيض ، وتحيط بها الكلاب السائبة التي تتدلى أثداؤها إلى الأرض لتبحث بين قمامة القصر عن طعام لها .

لطالما أُعجبت شهرزاد بحب البريطانيين لأسمائهم القديمة

ولأغراضهم القديمة ، ومثلهم تفعل ملكة بريطانيا إليزابث الثانية التي تعرف جيداً كيف تحافظ عليها . . فقد سمعت من برنامج «تقارير حول العالم» أنها احتفظت بحقيبة يد من ماركة «شانيل» أكثر من ربع قرن من الزمن وظهرت مرتين في حياتها ، الأولى في صورة تجمعها بالرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون ووزير خارجية بريطانيا إدوارد هيث بداية السبعينيات ، والثانية في صورة تجمعها بالرئيس الأميركي بيل كلينتون أواخر التسعينيات .

وجد عبد الحليم فندق (وجنة الشارع) أفضل من التنقل كل يوم بين محافظة وأخرى من أجل الدوام في بغداد . وبالرغم من أن ممرات الفندق كانت تخنقه بالظلام والروائح الكريهة فقد تحمل تلك الظلمة والجدران المتسخة واعتبر وجوده في العاصمة قريباً من دائرته في المكتبة الوطنية قضية مركزية ومصلحة وطنية تهون من أجلها الرطوبة أو السكن في بناية قبيحة المنظر إذا نظر من نافذتها الأولى فلن يرى سوى عالم سفلي من باعة الطاطلي والسجائر والملاقط والمقراضات وشفرات الحلاقة . . وإذا نظر من نافذتها الثانية فلن يرى سوى عمال مصريين تتدلى آسقيات الفانيلات على أكتافهم وينكبون على ماكنات تدور وتهدر في غرفة حقيرة للغزل والنسيج اسمها معمل الوفاء للجواريبات . . . . لعله كان يشعر بالفخر كونه المثقف الوحيد في ذلك الفندق الذي يسكنه الباعة والطلاب والشحاذون وكاكا وكرومبا وبياع الهواء . .

أيباااااه . . . تلك كانت بداية إحساسه بالأهمية الممنوحة له من صاحب الفندق ، حتى وصل في نهاية المطاف إلى الغرفة التي اضطر إلى استئجارها في فندق (صح النوم) المجاور لمنطقة الميدان ، بعد أن اتضح له قبل انتهاء حروب الثلاثين عاما أن فندق (وجنة الشارع) ستصادره الحكومة لأنه يقع فوق أرض يمر تحتها المترو .

كان عاشقاً لحذافير الدوام إلى حد الإدمان ، فيطلب في الصباح قدحاً من الشاي مع صحن الفلافل والطرشي ، وعندما يذوب ذلك الطعام الذي يشبه سماد الحدائق في فمه فإنه يشعر بلذة غريبة تنقطع لها الأنفاس وتهون معها كل مصائب الدنيا وأفعالها الشنيعة . المرة الوحيدة التي جرب فيها الجلوس في مطعم راق ونظيف كانت عندما قبض مكافأة محترمة من مديره الفيتنامي العام . . . وضعها في عبه الدافئ ثم توجه الى مطعم الخشخاش في ساحة الفردوس ، ولكنه عندما دخل المطعم وجلس بطريقة اسفنجية على المقعد الوثير ، أصبح لامرئياً يكاد يتبخر . . وقد شك عبد الحليم أصلاً في وجوده هناك لأن ندل المطعم جاؤا وحدانا وزرافات فأخذوا من منضدته المملحة والمزهرية وأعواد الأسنان . . وأخيراً عندما جاءوا له بالطعام وجده مليئا بالرموش .

إبناً لأم تؤمن بالسحر والجان والطلاسم ، وأب حزبي يؤمن بالوحدة والحرية والاشتراكية ، لم تجعلا منه متديناً ولا جعلت منه ملحداً . . أنه في المنطقة الوسطى بين الجنة والنار . .

صحيح إنه لا يصلي ولا يصوم ولا يقرأ القرآن ، ولكنه أيضاً لا يشرب الخمر ولا يمارس الفاحشة ولا يلعب القمار ، وقد نصحه صـــديق له كـــان جندياً ذات يوم (بقي جندياً الى الأبد) باستبدال الزوجة بتلك المجلات الأجنبية التي يدخلها معه إلى الفراش فتنقلب نساء الورق بين يديه إلى نساء عاريات من لحم ودم تجعل مدير المدرسة يزبد ويرعد ويبكي وهو يهزه من سمت الرأس حتى أخمص القدم . كانت تلك المجلات تتستر على مدير المدرسة من الفضائح التي كانت تباغته في الباص عندما يحتك جسده بيد فتاة ، فيبدأ التيار الكهربائي بالسريان العاصف في جسمه وتنقطع أنفاسه ويتصبب العرق غزيراً من وجهه ، ثم يحدث أحيانا أن ينفلت الأمر من زمام السيطرة ويكاد يخرج المدير من باب المدرسة قبل أن يكتشف أن تلك اليد لم تكن سوى حقيبة جلدية لإمرأة عجوز . .

تلك نكتة قديمة عن رجل انفتح سحابه فقال له صديقه سحابك مفتوح ، فقال له الرجل في المرة القادمة لا تقل لي سحابك مفتوح بل قل لي باب المدرسة مفتوح ، فأفهم أن سحابي مفتوح . . . وجاءت المرة القادمة فقال له صديقه باب المدرسة مفتوح . . . . . والمدير طالع!

روى تلك النكتة خياط مصري اسمه صميدة له باع طويل في النكات الخارجة عن الأدب . . . . . عندما كان يُجري بروفة سروال لجده ممتاز قارئ المقام ، فتمالح الخياط بها معه ، بعد أن سأله أنت بتحط الناظر فين ؟ . . رحمه الله كان خياطاً حاذقاً

في قلة الأدب أكثر من حذقه بالخياطة ، مما جعل جدته شهرزاد تضيف تلك النكتة إلى ذخيرتها الإستراتيجية من النكات القديمة ، ثم ترويها نقلاً عن زوجها ممتاز ، لصاحباتها اللواتي كن يجتمعن في بيتها كل صباح ، فتجعلهن يقهقهن من الضحى إلى صلاة الظهر لتلك النكات الخارجة عن الأدب كهذه وغيرها من النكات . .

جدته شهرزاد . . يا سلام . . سفيرة سومر إلى ماسحي الأحذية والزبالين والعاطلين والشحاذين والبستنجية والمبيضجية وخياطي الفرفوري وجرّاخي السكاكين الذين كانت تُؤاخيهم بدافع الشهامة الخالي من الإحساس بالنفاق أو العطف أو الشفقة . . ومعهم كانت تُؤاخي باعة الفافون والفرارات وبيض اللقلق في حي أور الذي سكنته بعد انتقالها إلى بغداد ، فتساكنت مع سسترات المركز الصحي في الحي بدافع إتقاء نوبات ارتفاع ضغط الدم التي تسببها نشرات الأخبار ، وليس بدافع بلوغها من العمر عتياً ، حيث لا يعرف أحد على وجه الدقة متى ولدت شهرزاد وكم يبلغ عمرها وفي أي عهد جاءت إلى الدنيا . . . . لا زال لسانها يرطن بمسكوكات العصمانلي اللغوية فتسمي الفواكه بالميوة والببغاء بالبيبي متو والمنضدة بالماصة ، ولكن عقلها كان يعمل خلافاً للسانها وفق آخر مدارات الساعة .

«بل بدافع النفاق والتجمل الطبقي» . . . . هكذا تفلسفت منار وسمّت تلك الازدواجية بالهامش والمركز وقالت له نقلاً

عن كاتب فريد اسمه فريد «يفرض الطغاة على شعوبهم التهميش عمداً ، ويفرض الإمبرياليون على الأمم المضطهدة الأمر نفسه ، وتفرض الطبقة الأقوى التهميش على الطبقة الأضعف ، وهذا قانون عامّ . . فالتهميش يخترق المجتمعات الطبقية من أقصاها إلى أدناها ، ولا يمكن تصوّر وجود إمبريالية بدون هامش ، ولا برجوازية دون هامش ، ولا إقطاعية دون هامش ، ولا أسياد دون هامش . . . . ومعالم ذلك تغطّي تاريخ البشرية . سواءٌ تمّ تناول العلاقة بين المقهورين وقاهريهم على نطاق خارجيّ أو داخليّ ، فإننا نكون إزاء مركز وهامش تتحكّم بعلاقتهما تناقضات أساسية ، وإنكارُ التضادّ بين هذين القطبين ليس سوى حذلقة فكرية لا تصمد أمام وقائع الحياة العنيدة ، وثوراتُ المهمّشين وانتفاضاتهم برهان على ما نقول .» . . .

تدخّلَ بدر تلك اللحظة المواتية وقال لعبد الحليم : كل ما هنالك أن البروليتاريا الرثّة هي ما اعتبرَها كارل ماركس كتلة من البشر تعيش على هامش المجتمع دون مهنة محدّدة . . وإذا توخينا الدقة فلا يمكن أن تختال بهم جدتك وتسميهم بالأصدقاء . . . احتراماتي . . . .

الفصل السادس

نسر وتاج وشجرة أرز

بدر هو الزميل الذي يداوم في غرفة زجاجية تقابل غرفة عبد الحليم الزجاجية ، فيبدو جسمه المغطى بالشعر الأبيض من خلف الزجاج متوهجاً كالبدر في تمامه . . . لحيته ، كما قال ، كانت فيما مضى موقفاً من العالم الظالم ، وما كان يهمل حلاقتها إلا للاحتجاج على أهله أو دنياه أو روحه الشقية . . . أما أسمه فواحد من الأسماء التي يبذل الأبوان الغالي والنفيس من الوقت كيما يدل هذا الاسم الذي يختارانه على معنى جميل ، وعندما يكبر صاحبه يبذل الغالي والنفيس من الجهد كيما يتشابه هو مع ذلك المعنى . . ولهذا قالت منار ، وهي تراه للمرة الأولى ، صدق من قال إن لكل امرء من اسمه نصيب ، وضربتْ المثل حول ذلك بصدام ووديع الصافي وخليل الرفاعي . . وانتظرت أن يضيف لها عبد الحليم ، اسمها الذي يعني الشعلة التي يُقتبس منها العلم والنار ، ولكنه لم يفعل ذلك وإنما قال لها : من غير المعقول أن يكون بدر قد خرج من بطن أمه هكذا مغطى بهذا البياض؟ فقالت لا أقصد هذا يا أستاذ (يا أستاذ هنا تعني يا غبي) ولكني أقصد أنه لطيف ودافئ ومكتف بنفسه كما البدر . . . . ثم ابتسمت وهي تتأود كورقة تطفو فوقَ الملح المذاب بماء البحر :

– هي إز فيري يوت .

– ماذا؟

– إنه لطيف جداً .

– لا يغرك المظهر . . . هذا إنسان مغرور .

دخل بدر في تلك اللحظة متجولاً بينهم كالثعلب ، فقالت له منار :

– كنا نتحدث عنك . . . قلت إنك دافئ كالبدر فقال إنك مغرور .

التفت إليه بدر وقال :

– احتراماتي عبد الحليم . . أنت تصنع خللاً في استجابة بريئة . لست مغروراً ولا متواضعاً . . إنني ببساطة متخصص بالمغادرة وبالأعمال القلبية المرتبطة بها وباليأس وعدم التصديق والانسحاب من الحياة . أي علامة عن إعجابي بنفسي ناتجة من هالة العزلة والشعور بالكفاية التي تكللني ربما . فيما عدا هذا فأنا امتلك قدرات حدسية أكثر من المعرفة . لكن ما المهم هنا؟ لا شيء في الحقيقة غير ما يتبقى مني عندك وما يتبقى منك عندي ، هذا الذي يأتينا بالأحلام ، هذه الأعجوبة كونك تعيش ولديك زميلة حلوة تسميني فيري كيوت . لماذا لم يخطر ببالك أنني فيري كيوت بسبب منظري المضحك التائه وغير المؤذي بالمرة . . جميع الشباب يحبونني لأني أعاملهم كباراً فيما أنا أبدو صغيراً وطارئاً . . أنا أعرف نفسي كما ترى . . أعرف أنني بريء ومستقيم ولا مبال بطريقة جذرية .

شعر عبد الحليم بأن نظرات منار مصوبة نحوه بتشف شرير وهي تقول :

– أرأيت يا أستاذ؟ .

قال عبد الحليم مغتاظاً :

– اصعد على الشجرة يا عم بدر .

– ماذا؟

– اصعد على الشجرة . . مكانك ليس على الأرض .

منار التفتتْ إلى الأستاذ وقالت :

– إذا كان مكانه فوق الشجرة حقا فهو يا (أستاذ) كالنسر العجوز ، يجب أن يقف فوق غصن قوي نافر من أعالي الجبال .

زم عبد الحليم شفتيه ورفع حاجبيه وقال :

– هه . . . النسر العجوز .

ثم وضع القلم الأحمر جانباً وراح يضحك بشكل متواصل .

بدر هذا كان صامتاً أغلب الوقت ، ولكنه إذا تحدث لا يتوقف عن الحديث . يضع لفافة التبغ بين يديه قبل تدخينها بساعة . . ويدندن أحياناً مع نفسه بأغانٍ قديمة من طراز ضي القناديل والشارع الطويل فكرني يا حبيبي بالموعد الجميل . . . . في لحظة بوح نادرة أخبرهم بدر بأن الشارع الطويل لم يقده ذات يوم إلى موعد جميل وإنما إلى الجلوس في قاعة يتزود فيها المراجعون بالأرقام ثم تتلى فيها الأرقام لحين مجيء وقت المقابلة ، هنا تعثّر بدر بحرف القاف وانقبض بلعومه وتحشرج

فأعاد الكلمة وقال مققابلة ، وعادة ما تكون المقابلة بعد انتظار طويل يصمت فيه جميع من في القاعة ويلبدون كمن حط فوق رأسهم الطير ناظرين إلى جوازاتهم الموضوعة في أحضانهم ، بعضها يحمل صورة التاج والأخرى صورة النسر أو شجرة الأرز . . . . وكانت جميع المعاكسات تحدث معه في ذلك اليوم المشهود الذي اجتمعت فيه المصائب عليه ليس مرة واحدة بل ثلاث مرات . . مرة ترك أحدهم حقيبته السوداء بالقرب منه على المقعد وقال سأعود بعد قليل ولكنه ذهب ولم يعد إلا بعد أن جمدت جذور الشعر في رأس بدر من شدة الخوف ، والمرة الثانية عندما نسي رجل آخر موبايله بالقرب منه ومضى إلى الحمام وتأخر هناك أكثر مما تتأخر امرأة في صالة الولادة حتى ظهر أخيراً شرطي بصحبة شرطي يسألانه عن صاحب ذلك الموبايل المتروك بجانبه ، وثالثة الأثافي عندما كان الحر خانقاً في القاعة المزدحمة بالبشر ، والكل ينظر إلى مروحة لا تعمل موضوعة في آخر القاعة ولا أحد يجرؤ على النهوض إليها . . ولكن الحر اشتد أكثر وأكثر مع اقتراب الظهيرة وتزايد الأعداد والأرقام التي يتلوها الميكرفون ، فنهضتُ أنا ، قال بدر ، لتشغيلها وسط نظرات الإعجاب والذهول من المنتظرين الواضعين جوازاتهم في أحضانهم ، وما أن ضغطت على زر التشغيل حتى أطلقت المروحة فرقعة رهيبة فهاجت القاعة وماجت وحل الدخان بدلاً من الصمت . . . وعينك ما تشوف إلا النور . . . أخذوني في سين وجيم ، وغبت عن الدنيا ستة

شهور وجدت نفسي بعدها مرمياً على الحدود وممنوعاً من السفر إلى ذلك البلد العربي .

بعد أن انتهى بدر من رواية تلك القصص الحزينة ، دخل عبد الحليم إلى الحمام ثم خرج وهو يقول لنفسه : هذه فروسية في غير مكانها ، وهذا الرجل يعتقد أنه يستطيع تغيير العالم بمثل هذه التصرفات . ولكن رياح التغيير هبت من كل الجهات والمطر بدأ يزخ فانفتحت نافذة منار على مصراعيها وقالت إننا نعيش عصر رق أسوء مما كان في الجاهلية ، لأنها أيضا مرت بموقف مشابه في دائرة لفحص الدم في بلد عربي كانت مليئة بالعبيد المشترين بأبخس الاثمان من الهند والباكستان وسيريلانكا وأندونسيا . . كان منظرهم يثير العجب عن حاجة شعوب نامية إلى كل هذا العدد من الخدم . . وعندما طلب منها عامل سيرلانكي مساعدتها في ملء الاستمارة المكتوبة باللغة العربية وجدت نفسها هي الأخرى تعامله بلاوعيها كنوع من البشر يقوم بالأعمال الدنيا فقط . . نعم عندما أردت ملء خانة المهنة ، قالت منار ، وجدتُ نفسي أقوم بتمثيل دور الكناس أو البستاني أو المنظف . . وهذا أمر مؤلم أن ترتبط تلك المجاميع البشرية بمهن دونية تتعلق بنفايات الآخرين . أما عندما توقفت عند اسمَيْ الأم والأب فكان الأمر سهلاً وحاولت إفهامه بالمطلوب دون استعمال الإشارات كما فعلت ذلك عند السؤال عن المهنة ، إذ ما أن قلت له ماما وبابا حتى فهم السؤال على الفور .

هه . . لا يدري عبد الحليم لماذا قالت له ماما وبابا ولم تفعل ذلك بالإشارات أيضاً؟ تفلسفت بعد ذلك قائلة إن هذا هو ما يراه نعوم تشومسكي من أن الإدراك اللغوي والقدرة اللغوية هي صفات إنسانية أساسية تكمن في النوع البشري وليست مكتسبة . . ثم استعرضت ، كعادتها ، سير الأولين وأساطير الآخرين وقالت إن تشومسكي كدي سوسير يعتقد أن اللغة لا يمكن أن تكون ردود أفعال على أفعال ، ولكنها تتولد من جهاز في الدماغ يمكّن الانسان من اكتساب الكلمات ، وهو الذي يخص الكفاءة في تعلم اللغات ، لكن الفرق بين الاثنين أن العم تشومسكي اهتم بالجانب السوسولوجي ، والعم سوسير اهتم بالجانب اللنكوستي ، فقد كان شغلهما المشترك هو الكفاءة اللغوية قبل الأداء ، لأنك لو أعدت جملة «لا ترم قشر الموز إلى الأرض» مثلاً عشر مرات على طفل فإنه سيقولَها مقلداً اسم الموزة فقط . أما قواعد الجملة فسيقلّبها على مزاجه الخاص من تذكير وتأنيث . ليستعمل ما بحوزة جهازه اللغوي من مفردات وعلى طريقته النحوية الخاصة التي لم يتعلمها من أحد . . . .

تفو عليك يا منار . . وتفو عليك يا تشومسكي . . وتفو عليك يا دو سيسير يا أبو المصايب . . ما علاقتك أنت وبداهتك اللغوية بالسين والجيم والكاف واللام ذلك الاختراع العربي الذي ما أجمله للحفاظ على النظام وحماية أمن المواطن العربي؟ . . . زفر عبد الحليم الهواء من رئتيه ثم أغمض عينيه وقال لبدر :

– إنك شيوعي أكيد يا عم بدر ، وهذا واضح من تدخلك فيما لا يعنيك .

– احتراماتي . . كانت الدنيا حارة ، فهل أتصرف كالبخيل مع الصوبة النفطية . . يحتضنها إذا اشتد البرد ثم ينتظر قليلا . . وإذا اشتد البرد أكثر يشعلها؟

– لا أفهم ما تقول فلماذا لا تحدثني بما أفهم؟

حدث تلك اللحظة شيء غير مناسب ، فحاول عبد الحليم أن يدفع الكرسي إلى الوراء لكي يغطي على حمحمات بطنه التي أخذت ترتفع بصوت مسموع . . لها قصب السبق في فضائح الصمت الرهيب . . يحدث هذا في المصعد أيضاً عندما يخرس الجميع صاموت لاموت ولا يدري لماذا تتحدث بطنه بطنين النحل وتخرج وحدها عن الأغلبية الصامتة دون باقي البطون . عندما خرج بدر من الغرفة قال عبد الحليم لمنار :

– لا أثق بالرجال الذين يحلقون شواربهم .

– بمن تثق إذن؟ . . بمن يصبغ شاربيه بصبغ القنادغ؟

– ومن هذا الذي يصبغ شاربيه بصبغ القنادر؟ . . ألا ترين عينيه الماكرتين كعيون الثعالب؟

– حرام عليك . . إنهما ذابلتان مثل وردتين صفراوين .

عيناها نصف مغمضتين وكأنها تقف خلف ميكرفون . . قالت :

– مثل وردتين صفراويين مغشوشتين بالندى .

– والله أنت التي مغشوشة بهذا الرجل ، وسترين أنه

ثعلب عجوز وليس نسراً عجوزاً .

لم تكف بطنه عن القرقرة ، فأخذ يخشخش بأوراق مجلة يقلّبها بين يديه . . قال لمنار :

– هل أقرأ لك برج القوس؟

قالت منار باستغراب :

– كلا . . إقرأ لي برج الأسد .

– هل هو برج أحد الأصدقاء ؟

– نعم .

– أيُّهُم؟ فهُمْ كثر؟

– أنا فعلاً يا عزيزي لدي كثير من الأصدقاء ، ولكن لا أعتقد انك تعرفهم .

– هل هم من دائرة ثانية؟

– لا يا عزيزي . . . ولكنهم موجودون هنا . .ألا تجدهم معلقين هنا على لوحة الجدار؟ . . يبدو أنك لا تفهمني؟ . . ولا تراني من بعيد سوى ألوان وأساور وقلم كحل وقلم أحمر شفاه . . . بينما الأهم من كل أولئك بالنسبة لي هو قلم الحبر الذي أكتب به على لوح الكلمات .

ثم أخذت منه المجلة وراحت تقرأ بصوت عال :

– خصائصه : نشيط ، متسلط ، حاسم ، مجادل ، صاحب شخصية فذة ، قد يصادف وأن تلتقي أحد مواليد برج الأسد وتجد عنده الوداعة والهدوء ولكن حاول أن تستفزه فيسقط قناع الوداعة . . الأسد واثق من نفسه ، من خطوته ، من آرائه ،

يسعي لأن يكون دائماً في الطليعة آمراً وليس مأموراً ، يرفض أن يستمع إلى نصائح الآخرين مع أن عنده متعة كبيرة في إسداء النصائح وإلقاء العظات .

– يبدو أنه برجك أيضاً ؟

– نعم .

– هذا واضح من متعتك في إسداء النصائح . لا أستطيع التركيز في القراءة من كثرة العظات .

تنهدت بلامبالاة وراحت تترنم بصوت خافت بموسيقى غريبة تبعث على الاكتئاب . . ثم نهضت من مكانها وكتبت حكمة اليوم على اللوحة المعلقة خلفها . . دخل الحمام وخرج وهي لا تزال تواجه تلك اللوحة التي ملأتها بكلمات وأشعار واقتباسات قدرية مكتوبة على الجبين ويجب أن تراها العين . . الحائط مزود بمسمار واحد لحمل تلك اللوحة ، ولا أحد بإمكانه اعتراض طريقها الملتوي كطريق نحلة ، وكيف يمكن اعتراض طريقها إذا كان العقل البشري تمر عليه ستون ألف فكرة في اليوم كما تقول منار وتعلن ما تقول . . . يبدو الأمر لعبد الحليم أصعب بكثير من اعتراض جوقة من الدبابير وقت الطلعة من المدارس : الساعة الأكثر ظلمة هي التي تسبق الفجر . لو أعطيت الأحمق خنجراً أصبحتَ قاتلاً . ما أسهل أن تكون عاقلاً بعد فوات الأوان . البيوت السعيدة لا صوت لها . لنتعلم من النملة التي لا تبحث عن المداخل بل تصنعها . يمتلك المعلم أعظم مهنة ، إذ تتخرّج على يديه جميع المهن الأخرى .

التجربة مدرس صارم يجري الامتحان أولاً ، ثم يشرح الدرس . كلما دقّت الصنعة عظُمَ الصانع . إنّ اللذة ليست بشيء سوى الراحة من الألم ، ولا توجد لذة إلا على إثر ألم . لا يهم أنك تمشي ببطء ولكن المهم أن لا تتوقف . اِعتقْ ما أحببت ، فإذا عاد إليك فهو ملك لك إلى الأبد . عندما سقطت التفاحة . . الجميع قالوا سقطت التفاحة إلا واحداً قال لماذا سقطت؟

فتحت النحلة الشقية فمها لإغاظته بنشيدها الحلو الجديد ، وقالت وهي تدور حوله كالدوامة :

– فهل تعغف من هو هذا الواحد؟

لم يكن عبد الحليم منتبهاً تماماً لطنين منار المتواصل فأجابها قائلاً :

– نعم . . أعرف هذا الواحد ، وتلفونُه في جيبي .

الفصل السابع

التمساح يطير

رفعة العلم اختراع عربي آخر يجعل القلب يخشع والعين تدمع . . إنها لفكرة طيبة أن يجعلوا الجماجم سلالم لعزة علم العروبة ، بل عظيمة أن يسير الناس على الأشواك من أجل الحرب ثم يصنعون لها يوماً للشهيد ويوماً للأسير ويوماً للزحف الكبير . الدنيا لها ألف شكل ولون ، ولكن ما ورثه عبد الحليم من أبيه شعيط كان يجمع الأشكال والألوان كلها في حب واحد هو حب الوطن . قالت له جدته شهرزاد إنهم تنقلوا في كل محافظات العراق من شماله إلى جنوبه بسبب عمل جده ممتاز قارئاً للمقام ثم محاسباً في شركة نفط الجنوب ثم في شركة كولبنكيان التي تنقلت مشاريعها بين بغداد وبابا كركر ، قبل أن يتفرغ لقراءة المقام في الجالغي البغدادي وقهوة عزاوي . وعندما كانوا يسكنون في بابل أيام الخمسينيات ، أنشئت في الحلة شركة مساهمة ذات مسؤولية محدودة اسمها (الوطنية) لبيع المرطبات المثلجة التي يسميها الناس بالدوندرمة . وكان المنادي خلف العربة الخاصة بحفظ المرطبات اسمه جبار ، وكان يجوب أزقة الحلة وأسواقها منادياً (وطن . . وطن . . برّد قلبك بالوطن) ، وكان الأولاد يهرعون الى آبائهم وأُمهاتهم صائحين جاء أبو الوطن . . أريد وطن . . ومن هنا ، قالت شهرزاد ، نشأ

أبوك شعيط على حب الوطن ، إذ كان يبدأ بالبكاء والصراخ من أجل (الوطن) . . ومن هنا أيضاً ارتبط اسم بائع الدوندرمة بجبار أبو الوطن ، وهو نفسه جباز أبو الشربت صاحب محل عصير الرمان الشهير في شارع أبي نؤاس والذي أصبح أولاده من بعده ، في بغداد ، يحملون لقب أبو الوطن . . ثم كبر أبوك على حب الوطن واستمع الى خيط وخربيط من الخطب والشعارات الجديدة التي كان يقولها عبد السلام عارف ولا تهدف إلى معنى ولا تفهم منها شيئاً . . فتارة يقول : إن جمهوريتنا اشتراكية ، وطنية ، إلآهية ، خاكية . . وتارة أخرى يقول : لا قصور ، ولا دور ، لا حاكم ولا محكوم ، لا أحزاب ، لا كُتل ، أمة واحدة وحزب واحد ، لا شرقية ولا غربية ، لا جنوبية ولا شمالية ، لا جوني ولا جون بول ، وإنما حمد وحمود . . . لا إقطاع بعد اليوم ، لا قصور ، لا ثلاجات ، لا تلفزيونات ، لا تفاوت ، لا طبقات ، ولا جلالات ، ولا فخامات ، بل حرية وعدل ومساواة!!

تخبل الولد . . وأصبح مدمناً لسماع التقارير والخطابات القومية عن الوطن وحب الوطن . . . . ولكن أي خطابات؟ كلها تتحدث عن شعارات لا رابط بينها ولا شيء . . . فهل تصدق أن عبد السلام عارف ، في إحدى خطبه في معسكر رانية أمام حشد من الضباط والجنود ، قال ضاحكاً :

– شأحجي؟ . . البامية انكلبت شيخ محشي . . .

أقسمَ مرة أخرى أمام حشد آخر من الجنود في معسكر

الحبانية وقال لهم :

– أُقسم بالله لو بيدي سأزوجكم جميعاً .

ثم تتذكر عندما كانت في البصرة في يوم مشؤوم هو الثالث عشر من شهر نيسان حيث كان ابنها شعيط يقضي شهر العسل في جزيرة السندباد الساحرة وكان الوقت نهاية فصل الربيع . . والعرسان الجدد يقضون شهر العسل بعيداً عن ضوضاء المدينة . . مستمتعين بشواطئ الجزيرة الدافئة وألوانها الزاهيه من موج أزرق ونخيل بني وحشيش اخضر . . وهوب . . جاءهم خبر موت عبد السلام بسبب خطاب طويل أخّر سفره إلى الليل . وحسب تقرير مفصل سمعته شهرزاد من المذياع الموضوع قرب الوسادة ، فإنّ طائرة المرحوم قد أقلعت عصر ذلك اليوم وهي تقل الوفد المرافق له من الوزراء متوجهة من المطار المدني في البصرة الى منطقة النشوة حيث حطت في المكان المهيأ لها . . وبعد استراحة قصيرة بدأ خطابه إلى أهالي المنطقة الذين جاؤوا للاستماع إليه . وكعادة من عادات الرئيس استرسل في خطابه وأخذ الوقت يميل إلى الغروب و ليس هناك من يتمكن من أن يقاطع أو يوقف هذا الخطاب لإبلاغ الرئيس بأن الليل اخذ يزحف والظلام يحل . هكذا طال هذا الخطاب حتى ادلهم الظلام وأخذت الرياح هي الأخرى تنشط في الهبوب . وبعد أن انتهى عبد السلام عارف من خطابه أخيراً ، توجه والوفد المرافق له إلى الطائرة التي اقلعت من ذلك المكان متوجهة إلى مطار البصرة المدني ، وكانت هناك عاصفة ترابية

أيضاً . وبعد مضي دقائق على طيران الطائرة التي كانت تطير على ارتفاع متوسط دخلت في مطبات وجيوب هوائية شديدة يرافقها غبار كثيف ، وزاد الظلامُ الأمر سوءاً حيث فقد قائد الطائرة السيطرة على القيادة وفعلت التيارات الهوائية فعلها في سحبها وبسرعة نحو الأرض فارتطمت بها بشدة واحترقت بكل من فيها . .

مسكين صعد لحم نزل فحم . . ولكن شغل الليل لم يتوقف في هذه الحياة ، وجاءت إلى الدنيا طفلة شعيط الميتة في الخامس من حزيران عام ٦٧ . . . استغرق الحمل اثني عشر شهراً وأزيد ، ليس بسبب خطأ في حساب أشهر الحمل ، ولكن بسبب جهل زوجته كلزار ، ذات الطلاسم والتعاويذ ، وإصرارها على أن شعيط أتم مهمته بنجاح منذ الليلة الأولى للزفاف . بعد ذلك ولدت كلزار توأماً متطابقاً فأسمت شهرزاد الولد عبد الحليم واسمت البنت اسماً من أسمائها المتعلقة بالثورات والحروب والانقلابات هو بيان ، وكان ذلك عام ١٩٦٨ .

تضحك شهرزاد وتقول بفخر إن الانقلابات كانت ، أيام زمان ، أسهل من التقاط صورة فوتوغرافية وهذا ما قالت إن عبد السلام عارف قاله لمصور الملوك والرؤساء جان الأرميني عندما ظل يطالبه بالابتسام واتخاذ البوزات اللازمة لالتقاط الصورة فضج عارف وقال أخيراً إن القيام بانقلاب عسكري أسهل عليه من التقاط صورة غوتوغرافية .

سألته منار ذات يوم وهي تحك حاجبها الأيسر باضفر

إصبعها الصغير :

– حضرتك شاركت بالحرب؟

إنه لا يعلم حتى بوجودها ، وبسبب قدمه المسطحة لم يشارك فيها ، ولكنه كان شاهداً عليها من بعيد والشهود ضروريون مثل الشهداء .

– آسفة جداً . . هل قلت كنتَ شاهدا عليها؟ .

– نعم .

– شاهد زور بالطبع .

– أسألك سؤالا واحدا : هل كان أحدكم ليدري إن كانت أم كلثوم طيبة أم شريرة لو لم تكن تغني؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد هل تحبين طعام الفسنجون ؟

– ماذا تخرف؟

– بالطبع لا تحبينه لأنك لا لا تعرفينه وأنا أيضا لا أعرفه ، ولكنك تحبين البامية ، أليس كذلك؟

– بلى .

– والكل يحبونها؟

– لا أعتقد؟

– هنا بيت القصيد . . أنا لا أتخيل أن يختلف اثنان على أم كلثوم أو على البامية .

– بل يمكن؟

– قلت لك أناااا . . أنا . . أنا . . لا يمكن أن أتخيل ذلك .

- إذن .

- سعيكم مشكور .

- ماذا؟

- إذن كيف تعتقدين أن حربنا ليست عادلة . . أنا أعتقد أن هذه الحرب عادلة ، فهل أنا شاهد زور؟

- إنك تتحدث عن ملايين الناس الذين شربوا بهدوء عناصر الخوف ومركبات النقص والذعر وروح العبودية واليأس والذل .

ماذا تفعل هذه الشيوعية المريضة في هذا المكان الحساس؟ ، وكيف انتهى بها المطاف إلى الدوام في غرفته بقسم رقابة المطبوعات رغم أنها تعمل أصلاً في المكتبة الوطنية؟ أيعتقد البعض أن هذا المكان هو منفى للمناوئين السياسيين والمنبوذين ومرضى العقول؟ . . عندما سألها ذات يوم من أين تأتي بكل تلك الاقتباسات التي تتفوه بها أو تكتبها على اللوحة الموضوعة خلفها ، قالت له وهي تدفع شعرها إلى الوراء . . إنها تعشق الكلمات وإنه ليس هناك ما تؤمن به سوى الكلمات . . وهناك كلمات ليست كالكلمات تنتقيها من الكتب التي تحملها وتحفظها في ثلاث دفاتغ كبيغة .

هه؟ كلمات؟ . . بالراءات أحياناً وبالغينات أحياناً أخرى وحسب المزاج . . ليتها سمعت قصة شهرزاد عن الناس ولغوتهم ، ليتها سمعت قصة الحكيم الذي نصح ابنه بأن لا يصدق كلام الناس ، فأخذه الى سوق مزدحم ، وفي غفلة من

الناس وضع عمامته على الارض وراح يصيح ويندب صاحبه الذي ابتلعته الأرض وبقيت عمامته على الارض . . . وأخذ الناس يتجمهرون حول العمامة بين مستغرب ومتعجب وسائل ومستفسر ، فأخذ الرجل الحكيم العمامة وهو يبكي صاحبه وخرج من السوق . . سأله ولده عما فعله؟ فقال له سترى ما سيكون من أمر صاحب العمامة . وبعد وقت قليل عاد إلى السوق ومعه ولده فوجد واحداً من الناس يقف مع مجموعة من المتجمهرين يحدثهم عن الحادثة ويصف لهم شكل الرجل الذي ابتعلته الأرض . . وبعد قليل جاء آخر وقال إنه أمسك بالرجل من منكبيه وحاول رفعه من الحفرة ، ثم جاء ثالث وراح يقدر عمر الرجل المبتلع ، ورابع راح يصف فتحة الأرض ويسرد تفاصيلها المهولة . . وهكذا أصبح للعمامة صاحب بلعته الأرض بالفعل ويتداول الناس حكايته العجيبة إلى يومنا هذا .

فماذا يفعل مع هذه العانس السمراء التي تقصفه بين الحين والآخر بأقوالها المأثورة ، وعندما تناكده بواحدة من تلك الاقتباسات العالمية التي استعملتها قبل قليل ثم تضحك بعد ذلك ، فإن عينيها تشعان بخيوط لماعة تختلط مع شراشيب أقراطها الفضية فترتجف أساسات قلبه وتقرع الأجراس في أماكن حساسة من المدرسة ويكاد المدير أن يفضحه بالخروج لولا لطف الله .

لم تكن مبالية بإمكاناته الجدية تلك ، ولكنه لو أخرج قلمه الأسود الغامق وورقة بيضاء من قياس أي فور لجعلها

تذهب خلف الشمس بجرة قلم واحدة . عاد إلى أوراقه من جديد ينظر إليها وقد رفع حاجبيه وزم فمه إلى الأمام ، وهي علامة من العلامات التي تدل على أنه يقرأ شيئاً خطيراً يستدعي إخراج القلم الأحمر على الفور . . إنها عن الكونت دراكولا الشخصية المسخ الهنغارية التي ظهرت حين كانت هنغاريا مقسمة الى ثلاثة أجزاء يحكم أحدها الأتراك والثاني تحكمه عائلة نمساوية والجزء الثالث كان دولة مستقلة يحكمها لوردات محليون مختلفون . . وفي هذه المناطق النائية التي مزقتها الحروب والنزاعات ولد الاعتقاد بمصاصي الدماء وازدهرت أسطورة الكونت دراكولا مصاص الدماء وكابوس الموت والرعب .

أصبح لسانه يداعب سقف فمه وهو يضرب أخماسا بأسداس ويحاول قراءة ما بين السطور لهذه المقدمة الغريبة للمسرحية . . صحيح أنها تاريخية ولكنها تبدو مبيتة ومطبوخة بالسم . نظريته في الرقابة تقول إن أي نص أمامه هو مسرح لجريمة محتملة . هو يكره الخط الرفيع الذي يشبه الشعرة بين الخطأ والصحيح فيفضل قص تلك الشعرة بالمقص كما يفعل صديقه الرقيب السينمائي عبد الباقي مقصود الذي يقطّع أوصال الأفلام دون رحمة ، فلا تكاد تعرف من هم أولئك الذين يقتلون في نهاية الفلم غسلاً للعار أو الذين تقبض عليهم الشرطة وتقتادهم إلى السجون؟ . . نظريته تشبه البتر للعضو المصاب لكي لا يؤدي إلى التهاب مناطق أخرى ، وكلما شعر

بأن كلمة مصابة قد تودي به إلى التهلكة بترها على الفور أو مسحها بقطنة منقوعة بماء الورد ، وكان أحياناً يغير أسماء أبطال القصص من بشار وحسني ومعمر الى أسماء اخرى كجاسم وحازم وأبو فتنة منعا للأذى ودرءاً للفتنة .

لكن ثمة مسرحية أخرى أمامه اليوم لأرستو فانيس تقوم فكرتها على دعوة بطلتها ليزيستراتي نساء مدينتها أثينا ونساء عدوتها أسبارطة على توحيد جهودهما معاً بمقاطعة الرجال في الفراش لإجبار الرجال على الجبهتين لوقف الحرب التي كانت قائمة مدة أربع وعشرين سنة . ولكي لا تشتعل شرارة الحرب مرة ثانية في فورة غضب أو تهور أو تلذذ بممارسة فعل الحرب في حد ذاته ، نادت النساء بعقد معاهدة سلام بين الجانبين ، ونجحت البطلة في ذلك بالفعل . ثم توقفت الحرب فعلياً بين أثينا وأسبارطة بعد مرور ست سنوات على ظهور هذا العرض المسرحي . منار ، لكي تناقشه في فكرة هذه المسرحية وتناكده عن جدوى الحروب وتؤيد ما ذهبت إليه البطلة من مقاطعة الرجال في الفراش ، تفلسفت بأسماء كومة من المسرحيات ، رمت بعدها بكومة أخرى من قشور الموز وأسماء أولئك الذين يعرفهم ولا يعرفهم . . من يونسكو وبيكيت وبريخت وأبسن وبرناردشو وحتى أبو خليل القباني وحقي الشبلي والفريد فرج الذي قالت إنه قال إذا عطس المسرح في مصر أصيب الجميع بالزكام . . ضحكت ثم قالت : حياه الله . . لو كان حياً الآن لقال إن النافذة لو فُتحت في مصر لوصلت الحشرات إلى

اليمن . . وظلت ترمي وتهذي بكلمات تتحول فيها الراءات إلى هاءات أو إلى غينات أحياناً ، فقالت الصراصر ولفظتها الصغاصغ ، ثم شرحت نظرية فغويد في تفسير السلوك البشغي وقالت أنا لا أؤمن بها وإنما أؤمن بتفسيغ آخغ هو تاغيخي اقتصادي تحكمه علاقة الإنسان المستغِل بالمستغَل كالعامل وغب العمل والفلاح والاقطاعي .

رفع كتفه بلامبالاة وأعاد رأسه إلى الوراء كعادته في الاستهزاء بشيء لا يستطيع التعقيب عليه ، وفكر لو أنه يترك تلك الغرفة اللعينة وينضم إلى قسم الرقابة السينمائية لكان ذلك أفضل بكثير وأدعى للاستجمام من هذا اللغو . . هناك حيث يضيع في عالم الظلمة العميقة والخيول الرامحة وكواشر الرصاص ووسائد النساء الحسناوات اللائي لا يشبهن غيرهن من النساء ، نساء جميلات ، ورجال ضخام الجثة من جميع أجيال الخيال الجامح الذي يجسده هنري فوندا وستيوارت ويتمان وستيف ماكوين ومارلون براندو وتوم هانكس وبراد بيت وجوليا روبرتس وجورج كلوني وميل جيبسون وأنجلينا جولي .

يتفرج الرقيب على كل المشاهد الحساسة قبل وبعد اللحظات الحاسمة التي تتلاقى فيها الوجوه وتتصارع فيها الأجساد . . تلك اللحظات التي يبترها الرقيب مثل بتر العضو المصاب لكي لا تشاهدها الأوانس والعوانس والمطلقات ، فتهتز موسيقى الفلم فجأة وتقفز من مشهد إلى آخر منعاً لظهور مدير المدرسة أمام الأرامل والحوامل والأطفال الرضع . . . ذلك ما

تراه الجماهير العربية قبل وبعد العصر ، أما هو فقد رأى مشاهد تلك المصارعات كاملة في أفلام ثقافية عابرة للقارات كساعي البريد ، والعذراء والغجري ، وعشيق الليدي تشاترلي ، طالما دعاه صديقه الرقيب إلى التفرج عليها قبل أن يقطعها مثل تقطيع الدجاج على مائدة المطبخ .

عادةً . . وفي آخر الفيلم كان عبد الحليم يقول لعبد الباقي مقصود باهتمام كبير : ستسأل الجماهير من هذا الرجل الذي ظهر فجأة في نهاية الفيلم وما هو دوره قبل النهاية؟ فيقول عبد الباقي بعد صمت عميق : لا تقلق يا عزيزي ولا تهتم . . الجماهير العريضة ستلقفها وهي طائرة . . ونحن أفضل حالا من دول شرق أوسطية أخرى تُترجم آلات نزع الشعر إلى مجففات للشعر ، والملابس الداخلية إلى مناشف وخاوليات ، وتجعل رعاة البقر يدخلون إلى البار ، وعندما يجلسون إلى الموائد يخاطبون النادل قائلين :

– فناجين القهوة من فضلك؟

كانت منار لا تزال ترتل براءات نظرياتها في تفسيغ سلوكيات البشغ والحجغ والقمغ . . . وفي انتظار أن يقرع الجرس ، فكر عبد الحليم بعد ذلك بالنظرية التي يؤمن بها فلم يجد في رأسه سوى خزعبلات أمه عن القسمة والنصيب وعنتريات الاجتماعات الحزبية التي تشبه قصة التمساح الذي إذا شد حيله شوية ممكن يطير .

الفصل الثامن

شريف روما

عدا تحرير القدس واستعادة الجولان ، ليس لديه غير نظرية واحدة يؤمن بها تقول إن عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة ، وإذا أردت إسكات العصافير بضربة واحدة فما عليك سوى إطلاق رصاصة واحدة من الغدارة تقتل بها عصفوراً واحداً فتهرب الأخرى من على الشجرة . . . . الله ما أجملها قصص القراءة الخلدونية أيام زمان . . وما أحلاه نشيد أنا جندي عربي بندقيتي في يدي أحمي هذا وطني من شرور المعتدي . . تي تي طا . . تي تي طا . . تي تي طا . وما أقواها حزمة العيدان التي جمع الأب من أجلها أولاده قائلاً لهم وهو على فراش الموت :

تأبى الرّماحُ إذا اجْتَمعن تَكسُّرا
وإذا افـــترقن تكَسَّرتْ أفـرادا

إن قلبه ليرتجف من السعادة إذا رأى تلك القصص الآن أمامه تزهو بتلك الرسوم السحرية والأفكار البسيطة التي لا هم فيها ولا غم ولا تعقيدات ولا معان بين السطور ولا روح ولا تعال . . ما أروعك ساطع الحصري وما أعظمكِ نظارات جدتي . . . . وسلام الله عليك يا عيشة بنت الباشا تلعب بالخرخاشة وحيّاكما الله عدنان ولينة . . . لا شيء مما يشاهده

الآن ويقرأه من العالم يستحق منا كل هذا اللغو الذي تثرثر به منار . . . هذه الأرض خلقت في سبعة أيام وستفنى في لحظة واحدة هي يوم القيامة . . فعلام كل هذه الأفلام التي تأتي بها منار من أطراف العالم الأربع؟ . . . .

جدُّه ممتاز الذي كان قارئاً للمقام أيام شبابه ، ومشهوداً له بتحرير أمان أمان في استهلال مقام الحجاز وروعة الميان في صيحة الجواب ، ونقاوة التسليم في قفلة المقام . . جده الذي افتخر بأنه أول من عزف مقام اللامي أمام محمد عبد الوهاب عندما زار بغداد في الثلاثينيات . . جده ذاك انتهى بعد وفاة القبنجي والقندرجي ويوسف عمر ومنيرة الهوزوز وسليمة باشا ، إلى غناء البستات جالساً على كرسي أمام موسيقيين عميان . . مجوداً في غناء طقطوقات عفيفة اسكندر وأغنيات عباس جميل .

جدُّه الذي كان ، حسب جدته شهرزاد ، أول مطرب ارتدى البانينباغ في حفلة أقيمت بُعَيْدَ الجلوس الملكي عام ثلاثة وخمسين ، انتهى من اللامي والحجاز والنهاوند إلى بستات يغنيها مع سورية حسين وحمدية صالح وسعدي الحلي ، وأصبح آخر أيامه ينام تحت الشمس جالساً على كرسي متحرك تدفعه عماته إلى الحديقة ، وكأنه خرقة مبلولة يجب تجفيفها من الرطوبة والعفن . . فعلام كل هذه النظريات والتفسيرات والاقتباسات يا منارتي العزيزة؟ ولماذا نغادر قديمنا فنتوه بعيداً عن أمنا حواء التي عندما صارحها آدم بتلك الأفكار نهضت

من مكتبها وتخصرت ثم قالت :

– هذه القصص الخلدونية تخريب للعقول الصغيرة؟ . . لماذا عندما حلمت بائعة اللبن بالخلاخل سقطت جرارها وتكسرت على الأرض؟ . . هذا حغام . . ولماذا إذا أراد الأرنب أن يلهو قليلاً يخسر السباق ، وتغلبه السلحفاة؟ . . هذا غير معقول . . لا يمكن لسلحفاة أن تغلب أرنباً حتى وإن ظل الأرنب يلعب طوال عمره . .

ثم سحبت معاضدها الى آخر يدها وقالت بعصبية :

– وهذا ليس غسلاً للعقول فحسب ولكنه غسل وكوي . ووفقاً لكاتب اسمه فارس ، لا يزال جزء مهم من السلوك الاجتماعي للعراقيين يتشكل ضمن جداول ترويضية غير ثابتة زمنياً ، مماثلة لجداول سكنر ، بوشر بها منذ عقدين من الزمن ، إذ فقدوا مرونة الكينونة الحياتية التلقائية المسترخية التي تتيحها الكهرباء دائمةُ التدفق ، وأمسوا يقننون مواقيت كل نشاطاتهم اليومية على نحو وسواسي قهري رتيب ، بانتظار مجيء الكهغباء بوصفها الجائزة التي تهون من أجلها كل أنواع المعاناة التي تسبقها . .

تفو عليك يا منار تفو عليك يا سكنر . . لقد ربت شهرزاد ثلاثة أجيال من البشر دون أن تعرف شيئاً عن محركات وخفايا السلوك البشري . . تنهرهم أحياناً بقوة ثم تحتضنهم بعد قليل ثم تصالحهم وهي تغني (يوم المبارك تمشي أذبح خروف وجبشي يا ربي لا تعاتبني أنذر وما عندي شيء) . . دخل

إلى الحمام ثم خرج سعيداً بلا سبب ، ولكنه بعد قليل وفي الطريق إلى البيت وجد نفسه يقول لنفسه إذا كانت اللذة أو الجائزة هي المحرك الأساس للسلوك ، فهل يعني ذلك أن الإنسان يعيش ويتحرك في عالم من المتع والملذات فحسب؟ . . يبدو الأمر صحيحاً ، لأنه هو نفسه يقيس اللذة بمقدار ما يشعر به من متع جنسية أو بقدر ما يلتهم من أطعمة شهية ، بيد أنه لم يشارك في يوم من الأيام في حرب ولا يستمتع بأخبارها كما هو الحال مع جدته شهرزاد ، ولا يعرف كيف يفسر سلوك من يموت في ساحة المعركة وهو سعيد ، ومن يضحي بمتاع الدنيا من أجل التعبد في حضرة الخالق ، ومن يدخل السجن بدلاً من الاستسلام للعادات اليومية والحياة الناعمة؟ . لقد تاه مفتن زوج عمته في منطقة ديانا على الحدود بين العراق وتركيا بعد (عاصفة الصحراء) ، وكاد أن يؤسر في الحرب ثلاث مرات في (القادسية الثانية) . . تلك كانت عاصفة صحراء لغيره . أما بالنسبة له فهي أم المعارك ، ينطقها أم المعارك ويكتبها أم المعارك ولا يهمه أن تراها منار ساخرة ، كالمشط فيه أسنان كثيرة فإنْ انكسر سن من أسنان مشطه وهو يريد تسريح شعره ، يبقى بإمكانه استخدام المشط وحتى السن الأخير . . أوَليس هذا هو الطبيعي إذا كان المشط صالحا للاستعمال؟ أم أن منار يجب أن تتفلسف برأسه وتقول : بل أنت كالبخيل الذي اشترى برتقالتين قطع الأولى ورآها متعفنة فرماها ، ثم أطفأ النور وقطع الثانية وأكلها؟ . .

«لا ليس الأمر كذلك يا منارتي العزيزة . . أنا لا أطفئ النور من أجل أكل برتقالة عفنة ، ولكني أُقلّبها لكي لا تتعفن . أنا أكره كلمة (لا) وأحب كلمة (نعم) . . ما أجملها كلمة نعم . . مريحة طرية ناعمة وتذوب في الفم مثل ورق العنب المستوي جيداً في مرق الطماطم السكري» . . . إنه ليس ضد لذة التجريب . . . ولكنه لم يجرب سوى لذة الطعام والمنام ولا يعرف شيئاً عن لذائذ الناس جميعاً . . . لعلهم مختلفون كما تقول منار ، بعضهم يفضل الصراخ والسير في المظاهرات والدخول إلى السجن وربما المشاركة في الحروب العادلة . . ولكنه لا يفهم لماذا دوخة الرأس؟ وأين هي الحكمة في معارضة تقود إلى حبل المشنقة ، أو إلى أهوال يوم القيامة . .لايفهم لماذا الرفض إذا كان حتى الديك في البستان يصيح الله ينصر السلطان؟ . . . فما شأنه ببخلاء الجاحظ ولغوة منار عن مبرهنة فيثاغورس أو عتلة أرخميدس أو أساطير هوميروس . . تفو عليهم جميعاً وعليكم يا إيسخيلوس وسوفكليس وأرستو فانيس . أصبحت اسماؤهم تشعره بالاكتئاب والمغص الشديد . . إنه ليتخيل المقابر والهياكل العظمية والجماجم وهو يسمع أسماءهم التي لا يعرف لماذا تنتهي جميعها بحرف السين وهي تأتي مقرونة بأعمالهم المليئة بالخرافات . . قالت له مرة إن متوسط أعمار البشر في العصر الحجري كانت ثمانية عشر عاماً ، وفي عصر الفراعنة خمسة وعشرين عاماً ، وفي الحقبة اليونانية ثلاثين عاماً ، فكيف تمكنوا من كتابة كل هذه

المسرحيات قبل سن الثلاثين وهم عميان أحياناً . . بل كيف تمكن الإسكندر المقدوني من فتح العالم وهو في الثامنة والعشرين؟

وارتفع آذان الظهر ، وهو يكتب مطالعة للمدير العام عن مسرحية من مسرحياتهم مثلتها فرقة معارضة للحرب خارج بلاده . رفع حاجبيه إلى أعلى وزم شفتيه إلى أمام وأعاد بعض محاضرات منار في تقريره الذي قال فيه إن أسخيلوس يكتب عن الآلهة ، وسوفوكليس يكتب عن الأبطال ، أما يوربيدس فيكتب عن البشر . مفتتحاً أياه بمقدمة قصيرة لا داعي لها يقول فيها :

«وظيفة الكوميديا قد تبدلت حين وصلت إلى أيدي أريستوفانيس ، فجعل منها سوطاً قوياً لمهاجمة الحماقات الاجتماعية والسياسية ، وأصبحت لا تختلف كثيراً عن العروض الفكاهية الساخرة المعاصرة . . . . . ولكننا نمر بمنعطف تاريخي خطير وبظروف استثنائية ، والأعداء يتربصون بنا في كل مكان ، وتقديم هذة المسرحية بالذات من قبل فرقة فنية معارضة وفي هذا الظرف بالذات هو تسفيه لحربنا العادلة يستدعي تنظيم قائمة بأسماء الفنانين ووصفهم بالمرتدين الخائنين للوطن . . إن الوطن منهم براء والمسرح وارستوفانيس أيضاً منهم براء لأنهم حولوا مسرحيته إلى عمل شيطاني» .

بعد أن ينتهي من كتابة مثل تلك المطالعات المتحذلقة ، يشعر برضا تام عن نفسه ، وبعد أن يرمي المسودة إلى سلة الزبالة يشعر براحة أكبر وهو يضع أسفل الصفحة توقيعه الذي

يرسم فيه حرف العين على شكل شراع سفينة نجاة تحيط بها لجة من حروف الشين تشبه البحر . . سلة الزبالة لها موقع عزيز في نفسه لأنها تكافئه بالسعادة البالغة إذ يرمي إليها ما يمزقه من مسودات وأوراق فائضة عن الحاجة ، شاعراً بالراحة التامة وهو يفعل ذلك . ولكن مع الأسف فإنه دائماً ما يتذكر في تلك اللحظة السعيدة ، التي يرسم فيها توقيعه على الورق ، إحدى دعابات بدر السمجة التي كان يدعوه فيها إلى رفع الشياطين إلى شياطون والمجانين إلى مجانون . . ولم يكن يفهم قط ما يقصده بذلك ، إلى أن قال له يوماً من تلقاء نفسه : إن التاريخ لم يكتبه إلا من يسبح ضد التيار ، وإن السمك الميت وحده هو الذي يمشي مع التيار . . احتراماتي . . إن السخرية من النفس أولاً ستساعد على السخرية من المجتمع ثانياً ، فلا تكن جاداً جداً ، وامنح نفسك بعض الوقت لتضحك فتضحك لك الدنيا قبل أن يقشرك الذبول . . فإن ما يروي الظمأ هو ماء زلال وليس ماءً يملؤه الطين . .

هاهاها . . كان عبد الحليم يردد بطريقة مسرحية ، ليس ضاحكاً على نفسه ، وإنما على بدر الذي من المؤكد أنه كان أشد حماساً منه في شبابه لفكرة شبّهها هو نفسه ذات يوم بقطعة خشب صغيرة من الصليب سيجعلها الإيمان الأعمى إلهاً أو رفاتاً مقدساً . . ولكنه الآن قد زهد بتلك الخشبة لأن الشيب قد غزا شعره وجاوز أيام الشباب . . هاهاها . . سيضحك على بدر ، لا على نفسه لأنه زبالة . . يكاد يقسم أن

الإنسان يتحول بي شيخوخته إلى زبالة ، وتنتهي أذناه إلى سلتين للمهملات وفمه إلى بالوعة حمام . . أما عيناه اللتان رأتا كل شيء فتتحولان إلى مدرسة مفتوحة بلا مدير . . . لا يدري عبد الحليم كيف يحدث ذلك للبشر بعد أن يتقدم بهم العمر . . ولا يعرف سوى أن شخصاً كبدر قد يبدو لمنار في غاية الطيبة والحنان ، ولكن لو أصابه الإمساك لاحترق أخواله الإنكليز وعماته الفرنسيات وأعمامه الروس من أعلى سنسفيل الأرض إلى باطن مصارينها الميته ، أليس هذا ما حدث لجده ممتاز ولجدته شهرزاد التي كانت مرجعية للأخبار والثورات؟ ، أليست هي التي شرحت لهم مشكلة (الجيوش السبعة) بعيداً عن العواطف الجياشة وعن نظرية ابنها شعيط التي تقول إن الأسلحة الفاسدة هي السبب في خذلان الجيوش وليست الأنظمة الفاسدة . . هي من فعلت ذلك أيام العنفوان ، ثم أصبحت في شيخوختها تحضّر الأرواح وتعتبر الخروج قضيتها المركزية وتريد أن تتشمم رائحته في الهواء بعد كل إمساك طويل ، ولربما تقول بصوت عال ما أطيب هذه الرائحة .

دوختها ملايين الأخبار والحكايات التي سمعتها من البي بي سي وأصابها الدوار من (يعيش ويسقط) ، فأصبحت تتوه في الشوارع وهي تشتم الجميع وتردد «هنا لندن» . وعادت جدته المخملية لتأكل على الأرض وتهجم على الطعام بيديها ، بعد أن كانت تتصرف كالملكة اليزابث . . تأكل على المائدة وتستعمل الشوكة والسكين ، بل تضع المنديل في حضنها قبل

الشروع بالأكل . ومثلما أُعجبت أمها بالمصباح الكهربائي للإنكليز ، أُعجبت هي بالملعقة والشوكة والسكين ، فكان رنين الملاعق يُسمع في بيتهم كل غداء وعشاء . وحين تنوي الخروج من البيت تفعل ذلك بكامل الزينة والأناقة حتى أنها لم تكن تستقبل احداً بملابس النوم ، ولا تذهب إلى النوم دون أن تقول تصبحون على خير . . هاهاها . . نسيتْ ذلك كله قبل أن تموت ، وعادت تأكل ، على الأرض ، الطعام بأصابعها ، وتصرخ بالشتائم على الرائح والغادي من الرجال ساخرة من ربطات أعناقهم التي لا تفعل شيئاً سوى ملامسة أحاليلهم عندما يجلسون .

لا يعرف عبد الحليم متى يحدث ذلك للبشر؟ ولكن ثمار سبعين عاماً من العمر ، ستكون قبل الثلاثين حامضة وبعد الستين نفاية . . ويكون من الأفضل أن تقطف الثمرة بين هذين العمرين . . أيْ وربّ العزة يجب أن يقطفها الإنسان وهو على مشارف الأربعين . هكذا كان عبد الحليم يفكر بعد الخروج من الحمام . . أنْ يقطف أطيب ما في ذلك العمر من ثمرات ، ويتمتع بموهبة الفوز بنصيب كبير من هذا العالم ، وعدم الإصغاء لمنار أو بدر أو غيرهما من المغرورين والنفايات . تلك الأفكار ، التي تصدر من العوانس وكبار السن الذين لم يأخذوا نصيباً طيباً من الدنيا ، لم تمنعه قط من التمادي في الكتابة عن الشروط التاريخية لمطالعات المدير العام فيضع مسرحيات الكاولية والقرود ، جنباً إلى جنب مع مسرحيات وملاحم

شعرية رفيعة المستوى من طراز ملحمة كلكامش أو مسرحية الذباب أو الكراسي أو النشيد الماجن أو الإنسان الطيب أو بجماليون أو أهل الكهف وبيت الدمية وفي انتظار غودو والشرفة والقضية ويوليوس قيصر التي كتب عنها معلومات معلوكة سمعها من جدته شهرزاد مدمنة الحكايات زوجة ممتاز مدمن الكونياك الذي كان يمشي خلفها بخمس خطوات كما يفعل البرنس فيليب مع الملكة اليزابيث .

تقول شهرزاد إنه في الثلاثينيات من القرن الماضي ما كان ببغداد مسارح أو حركة مسرحية مثل تلك التي بمصر, وكان رائد المسرح المصري آنذاك ، الفنان جورج أبيض وفرقته المسرحية التي أسسها عام ١٩٢٦ ، قد قدم هذه المسرحية في عدة بلدان عربية كالعراق ومصر وبلاد الشام . . وعندما جاء إلى بغداد ليعرض مسرحيته الناجحة جدا وقتئذ (يوليوس قيصر) أتى معه الممثلون الأساسيون ولم يجيء بالكومبارس حتى يوفر نفقات السفر وتكاليف الإقامة . . وبما أنه لا توجد مسارح ببغداد ، فقد اختار أكبر قهوة بمنطقة الميدان وحوّلها إلى مسرح . . بقيت بعد ذلك مشكلة واحدة هي من أين يأتي بكومبارس عراقيين؟ . . . . جماعة نصحوه بمنطقة الميدان المشهورة عند البغداديين ، كونها تعج بحثالة المجتمع من السكيرين ومدمني الخمور والنشالة والحرامية والمطيرجية وجميع فئات السرسرية ، وهؤلاء جماعة لا يعرفون العيب أبداً . . اعطِ كل واحد منهم خمسة فلوس يقوم لك بأي دور

مسرحي . . هكذا قالوا له . . وفعلاً جاء بهم وألبسهم جلابيب الرومان البيضاء ووضع على رؤوسهم أطواق الياس على أساس أنها أطواق الغار . . ودربهم على الأدوار . يوم العرض المسرحي مشت الأمور على ما يرام ، والقهوة التي أصبحت مسرحاً كانت مليانة بالجمهور ، إلى أن جاء المشهد الذي ينادي فيه حاجب الملك بأعلى صوته : والآن يتقدم أشراف روما للسلام على جلالة القيصر ، وكان الجمهور صامتاً يتفرج على المسرحية بأمان الله . . إلى أن ظهر الأشراف . . وبدأ الهرج والضحك وكل ما يخطر على البال : لك هذا من؟ هذا عبود النشال؟ . . وهذا من يا وَلْ؟ هذا رزوقي المطيرجي . . .؟ . . ولك هذا منو؟ هذا علوان أبو العرق .؟ . . . انزل يعود انزل . . صايرلي شريف روما . . .

حقاً أن جدته شهرزاد كانت تشكل الخط الأول لمعلوماته عن الفن وأهل الفن ، بينما منار تشكل الخط الأول للمقدمات التي يستقيها من الحائط السماوي خلفها حيث تبدل كل يوم حكمة من ألف حكمة وحكمة ، حتى أوشك سليمان عامل الشاي أن يصبح حكيماً . . حكمتها لهذا اليوم تقول : (إذا أردت أن تكون صديقاً فكن أنت أولاً الصديق) ، وقد وضعتها تحت حكمة البارحة التي تقول : (ما أسهل أن تكون عاقلاً بعد فوات الأوان) والموضوعة تحت حكمة أول البارحة التي تقول (الوحيدون المهتمون بتغيير العالم هم المتشائمون ، فالمتفائلون سعداء بما يملكون . .)

كان لا يزال يعتقد أنه سيستطيع الإتيان بأفضل من تلك الكلمات والاقتباسات يوماً ما ، ولكن الدنيا حظوظ كما تقول جدته شهرزاد ، ولو كان قد قال ما قاله السياب (حتى الظلام هناك أجمل) لوصفته منار بالظلامي وما كانت قد علقت كلماته تلك خلف ظهرها . . تفو عليها من امرأة ماكرة تخفي عنوستها بهذه الاهتمامات السخيفة التي تخالف ضجيج معاضدها وأقراطها الدائرية العملاقة . . ولكن (لا تثريب عليها) مع تلك الاهتمامات . . كان يقول عبد الحليم لنفسه ، فقد كان ذلك الجدار السماوي اللون هو الاحتياطي الاستراتيجي الذي يمده أحياناً بما يفتتح به تقاريره إلى المدير العام والتي تقرّب المسافة بينه وبين الترفع إلى منصبه الجديد . . . منار وشهرزاد كانتا برأيه وجهين لعملة واحدة . . عجوز كانت صبية ، وعانس ستكبر إلى عجوز . . صندوقان من القلاقيل والعنتيكات وأغراض البيت القديمة المحفوظة منذ زمن العصمانلي . . ولكنه إذا بحث جيداً في هذا الصندوق ، سيجد النفائس والكنوز والمجوهرات ، أما إذا استمع إليهما تقرآن الفناجين المقلوبة فسيجد الخفايا والأسرار . . لا يدري كيف كانت منار تقرأ تلك الأفكار المتلاحقة في رأسه بحيث فاجأته ذات يوم بجواب غريب عندما قال لها بشيء من التهكم :

– أنت تشبهين بيبيتي؟

ولكنها سمعته خاطئةً ، على مايبدو ، وقالت :

– بي بي سي؟

انبهر عبد الحليم بتلك المصادفة العجيبة التي آمن بعدها بأن جميع النساء ساحرات وماكرات وعرّافات لكشف المستور ، فقال لها وهو في أشد حالات الذهول :

– قلت بي بي تي ، يعني جدّتي ، ولم أقل بي بي سي .

لم تشأ منار إلا أن تتفلسف تلك اللحظة العجيبة من كشف المستور ، فقالت وهي تميل نحوه كما يميل الفنن بعد أن يقف عليه العصفور :

– هل أنت ابن ابنها أم ابن بنتها؟

– لماذا؟

– إذا كنت ابن بنتها فأنت سبطها وإذا كنت ابن ابنها فأنت حفيدها .

الفصل التاسع

حلبوصة كنت

تعتقد فتحية الدردبيس ، صديقة شهرزاد وعاشقة الأفلاك والنجوم ، بخلود الروح وصلتها الوثيقة بأرواح أسلافها الأولين . . لهذا فهي توزع وجبات الطعام المفضلة لدى موتاها لتؤكل من الأحياء نيابةً عن الميتين وتترجى أرواح الخيرين من الموتى لمنح العون الدائم للأحياء . حين تجولت شهرزاد بين الصابئيين في عدة مناطق كالناصرية والعمارة والبصرة وسوق الصاغة في بغداد ، تبيّن لها أن الصابئة يؤمنون بإله واحد قادر ، لا أول له ولا آخر ، ولا بداية له ولا نهاية ، وهو الخالق والصانع ، والحي والباقي الذي لا يموت وهو نور السماوات والأرض ، ونوره يعم الكون وجميع المخلوقات في الدنيا والآخرة ، ولولا نوره الذي يبدد الظلام ، لما كان هناك وجود كوني ولا وجود إنساني ، ولهذا يصبو الصابئة ويتعبدون ليلاً ونهاراً ، ويتقربون إلى الله بالعمل الصالح ، حتى ينالوا الوصول إلى الجنة التي تسمى عندهم بعالم النور المنور بنور الله تعالى . . (فإذا تقربوا إلى الله بشمسه ونجومه وملائكته ، فهذا لا يعني أنهم أصبحوا عبدة النجوم والكواكب والملائكة) .

هذا ما أضافته فتحية لشرح شهرزاد قائلة إن النجوم أجرام سماوية متناثرة في السماء ، تظهر ليلاً بأحجام مختلفة حسب

بعدها وقربها من الأرض ، فمنها كبيرة ونورها ساطع لقربها من الأرض ومنها ما تظهر صغيرة ونورها خافت جداً أو هي لا تظهر أبداً . . نجوم الدب الأصغر المؤلفة من سبع نجوم هي بكلام العامة بنات نعش ، وقد كن مدللات عند والدهن نعش الذي توفى وتركهن ينحبن بعده ، اذ حملت جنازته البنات الأربع الكبار ومشت الثلاث الباقيات خلفه مشيعات ، وآخرُهن عرجاء تأخرت عن موكب الجنازة . . ضحكت شكشوكة على وصف النجمة بالبنت العرجاء فنهرتها شهرزاد بطرف عينها وقالت لها بلا كلام : كوني عاقلة ، فاستطردت فتحية تقول : هناك ثلاث نجوم لامعة في السماء ظاهرة على خط مستقيم يسميها الناس بميزان الحق لأنها تقف باستقامة واحدة ، وهناك النجوم الثلاث الأخرى ، نجمتان منها لامعتان ونجمة ثالثة أقل لمعانا فيسمونها ميزان الباطل حيث أن النجمة الصغيرة الثالثة أدت إلى ظهور الميزان بميلان بسيط . . ابتسمت شكرية مرة أخرى فأكدت شهرزاد نظرتها الحازمة بالسكوت ، واسترسلت فتحية تقول : أما نجمة أم ذويل فهي نفسها مذنب هالي الذي يعتقد الناس بحلول المصائب عند ظهوره . . فإذا سقطت من السماء وتركت خلفها ذيلاً فأنهم يعتقدون بأن أحد البيوت قد أصيب وأن سكان ذلك البيت سوف يلحقه الأذى ، وإذا قالوا خرت عليهم نجمة أم ذويل فهذا يعني أنهم أصيبوا بفرقة او شتات . . قالت أيضاً إن نجمة أم ذويل كانت فتاة رائعة الجمال تسكن في بيت معمور ، ففجعها القدر بموت جميع أهلها دفعة

واحدة ، فظلت وحيدة فريدة وصممت على أن لا تبارح البيت حتى تموت ، فرفعها الله إلى السماء إكراماً لها ، ولهذا يصبغ بعض الأطفال وجوههم وتتجمل بعض النسوة عندما تظهر أم ذويل متزينات كالعرائس من أجل سواد عيون نجمة أم ذويل الشابة المحرومة التي ذهب شبابها هدراً عندما رفعها القدر إلى السماء . . . هناك أيضاً نجمة ليلة ومجنون وهما نجمتان لامعتان تلتقيان مرة من كل سنة في ليلة المحيا(*) ثم تفترقان رويداً رويداً . . هاتان النجمتان هما قيس بن الملوح وليلى العامرية ، وكانا ابني عم متحابين ولكنهما لم يتزوجا ، فرفعهما الله إلى السماء نجمتين لامعتين تلتقيان مرة كل سنة . . وأوضحت فتحية لصاحباتها أيضاً ، وفقاً لمعلومات مستقاة من مجلة العربي ، أن نجمة سهيل نجمة كبيرة تُلفِت نظر من يرفع رأسه إلى السماء ليلاً بخفقانها المستمر ، لكن الفلاحين يستبشرون عند ظهور نجم سهيل في فصل الخريف لأنه يبشر بقرب هطول المطر ، ومع ذلك كله فإن عد النجوم لا يُظهر الفالول في الجسم ، ولا داعي لما تفعله أم المصاب بكنس البيت بمكنسة جديدة عند ظهور الهلال عدة مرات وهي تردد : يا هالول اخذ الفالول ، ظناً منها أنه سيزول حتما بعد عدة كنسات .

عندما جمعتهن لتحضير الأرواح ، قالت فتحية إنه يجب

---

* محيا : ليلة منتصف شعبان يحييها بعض العراقيين باطلاق الألعاب النارية حتى الصباح .

إطفاء كل جهاز في البيت بحيث يُسمع صوت الطنين في الأذن ، ولما حصل ذلك ، بعد النزول إلى البادكير ، قامت بإخراج الحروف بالمئات والألوف . . مممم . . هههههههه . . خخخخخخ . . جججججججج . . سسسسسس . . ما هذه الحروف يا فتحية . . سألت شكشوكة بضوت خفيض . . . شششششش . . اسكتوا . . سنضعها على الطاولة بعد إشعال الشموع ، وسنستدعي كل الملوك والملكات ، من حمورابي إلى فيصل ابن عالية فيجيبونا عن أسئلتنا المحيرة بتحريك الفنجان إلى الحروف لتكوين الكلمات . . كانت هناك كلمة نعم وكلمة لا أيضا مكتوبتين على ورقتين منفصلتين . ارتجفت شهرزاد من الخوف وهي ترى رزمة الحروف تخرج من كيس فتحية الأسود فوجدته شبيهاً بكيس الحمام الذي كانت تعلقه جدتها شهرزاد الأولى فوق الرازونة . . تعرف شهرزاد فتحية من أيام الطفولة ، فهي حفيدة زهور صديقة أمها شمسة التي رحل أهلها من الكحلاء والمشرح وسكنوا في محلة الصبة بالناصرية . . كانت شهرزاد تراهم يتعمدون بالماء الجاري أيام الأعياد وقبل الزواج والولادة وفي عيدي البنجة والخليقة اللذين تزول فيهما الحواجز بين الأحياء والأموات ، لذلك هم يرتدون فيها الملابس البيضاء النورانية الطاهرة وينزلون إلى الماء حتى لو كان الوقت شتاءً .

جلست فتحية في ظلام دامس لتستدعي لهن الكبار من عالم النور ممن يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويؤمنون بالحساب والثواب والعقاب متمتمة بالكثير من التعاويذ لاستحضار روح

جدتها زهور ، وطلبت الصمت التام من الجميع قبل أن تهتز وتقول : انقري نقرتين إن حضرتِ يا زهور ؟فسمع الجميع ثلاث نقرات على المنضدة وقالت فتحية إن جدتي زهور قد حضرت ، ثم قلبت الفنجان ووضعت إصبعها عليه وسألتها من معك بيبي زهور؟ . . وهنا تحرك الفنجان في جميع الاتجاهات ولم يثبت على جهة واحدة ، فاتهمتها شكشوكة همساً بأنها تحرك الفنجان بيدها ، واستهجنت فتحية هذا الهمس وقالت إن الأبرار يذهبون إلى عالم النور وإن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام وإن الفنجان يتحرك من تلقاء نفسه وإن جدتها زهور في مرج وحدها . وحدها؟ . . قالت شهرزاد : خطية . . ليش وحدها؟ ، فقالت لها فتحية هششششش اسكتي عاد . . . . لأن الأبرار لا يحبون الصوت العالي . . فصمتت شهرزاد على مضض وفتحت فتحية فمها بالسؤال الثاني : ها؟ شكو ماكو بيبي زهور؟ ، فتحرك الفنجان مرة أخرى وقالت زهور كنت أعمل بأجر يومي في بلدية المحمودية فسقط علي صاروخ توما هوك أرض جو ، وإني لألتمس من مدير البلدية إعادتي الى الخدمة في المستشفى . ضحكت شهرزاد بلا صوت وهي ترى فنجان فتحية يتنقل بين الحروف قائلاً إنه إذا ثبت تقصير الذاتية فيجب محاكمة أول شيوعي في العراق ، لأنه مفصول سياسي . . ومن حزب الدعوة وعانى من حبس إنفرادي في متنزّه الزوراء . . سيفرج عنه بأمر وزاري وانضرب بوري . . وحليب ماكو هذا الشهر . . وتمن أكو . . ثم فاصوليا وعدس

ماكو . . دهن راعي أكو . . معجون طماطة ماكو . . راحت الوطنية ، اجتي الوطنية . . خاتل مخاتل معليه؟

ما هذا يا فتحية؟ سألت شهرزاد وهي تهمس بالأصابع على كفها لكي لا تصدر صوتاً . . . . وينها بيبيتك؟ أشو صارت ختيلة؟ . . ليش ما تعيدين السؤال . . أخاف صار تشويش بسبب شعر شكشوكة؟ هيه زهور دكتورة لو زبّالة؟ وفتحت فتحية فمها بالسؤال مرة أخرى : شكو ماكو بيبي زهور؟ . وبواسطة الفنجان الذي تحرك على الحروف انكتبت كلمة واحدة من ثمانية حروف دار عليها الفنجان فرأتها فتحية (حلبوصكنت) ، وهي تقرب شمعتها من الأوراق التي تحمل الحروف الثماني . قالت شهرزاد : لعلها تقصد أنها كانت حلبوصة لأنها كانت تسكن على ضفاف الفرات بينما هي الآن على ضفاف الكوثر؟ لا أعتقد أنها تقصد ذلك . قالت نورية الحيزبون بجفاف . . وهي تبدو في غاية الانزعاج من تلك النهاية ، وبعد صمت طويل ذابت فيه جميع الشموع تقريباً ، شرحت لهم فتحية كلمة (حلبوصكنت) وقالت إنها تعني أن الجسر بيننا وبينهم قد اختفى وربما تفجر بسبب عبوة ناسفة وأن الأموات يلعبون الغميضة الآن ويعيشون في سلام ، ولا يريدون منا الاتصال بهم وإزعاجهم بعد اليوم . . فهم في غنى عن المجانين من أمثالنا . فقالت شكشوكة وهي ترفع رأسها أخيراً من المنضدة وتتحدث بصوت عال : يبدو فعلاً قد خرت علينا نجمة أم ذويل .

الفصل العاشر

الذئب الوديع والحقول المسحورة

بدر كان يزوره الكثير من الفنانين كلهم غريبو الأطوار مثله . . شعورهم طويلة وقمصانهم مزركشة ، وكانوا يجلسون قربه صامتين وكأنهم جالسون في حانة . . في الصيف يضعون النظارات الشمسية فوق عيونهم ، وفي الشتاء يلفون اللفافات الملونة حول أعناقهم كما يفعل أبطال السينما ، ويضعون العلكة في أفواههم كما تفعل النساء . . نعسانون دائما وهائمون في ملكوت الصمت . أحدهم يضع الغليون في فمه ويرتدي معطفاً سكري اللون اشتراه على الأغلب من اللنكات . . أهداه ذات يوم لوحة فيها امراة ملفوفة بالسواد تبدو عجوزاً خارجة من مجلس عزاء ، فوضعها بدر على الجدار المقابل لعبد الحليم لتواجهه كل يوم من خلف الجدار الزجاجي لغرفة بدر . تذمر عبد الحليم من ذلك المنظر الكئيب عدة مرات أمام منار ، وقال لها لماذا يضعها بدر أمام عينيه بدلاً من لوحة لواحدة من الفنانات الجميلات اللواتي يزرنه أحياناً وقت الربيع . . قالت له منار :

– هذه لوحة جميلة لفنان بابلي . . لماذا تشغل عقلك بها؟

– عقلي بألف خير ، ولكن بدرك هذا يتعمد إغاظتي .

– أوه . . نو . . هي إز سو كيوت . . بليس إنه ملاك .

– لماذا تتحدثين الإنكليزية؟ ألا تعلمين أن التَّنكْرِز واحتقار الهوية هو داء يصيب الأمم التي تعاني الوهن والاضمحلال؟

– على مهلك يا أستاذ عبد الحليم ، وهل نحن أمة منتصرة؟ . . نحن نعيش في عصر العولمة ، والعالمُ أصبح قرية صغيرة .

– أنت واهمة عزيزتي . . لو كان هذا صحيحاً لما عز عليك العثور على فرنسي يتحدث بالإنكليزية . . .

حكّت منار حاجبها الأيسر بإظفر إصبعها الصغير . . شعر عبد الحليم بامتلاكه كافة مستلزمات الديك والطاووس ، فقال مستفيداً من تلك اللحظة النادرة :

– هه . . عولمة . . . الله يرحم أيام اللبلبي .

كان ذيل الطاووس يواصل الارتفاع عندما ظهر بدر تلك اللحظة يحمل سيكارة غير مشتعلة بين أصابعه ونظارة القراءة تتدلى على شعر صدره الأشيب . . نظر تائهاً فيما حوله كما لو أن ثمة ثعالب صغيرة تحيط به ولا يراها أحد سواه ، ثم قال لعبد الحليم في لحظة غريبة أخرى من لحظات الاتصال بالمصادفة :

– ما بك؟

– لا تؤذني بلوحتك ، وارفع هذه المرأة المجللة بالسواد من أمام عيني .

– للتو اكتشفتُ وظيفة أخرى للفن . . إنها لإيقاظ الضمير . . وهناك لوحة كان البرقوق فيها طبيعياً لدرجة أن

العصافير هاجمته لأنها ظنته فاكهة حقيقية . . وهذه أعظم تحيه للفنان الذي حزن أيضاً وراح يبكي على خيبته ، لأن الرجل في اللوحه لم يقنع العصافير بأنه حقيقي حتى تخاف منه .

- . . . . . .

- الفن يلطّف ويخفف من أمراض الحياة ، لأنه يرينا العنصر الأبدي وراء المؤقت .

- . . . . . .

- إن مهمة الفن هي تحرير المعرفة من الاستعباد وغسيل الأدمغة .

- . . . . . .

- وهو قد يخلق شيئاً أسمى منه ثم يموت .

راحت منار تصفق له كما الجانين ، فأحنى بدر رأسه وقال :

- شكراً يا حلوتي . . واحتراماتي بالطبع .

ذابت في مكانها مثلما يذوب السكر في شاي ساخن وقالت له :

- الشكر لك يا أستاذ بدر . . أنت لطيف جداً .

خرج تائهاً من الغرفة كما دخل ، فقال عبد الحليم لمنار بفظاظة : لم أسكت على تخاريف هذا الرجل إلا لأنه عجوز يتحدث لغواً كالببغاء . . لو أنني كنت قد قلت حتى الظلام في بلادي أجمل . . . هل كنت قد صفقت لي كما صفقت له قبل قليل ؟

- ماذا؟

- أو هل كنت قد كتبت ذلك على هذا الجدار؟

قالت :

- لا أعتقد .

- إذن لماذا تعتقدين أن الذين تقتبسين أقوالهم هم من الحكماء المنزّهين عن الخطأ فتكتبين كلماتهم بقلم الحبر لا بقلم الرصاص؟ إن بعضهم كان من الخونة ، والآخر من الانتهازيين ، والثالث من الذين لعبوا على جميع الحبال ، فلا تعرفين إن كان رأسمالياً أم إشتراكياً أم من دول عدم الانحياز؟ . . وبدر هذا واحد منهم ، يومه خمر وغده أمر ، فلماذا أنت معجبة به إلى هذه الدرجة؟

قالت له وهي تخفق برموشها كالعصفور المحلق فوق عش صغاره الجوعانين :

- أنا أحب كل أطفال شعبي .

الفصل الحادي عشر

معطف غوغول

وكان المدير العام لا يملك شهادة معتبرة ، ووجهه الأملط إذا طالت لحيته يصبح شبيهاً بوجوه الفيتناميين وأهل الصين ، إلا أن رائحة غرفته كانت تشبه رائحة مقاعد الطائرة التي ركبها عبد الحليم مرة واحدة في حياته عندما أوفده المدير العام لأسبوع ثقافي أقيم في موسكو وحينها قال له إذا خرجت من باب السيارة فوجدت الجو ممطراً فما عليك سوى الخروج من الباب الأخرى . . . . هناك شاهد مسرحية (المفتش العام) لغوغول فأعجبته جداً وصفق لها طويلاً بالرغم من أنها كانت مقدمة باللغة الروسية . . وعندما سأله المخرج الصعلوك الذي رافق الوفد : لماذا كنت قد منعتها عندما قدمناها معربة اليك؟ قال له عبد الحليم ضاحكاً : إذا خرجت من باب السيارة فوجدت الجو ممطراً فما عليك سوى الخروج من الباب الأخرى . قهقه بعدها المدير الفيتنامي ضاحكاً وهو يوصيه بوضع العين على كل شاردة وواردة في التقرير الذي سيكتبه بعد العودة سالمين من الأسبوع الثقافي في موسكو . .

التزم عبد الحليم بنصيحة البابين التي لم يفهمها تماماً ، ولكنه رجّح أنه يقصد بها شيئاً مشابهاً لما تعنيه النصيحة التي تقول تريد غزال أُخذ أرنب تريد أرنب أُخذ أرنب . . لا ليس

هذا كذاك . . فتلك المقولة الشهيرة هي من أجل إفهام الخصم بضرب رأسه بالحائط إذا لم يعجبه واقع الحال ، أما نصيحة البابين فتبدو أقرب إلى المناورة وحسن التخلص وقت الأزمات . . أم هل هي أقرب إلى إتخاذ الحيطة والحذر من الثعلب المكار الذي قد يلد أو يبيض أو يفعل أي شيء؟! همم!! كلا لا تبدو هذه النكتة شبيهة بنصيحة البابين . . فماذا كان يقصد المدير العام بالضبط؟

(لا تدوخ) قال له المخرج في الطائرة التي أماتته من الرعب وهو يراه صافناً أصفر اللون طيلة الطريق . . شاء حظه العاثر أن يجاور ذات المخرج الذي راح يتفلسف طوال الطريق عن القيود التي تجعل الممنوع مرغوباً . . وقال له : ألم تسمع بالصعيدي الذي رفع باب الحمام لكي لا ينظر إليه أحد من ثقب الباب؟ . . . . والله على راسي . . . . ثم راح يهتز على مقعده من شدة الضحك حتى كاد عبد الحليم أن ينهض ليخنقه ، لا حنقاً عليه وعلى خفة ظله ، ولكن من شدة خوفه وانزعاجه من احتمال تأثير تلك الاهتزازات في ثبات الطائرة . . أهكذا هم الفنانون الذين يقول عنهم بدر إنهم يلطفون من أمراض الحياة؟ . . . مجانين وحمقى ومصابون بالعقم الذكوري ، لأن أغلبهم لا يخلّف سوى البنات ، يريدون الدنيا بلا حواجز ولاقيود . . ولو رسمت لهم باباً على الحائط لتزاحموا للخروج منه ، بل لأخرجوا لك المفاتيح من جيوبهم وقالوا إنها مفاتيح الباب المرسوم على الحائط . . إنه ليجزم أن الناس لا يتابعون أخبارهم إلا بانتظار مصائبهم ورؤيتهم كيف

يسقطون تعثراً بالسجادة الحمراء أو من أعلى سلم المجد أو كيف يمرضون وتنهار حياتهم ويموتون كباقي البشر . . . . إنه ليجزم أن أسعد لحظات الناس هي التي يسمعون فيها بموت ممثل مشهور أو زعيم عربي وأنه لولا تلك الأخبار الكارثية لبدت لهم نشرات الأخبار مملة مثل اجتماع حزبي .

لقد صادف فاتن حمامة وجان جينيه ويوسف شاهين وكوفي عنان وكاظم الساهر في أروقة الوزارة ، فلم يشعر باختلافهم عنه سوى بالمعاطف السوداء الفاخرة التي يرتدونها ، وهو أيضا قد عاد من موسكو بمعطف أسود فاخر اللون . عندما رأته منار علقت ضاحكة :

- هل هذا معطف غوغول؟

لكي يقطع عليها الطريق علق ساخراً :

- إحنا وين وغوغول وين؟

- إحنا وين لعد؟

- إحنا ابو القاسم الطنبوري زايد علينا .

- لا ليس زائداً . . على الأقل الرجل حاول التخلص من حذاء قديم .

- ماذا تقصدين؟

طقطقت معاضدها وهي ترفع يدها إلى أعلى . . ثم سألته وهي تشرب قدح الماء البارد :

- لا ، أقصد أيام اللبلبي بالطبع . . فأنا لا أحب مثل هذه الجوابات؟

إنها تحاول إغواءه بتلك الحركات الأفعوانية . . ليس من النادر أن يحدث ذلك مع العوانس ، وإلا ماذا تقصد من تحويل جمع التكسير إلى جمع المؤنث السالم وهو مؤنث عشوائي واحد سيفنيه بالضربة القاضية؟ فكيف إذا جمع سالماً؟ وماذا تقصد هذه المسكوفية الخليعة من تدليعها كلمة أجوبة بجوابات وجدران بجدارات وأحياناً أشياء بأشياءات ، وبعدها تمضي وهي تترنم تترنم تترنم . . . . تالي ماتالي أتحسر على أم الفستان الأحمر . . فستانك حلو مشجر . . ها هي تسأل ساخرةً عن يوم النصر العظيم فيجيبها بدر ساخراً بشكل غير معتبر ولا محترم . . تفو على الاثنين . فماذا يفعل غير يشتري كتاب (مئة نكتة ونكتة) من سوق السراي ويحفظه صماً بكماً ما دام لم يرث هذا الحس الساخر من جده ممتاز ولا من جدته شهرزاد التي كانت بالرغم من بلوغها الثمانين تكره وحش الشاشة فريد شوقي وتحب شريرها محمود المليجي بخلاف كل النساء . . كم شعرت بالهزيمة المنكرة عندما ظهر فريد شوقي بدور ضابط بوليس يقوم بإلقاء القبض على الشرير محمود المليجي في نهاية فيلم (وكر الأشرار) الذي أخرجه سالق البيض ، حسب زعمها ، حسن الصيفي . . كان لها حس مرهف حاد يخالف السائد والمألوف ، وذات يوم عندما اصطحبها معه إلى طبيب الأسنان لعمل جسر للأسنان ، نظرت إلى لوحة سريالية معلقة على الحائط وقالت للطبيب الذي كان يفتح رجليه على سعتهما حول الكرسي الملعون الذي تجلس عليه شهرزاد :

– دكتور أنت معلق اللوحة بالمقلوب .

داخ الطبيب لتلك الملاحظة ، ونظر طويلاً إلى تلك اللوحة المقسمة إلى نصفين من المربعات نصف أحمر في الأعلى ونصف أزرق في الأسفل . . . وعندما ابتعد الطبيب لقلب اللوحة همست وهي تبتسم بفمها المجعد الذي يظهر الابتسامة صافية بلا رتوش .

– لا تبتعد من هنا يا عبد الحليم ، لأن كل اطباء الاسنان قليلو الأدب .

الفصل الثاني عشر

حسون الأمريكي

لم يرث حفيدها عبد الحليم خفة ظلها الذي كانت تعزوه إلى ارتوائها بالماء القراح ، بل ورث تجهم أبيه شعيط الذي كان يقول له إن الرجولة وخفة الدم لا يجتمعان ، وتبرم أمه كيلزار التي كانت كلما ضحكت تقول ضحكة خير وشرها على إسرائيل . . . . أبوه كان يقول له لا تبك ولا تضحك أيضاً . . لا تغني ولا تلعب ولا تترقص! . . ماذا يفعل إذن؟ . . أيسير عاري الوجه بلا أي تعبير يذكر ، كما يفعل الأغبياء؟ ، أم يجعل وجهه في غطاء من الانشغال والانهماك العميق بمواعيده المضبوطة لحضور الندوات والاجتماعات الحزبية؟ . . تلك هي ربما الصفة الوحيدة التي ورثها من جدته شهرزاد وحياتها المضبوطة مثل الساعة كحياة الملكة ، فهي تقضي إجازتها على أراضيها ، الصيف في المورال ، والشتاء في ساندرينغهام ، ولم تخطط أبداً لقضاء فترة على شاطئ البحر ، ذلك أن بشرتها لا تتحمل أشعة الشمس ، وهي لا تنسى أبداً موعد الشاي الذي يقدم لها في حدود الساعة الخامسة بعد الظهر بالضبط ، مع سندويتشات وكيك مصنوع في مطابخ القصر ، غير أنها نادراً ما تتذوق ما تتزين به المائدة في هذا الوقت . وتتضمن حقيبة الملكة ، عند السفر ، غلاية كهربائية لتحضير الشاي ووسادة من

الريش وقارورات ... ه المعدنية ومربى البرتقال والبسكويت الجاف الذي تفضله . كما تحرص الملكة ، عند خروجها للتنزه أو خلال عشاء يوم الأحد ، على تنظيف طاولة الطعام بنفسها ، إذا ما كان بعض مستخدمي القصر في إجازة ، بحيث تجبر المدعوين على البقاء في أماكنهم ، ولا تكلفهم إلا بإطفاء الشموع ، لان جلالتها تخاف كثيراً من أن تلسع النار أصابعها .

ذهبت في صباها الى مخيمات الكشافة عند صدر القناة ، وهناك التقت بحسون الأمريكي الذي كان ينطلق من مسكنه في الأعظمية قاطعاً شوارع العاصمة مشياً على قدميه . . وحينما يبادره أحدُهم بـ «صباح الخير» ، فإنه يرد بـ«كود مورنينك» باللغة الإنكليزية . قالت إن حسون الأعظمي العبيدي الملقب بحسون الأمريكي كان يبدو نظيفاً وأنيقاً دوماً ، وكانت تراه احياناً وهو يمتطي دراجة سباق ويرتدي بنطلون شورت وقميصاً مزركشاً وخوذة واقية وجوارب مقلمة أشبه بجوارب لاعبي كرة القدم أيام زمان ، كما وكان يضع على عنقه قلادة وفوق رأسه قبعة كاوبوي وفي قدميه حذاؤه المشهور المعقوف من الأمام والذي كان يسمى (چم چم) .

شاهدته شهرزاد أوائل الستينيات في التلفزيون يقول إنه يختار ثيابه من أفخم المخازن وأكثرها شهرة آنذاك مثل أورزدي باك وحسو إخوان ، ويجيب على أسئلة مقدم البرنامج شارحاً وجهة نظره في زيّه ، معتبرا إياه الزي العصري المتمدن . وشارك ذات يوم في تمثيلية عرضت في التلفزيون ، أُلّفت خصيصاً له

حيث دافع أمام أبيه في التمثيلية عن غرابة تصرفه وملبسه داعياً الشباب إلى أن يتمتعوا بحريتهم العصرية ، من دون الاعتداء على حرية الآخرين .

أعجبت جدته شهرزاد بنزعة التمرد التي كانت عليها شخصية حسون الأمريكي والتي لم تطوِ تحتها صفة شريرة أو ما شابه ، فقد كان حسون الأمريكي محبوباً من الجميع بشهادة أكثر من شخص عرفه أو عايش فترته ، كما لم يكن عاطلاً يأخذ مصروفه من أهله ، بل كان يعيل نفسه من العمل ممرضاً في مدينة الطب أو المستشفى الملكي التي كانت تسمى بالمجيدية . غيرت شهرزاد رأيها بنزعة التمرد الأمريكي بعد أن احتلت أمريكا بلاد المسلمين بأمر الرب ، ثم لم تبق ريشة واحدة على الجناح الذي مده الوطن العربي على الأفق فنتفوه وخلعوا عنه مجد الحضارات وشاحاً ثم رموه إلى الزبالة . . .

عرفتْ ، نقلاً عن البي بي سي ، أن بوش قد دخل السعودية معتمراً العقال وخرج إلى إسرائيل معتمراً الطاقية المدورة الصغيرة . وعندما قالوا له أنت الأسوء في التاريخ رد ضاحكاً ليس هذا بجديد فقد كنت الأسوء في الفيزياء أيضاً . . مضروب . . كان يحب المزاح كثيراً منذ أن كان حاكماً لولاية تكساس . . لكنه لم يقبل المزاح من رسامة في غاية الجمال رسمت صورة أبيه على عتبة فندق هارون الرشيد فشعل أباها وسلف أسلافها وأحرق عاصمة الرشيد عن بكرة أبيها .

في الذكرى الستين لزواجها من جده ممتاز قارئ المقام . . .كانت تستمع إلى ندوة أذاعتها البي بي سي بعد الحرب عن العلم العراقي الجديد ، وقد ظل الراديو مفتوحاً بعد الندوة ، وهو يتحدث عن إليزابيث الثانية التي احتفلت بعيدها الثمانين في يوم الخامس والعشرين من حزيران . جمع العاملون بالقصر ، ذلك اليوم ، قائمة بأطرف حقائق عن مليكتهم ، فتبين أنها تمتلك جميع الحيتان والدلافين في البحار البريطانية ، كما قُدمت لها هدايا كثيرة وعجيبة من شتى بلاد العالم منها نمور الجاكوار البرازيلية وبستان من أشجار القيقب . كما كانت أول فرد من العائلة المالكة يحصل على إسطوانة ذهبية لألبوم غنائي حقق مبيعات كبيرة بعد حفل لموسيقى البوب أقيم في قصر باكنكهام احتفالاً باليوبيل الذهبي لجلوسها على عرش بريطانيا . كانت تملك أيضا ٨٨ بجعة صغيرة في نهر التيمز يقوم القصر الملكي برعايتها بشكل رسمي . . . . . .كما حفظ رواد الفضاء الأمريكيون صورتها على ميكروفيلم وضعوه في حاوية معدنية على سطح القمر . وعلى سطح الارض تعلمت الملكة القيادة عام ١٩٤٥ عندما انضمت للجيش البريطاني . واستقلت الملكة مع رعاياها أحد قطارات الأنفاق في لندن . . وامتلكت أول حصان صغير بوني في سن الخامسة وعندها الان ٢٥ حصاناً من خيول السباق وأكثر من ٣٠ كلباً من فصيلة كلاب ويلز التي تحبها كثيراً بل ولديها حمامة سباق . ثم انتهى البرنامج بالقول إنها ترسل بطاقة تهنئة إلى كل معمر

بريطاني يحتفل باليوبيل الماسي لزواجه .

في أرذل العمر شاهدت شهرزاد أرذل الوقائع وسمعت أرذل الأخبار ، ولم يعد يعجبها حياد البي . بي . سي . ولا مذيعيها الذين لا يعضون أصابع الندم ، بعد أن أرسلت لها الملكة إليزابث الثانية ، في عيد زواجها الستين ، عديد من جنودها المساندين لبوش في احتلال بلادها بأمر الرب . . انجلطت شهرزاد في تلك الأيام التي كان يتهيأ فيها أحفادها للسفر بعد أشهر من انتهاء الحرب . . ولم تشمخ بالشتائم والبصاق عليهم قبل السفر ، إلا لأنها أصبحت تهذي بكلام غريب وتبول على نفسها في الفراش .

لا يعرف عبد الحليم سر توله شهرزاد بالملكة إليزابيث الثانية قبل ذلك . . فقد كانت تتابع أخبارها لحظة بلحظة وتلاحق صورها في الصحف والمجلات القديمة التي تأتي بها فتحية الدردبيس من دكانها ملطخةً ببذور حب الرقي والبطيخ . . خاصمَتْها عندما منحت كاتباً هندياً ، أغضب المسلمين ، لقب فارس ثم سامحتها عندما خصصت غرفة بقلعة وندسور كمسجد للصلاة خلال شهر رمضان . . . وأكثر ما شعرت به من حماس كان عندما رأت طيات ستائر شبابيك شرفة القصر التي وقفت فيها الملكة وهي تلوح للجمهور في ذكرى جلوسها على العرش ، فطلبت من نورية الحيزبون عاشقة الصمت واليانسون أن تخيط لها ستائر مشابهة لستائر الملكة من بقايا قماش أخضر اشترته من سوق البزازين . . كانت نورية

منشغلة بتحويل بعض اللافتات الانتخابية إلى شورتات لفريق العصافير النارية ، فنصحتها بالعدول عن فكرتها لوجود نقص في القماش الأخضر وانعدام الشبه بين الفكرة ولون القماش وصرحت لها بأنها أصبحت تحب عمل شبه الشيء لا الشيء نفسه ، فردّت شهرزاد على نورية بغضب :

- العنطزة ضرورة ملحة عندما يكون القلب محطماً فدعيني أتشّبه بها حتى يأتي الصباح فأسكت عن الكلام المباح .

سخرت نورية الحيزبون منها وقالت حازمة باللهجة الموصلية التي تحبها :

- إيما عنطزة ، بيان الكلب ما يحب إلاّ قتالو .

أتكون كلمة (الثانية) هي السبب الحقيقي في توله شهرزاد بإليزابث ، وهي العاشقة لشخصيات الظل والوجوه الثانوية التي تحرك التاريخ وهي في الظل . كانت تشاهد أفلام عبد الحليم حافظ من أجل عبد السلام النابلسي ، وأفلام شادية من أجل أحمد رمزي ، وتشاهد أفلام فاتن حمامة من أجل فردوس محمد . ولعل ولعها بالشخصيات المساعدة لا يأتي من باب إنصافها واعطائها الاهتمام الذي تستحقه أو قليلاً منه وحسب ، ولكن أيضاً من باب تشتيت التركيز على النجوم الكبار والمكررين ، ليشمل أولئك الذين تقول إنهم أبحروا بنجاح على مركب واحد مع باقي النجوم الكبار . شاهدت فيلم (شارع الحب) من أجل الشعنونة نعيمة شخلع ، وفيلم (الوسادة

الخالية) من أجل قديس الشاشة عبد الوراث عسر ، وفيلم (دعاء الكروان) من اجل عذراء الشاشة أمينة رزق . . . كانت تعرف سلالات الذين سطعوا نجوماً في سماء الفن القاهر بالإضافة إلى أصلهم وفصلهم لسابع جد . . فأسمهان وفريد الاطرش سوريان وكذلك ماري منيب وأنور وجدي . أما نجيب الريحاني فعراقي ، وشادية تركية ، وليلى مراد يهودية مغربية ، ووردة جزائرية ، وصباح لبنانية ، وعادل أدهم تركي ، وعمرو دياب فلسطيني ، وبوسي تركية ، ونجاة الصغيرة سورية ، وحسين فهمي شركسي ، ونيللي أرمنية ، وشويكار وليلى فوزي تركيتان . أما رشدي اباظة وستيفان روستي فمن أصول إيطالية . ولكنهم هناك في قلب العروبة سطعوا نجوماً في قلعة الفن الحصينة .

أعلنت لهم ذات يوم خبر خطوبة فريد الأطرش في بيروت على سلوى القدسي ، ولكن موته المفاجئ وضع حداً لنهاية كان يؤمل أن تكون سعيدة ، وبذلك استمر فريد الأطرش يحمل لقب «الأعزب الدائم» ، وهو لقب نازعه عليه عبدالحليم حافظ الذي تزوج سراً أو لم يتزوج سندريلا الشاشة العربية سعاد حسني . وصفت شهرزاد فريد الأطرش بصاحب القلب الطيب الذي يصدق كل شيء ، وروت عن المطربة صباح حكاية تتعلق بزواجها من رشدي أباظة الذي كان متزوجاً في حينه من الراقصة سامية جمال . . وحتى لا تعرف سامية قصة الحب والزواج بين رشدي وصباح ، لأن أولهما زوجها ، والثانية صديقة حميمة لها ، لجأ رشدي ، هربا من ملاحقة

الصحافيين ، إلى شقيقته المقيمة في صيدا ، حيث تم الزواج الذي لم يستمر إلا خمسة أيام .

لم تكن شهرزاد تغفر للبومة سامية جمال أنها احبت فريد الاطرش أكثر من رشدي أباظة ، وكانت تقول لنفسها هل هناك من يفضل حماراً على حصان؟ . أما يوسف شاهين فتقول إنه ليس له سوى فضيلة واحدة هي اكتشاف ملائكية الشرير محمود المليجي الذي مات كما يموت المحارب في موقع التصوير ، وهو يتناول القهوة مع صديقه عمر الشريف ، ثم مات بعده المسكين عماد حمدي بالسكتة القلبية في جو من الصمت والنسيان . أما عبد السلام النابلسي ، فبعد إعلان إفلاسه ازدادت شكواه من آلام المعدة ، وحالته سوءاً حتى امتنع عن الطعام قبل أيام من وفاته ، ولم تجد زوجته المصاريف اللازمة لجنازته فتولاها صديقه في الدرب الفنان فريد الأطرش ذو القلب الطيب عن طريق شقيقه فؤاد الذي كان يحاول إخفاء الخبر حتى لا يسمعه الأطرش ويتعب نفسياً ، ولكنه علم به من خلال الصحف ، فانهار بالفعل على وفاة صديق عمره .

رحمهم الله جميعاً . . تركوا العمل الصالح . . أي عمل صالح؟ كانت شهرزاد تضيف وهي تهز يدها وتضحك بالفم الملآن : أي عمل صالح؟ . . هم كانوا شلة من السكيرين والحشاشين والعرقجية . . لا يمثلون أفلاماً ومسلسلات إلا عن سير الساقطات . أما الشريفات المؤدبات من أمثالها فلا يعبأ بهن أحد .

الفصل الثالث عشر

الدنيا ريشة بهوا

كان بدر يظهر ويغيب بينهم بطريقة غريبة كما الأشباح ، وذات يوم سألته منار باعتباره أقدم منها في الدائرة :

– ماذا يفعل بدر هنا؟

– ولماذا تسألينني هذا السؤال؟

– ألست اقدم مني في هذا المكان؟

– والله لا أعلم . . أكيد شيوعي . ألا تعلمين أن المكتبة الوطنية هي منفى للشيوعيين؟

– وهل أنا شيوعية لينقلوني إلى هنا؟

– اسألي نفسك .

– لم تقل لي ماذا يفعل بدر هنا؟

– كما ترين . . يستمع إلى الموسيقى وينتظر التقاعد .

في تلك اللحظة ظهر بدر بشكل مفاجئ من الباب ووقف في إطارها مثل بياض في لوحة ، بينما ثمة نغم يتردد خلفه مثل موسيقى تصويرية ، فسألته منار :

– هل هذه الموسيقى لموزارت؟

قال :

– لا هذا (شاور موسيقي) لديمتري شوستاكوفتش أتحمم فيه كل صباح . . له موهبة موازية لموهبة موزارت وإن لم ينل

حظه من الشهرة . . أعتقد أنه يشبهني ، لأنه يدور حول نفسه ، ودائما يحك نفس الجرح .

قبل أن يبدأ المطر بالنزول ، وقف عبد الحليم ثم جلس وكادت روحه أن تطلع كيفما أتفق من مكانها ولكنه وجد من الأفضل أن ينتظر ماذا ستقول منار قبل أن يفتح السيارة من الباب الأخرى .

قالت منار بكلمات بدت غير مترابطة بما قبلها :

– لماذا أنت هنا يا بدر؟

ساد صمت رهيب في الغرفة يشبه صمت القاعات الامتحانية بعد توزيع الأسئلة ، وتذكر عبد الحليم كل تلك الأيام السوداء المصخمة وهو ينظر إلى بدر كما لو كان ينظر إلى مراقب القاعة ، فأطلت من عيني بدر العسليتين نظرة مخيفة قطعت الصمت كالسيف وقال :

– احتراماتي . . من قال انني هنا؟ إنني مغادر منذ ثقوطي . . وداعاً . . ولا كلمة ، ولا التفاتة .

صمت قليلاً ، وبات واضحاً لعبد الحليم أن تحويل السينات إلى ثاءات كما يفعل الأطفال ، هي واحدة من طرقه الثعلبية في الحديث الماكر . . قال وهو يضحك :

– تستطيعين أن تقولي عني ما قاله حسب الشيخ جعفر عن نفسه : شمّرت عن عضدي وقلت أزحزح القفل العتيق ، لم أدرِ أن الباب أُقفل من وراء . . لم أدر إن كنت الحبيث أم الطليق؟

ضحكت منار وقالت :

– دعني أكتب هذا البيت الذي لم أسمع به من قبل .

– احتراماتي . . احذري كثيراً من السماع ، فجلال الدين الرومي يقول إن الأذن سوقية ، أما العين فهي أهل للوصال .

ثم ضحك وهو يتغنج وقال لها بطريقة عادل امام :

– انت حتكتبي ده كمان؟

– لا يا بدر . . جلال الدين الرومي أحفظه عن ظهر قلب .

ثم طقطقت معاضدها التي تتكدس في يدها الفضية وقالت قاصدة الالتفات إلى عبد الحليم :

– لوحتك جميلة .

– أشعر بأن العالم المصنوع بقدرة المخيلة هو أكثر رسوخاً من المنطقة المشوشة التي تتحرك فيها كائنات من لحم ودم .

– إن الرسم عمل صعب ومرهق على ما يبدو من تلك اللوحة يا بدر .

– لأن الفنان حتى إذا ما كان عمله يؤدَّى بطريقة لاواعية تقريباً فإنه خاضع إلى قوانين الطبيعة التي تتطابق مع قوانين النفس ، والعكس بالعكس .

– ولكن البشر كما يقول زوربا ثلاثة أنواع . . نوع يحول الطعام إلى شحم وقاذورات ، ونوع إلى عمل ومزاج طيب ، وثالث إلى إله .

– احتراماتي . . وهو القائل أيضاً الفكرة كل شيء . . أعندك إيمان؟ . . إذن فإن قطعة من باب قديم تصبح رفاتاً

مقدساً . . ليس لديك إيمان . . إذن فإن الصليب المقدس كله يصبح باباً قديماً .

– علينا أن نضحك رغم كل شيء يا بدغ . . اسمع ما يقوله نيتشة . . الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك ، لأنه وحده الذي يتالم أشد الألم الذي أجبغه على اختغاع الضحك .

وعندما تتحول الراءات إلى غينات فهذا يعني أن منار لن تتوقف عن رمي قشور الموز ما دام بدر لا يتوقف عن زخ المطر . . . قالت :

– هيا بنا نضحك؟

أمالَ رأسه بمنتهى الخفة مثل دمية انكسر رأسها فجاة ، وقال :

– ولماذا لا نغني يا مناغ؟

– هيا نغني يا بدغ . . . .

– هيا

– هيا

– الدنيا ريشة بهوا . . طايرة من غير جناحين . . إحنا النهاردة سوا . . وبكرة حنكون فين؟ . . في الدنيا في الدنيا . .

ترددت ضحكة طويلة بعد انتهاء الأغنية . . . . . وشعر عبد الحليم أن المطر قد أغرق الدنيا بالأوحال فقال لنفسه :

– تفو عليكما . . . حقا الضحك بلا سبب من قلة الأدب .

الفصل الرابع عشر

حية وبطنج

ما بها منار هذه ، تناكده طوال الوقت بدفاترها الثلاثة وبجمع المؤنث السالم ، وتشرب الماء في حضوره بغنج كما لو كان عصيراً للأنناس . . كانت تغرق كعادتها تحت أشبار المجلدات التي تروح وتجيء بها كل يوم بين الغرفة وقسم الإعارة . . تخرج بتاج العروس وتدخل بلسان العرب وتذهب بالأغاني ووفيات الاعيان وكشف الظنون وتعود بالقاموس المحيط والعقد الفريد وطوق الحمامة والفهرست وتهافت الفلاسفة وتعطير الأنام في تفسير الأحلام . . . . ولطالما اختارت له كل يوم كتاباً تتفلسف فيه . . وطبق اليوم لهذا اليوم هو كتاب الطبيخ لابن سيار الوراق يتحدث فيه عن النعناع ، واسمه الأكدي «نينو» ، ويشير إلى أنواع مختلفة منه ، كالريحان ، والبطنج الذي يجففه العراقيون وينثرونه فوق صحن الباقلاء المسلوقة . . ولعل طعمه الحاد يفسر النصيحة الشعبية في العراق بزرع «البطنج» أمام المنزل لطرد الحية ، والمثل الشعبي يصف الشخصين اللذين ينفر أحدهما من الآخر بأنهما : «حيّه وبطنج»! في اليوم التالي فتحت كتاباً جديداً وقالت له :

لكن أنت يا كلكامش دع معدتك تمتلئ
متع نفسك دائماً في الليل والنهار

اجعل الأفراح في كل يوم
ارقص والعب في الليل والنهار
فلتكن ثيابك نظيفة . .
اغسل رأسك واسبح في الماء
انظر محدقاً في الطفل الذي يمسك بيدك
دع زوجتك تتمتع بمعانقتك المستمرة لها ، فهكذا هو مصير الرجال الفانين .

هذا ما اختارته الحية للبطنج في نهاية الدوام . . إنه الكتاب المدفون ، الذي قالت إنه أراد رد الاعتبار إلى ثلاث شخصيات عظيمة ساهمت في الكشف عن ملحمة كلكامش ، هم هنري ليارد الذي قام بحفريات أثرية في نينوى عام ١٨٤٠ ، ومساعده هرمز رسام ، الشاب الكلداني الموصلي الذي كان يقوم بجزء كبير من العمل ، ثم جورج سمث اختصاصي الآشوريات الذي كان يعمل ذات يوم في المتحف البريطاني منهمكاً في دراسة كومة من الرُّقُم الطينية ، فأدرك فجأة أنه يقرأ فيها عن فيضان عاصف وجنوح سفينة على أحد الجبال وإرسال طير للبحث عن اليابسة ، مما جعله يرقص حول المتحف ويخلع ثيابه من شدة الفرح ، إذ يكون بهذا أول شخص يقرأ جزءاً مفقوداً من الملحمة التي يعود تاريخها إلى ألفي عام قبل الميلاد . . . . تخيلْ يا أستاذ عبد الحليم أنه لولا هرمز رسام ، الكلداني الموصلي الذي عمل مساعداً للبروفسور هنري ليارد ، لما أمكن العثور على مكتبة آشور بانيبال . لكن المصادر

البريطانية لا تذكره كثيراً بالرغم من أنه كان له الدور الكبير في العثور على نسخة ملحمة كلكامش التي أعيد استنساخها خصيصاً لمكتبة آشور بانيبال .

رفع عبد الحليم نظره عن اوراقه بلامبالاة . . . وقف ثم جلس وهو يتأفف . . وتعمد أن يلتفت باستنكار إلى الجدار السماوي الذي راحت منار تعلق عليه حكمة اليوم :

هو الذي رأى كل شيء فغنّي بذكره يا بلادي
وهو الذي رأى جميع الأشياء وأفاد من عِبَرها
وهو الحكيم العارف بكل شيء :
لقد أبصر الأسرار وكشف عن الخفايا المكتومة
وجاء بأنباء ما قبل الطوفان
لقد سلك طرقاً ، بعيدة متقلباً ما بين التعب والراحة
فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وخبره .
كلكامش الذي رأى كل شيء .

سمعها بدر ، الذي كان واقفاً قرب النافذة ، فاستدار وقال :

– لو كنت سومرياً لطلبت أن تناديني بشمش بدلاً من بدر .

– ناولني الشرائع إذن يا شمش .

– احتراماتي . . سأعطيها لحمورابي لا لمشاكسة عنيدة مثلك أمها إينانا وأبوها إنليل .

تمنى عبد الحليم لو أن بدر يسقط من النافذة . . وتسقط معه لوحته أيضاً ، ونظارته الطبية التي يعلقها على صدره

كـقـلائد النسـاء . . . لم تكن في غـرفـة عـبـد الحليم ومنار الزجاجية نافذة مطلة على الشارع ، لأنها مكنونة داخل غرفة زجاجيـة أخرى أكبـر منهـا ، وهي التي تستولي على النافذة الكبيرة ، وقد نسي عبد الحليم أمرها لولا أن بدر يذهب إليها لينظر منها إلى الخارج . . يدخن ويدمدم بأغنيته الأثيرة إلى نفسه : ضي القناديل والشارع الطويل . . فكّرني يا حبيبي بالموعد الجميل ، والتي أصبحت تذكر عبد الحليم دائماً بموقعة بدر مع المروحة المنضدية . . . كان بدر يطيل الوقوف أمام النوافذ التي يقول عنها إنها تزوده بالذخيرة الروحية للأيام القادمات ، وإنه يمضغ المناظر خارجها بتلذذ كما لو كان يأكل العسل مع اللوز والمكسرات . . . توقع عبد الحليم أن يأتي بعد قليل ويتساءل عن سبب اختفاء النحل من العالم والعطر من الورود ، ولكنه بدلاً من ذلك جاء وقال :

– لا ننكر على الإنسان البدائي أنه الأب الأول للمسرح . . لو تصورنا ما كان يجري في العصر الحجري ، عصر الكهوف والماموث ، وتصورنا الظلال المخيفة فوق جدران الكهوف ، وقد أقبل الليل ، وجلس زعماء القبيلة معاً ، وقد قتلوا أسداً ، فماذا يمكنهم أن يفعلوا غير إعادة الحكاية من جديد فيثب زعيم القبيلة واقفاً ويقول : «لقد قتلت الأسد ، أنا الذي قتلت الأسد» ، ثم يبدأ في تمثيل الحادثة إيقاعياً وسط أصوات الطبول ، ثم يردد صيحات الحماسة حين قتل الأسد . في تلك اللحظة ولدت المسرحية بكل عناصرها المعروفة الآن ،

وإن كانت بغير تقنية على الإطلاق ، فلِمَ ننكر على الإنسان البدائي أنه الأب الأول للمسرح . يبدو لي أن الحكاية ، أية حكاية ، لا يمكن لها أن توجد إلا عندما تُروى من جديد .

– هذا ما يحدث مع الخبز أيضاً ، إذ هو لا يعد خبزاً إذا لم تُعِد الفضائيات روايته من جديد .

– احتراماتي منار . . كان الشاعر والمسرحي والمؤرخ هو الذي يقوم بهذه المهمة الفضائية في الماضي ولولاهم لضربنا أخماساً في أسداس .

– المهم أنْ يكون الحدث موجوداً وليس مهماً مَن صنعه؟ . . خذ الهاتف مثلاً . . هناك جدل حول من اختبع التلفون أولاً؟ . . كراهام بيل أم ايطالي آخر؟ ، وليس هذا مهماً . المهم أن التلفون موجود . . . . . هل عغفنا مثلاً من اختبغ الإبغة والمشط والمقص ومجفف الشعغ وعلبة الكبغيت ، أو من اكتشف الشاي والتبغ والغز والفضة والذهب؟ . .

تمنى عبد الحليم أن تسقط هي الأخرى من النافذة فيخلص من خربطات هذه المجنونة التي تدخلت فيما لا يعنيها ، فالتفتت إليه عندما وجدته صامتاً وقالت له بدون مناسبة :

– ألا تنتحغ من هذا العمل؟

– الشباب لا يعرف الملل .

– هل تعلم بأني رأيت مسرحية ذات يوم تنتهي بالنشيد الوطني .

- على رأسي . . نحن نمر بظروف استثنائية .

تدخّل شبهُ المنحرف وقال بلا داع :

- وأن الرقيب رتبة عسكرية أعلى من العريف؟

لم يكن عبد الحليم قد رفع نظره إلى منار . . تفو عليها . . لا تستحق ذلك بعد استخفافها السافر بعمله ، ولكنه ، عندما تحدث بدر ، رفع نظره إليه فوراً وقال :

- أنا أعلم أنها مهنة الملائكة . . ألم تسمع قوله تبارك وتعالى «ما يُلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد»؟ .

- . . . . . .

فرح عبد الحليم بأخذ بدر على حين غرة ، وقال هازئاً متمادياً في جره من غرته وهو يقلده في طريقة الكلام :

- احتراماتي . . وهل كنتَ عثكرياً ذات يوم؟

قال بدر :

- نعم ، كنت . . . ورأيت وردة صفراء جميلة في فيافي الجبهة . . تقرفصتُ أمامها وحادثتها طويلاً كما لو كانت حبيبتي . . .

- يبدو أنك حساس جداً؟

- نعم عزيزي أنا حشاش جداً .

ما دامت الدنيا راحت تمطر ، وجد عبد الحليم أنه من الأفضل أن لا يخرج من هذا الباب ، بل يخرج من الباب الأخرى للسيارة ، فنهض إلى الجدار ليعلق لافتة جديدة يجب تعليقها في كل غرفة تحت صورة القائد كتب عليها (الحرية بلا

نظام ، والنظام بلا حرية وجهان لعملة واحدة) مكتوبة بخط الثلث . اقترب منها بدر وقال وهو يخرج قطعة نقدية من جيبه :

– احتراماتي . . هل تلعبون طرة كتبة مع الحرية؟

قال عبد الحليم بغضب :

– نعم ، نحن نلعب طرة وكتبة ، وكيفما تسقط العملة مردودها لنا .

– لا تخبرني بأنك تتفق معي لأني سأشعر حينها أنني على خطأ .

لم يجبه عبد الحليم فقال له بدر :

– أم تريد الجميع أن يستحموا معاً ، لأن الشامبو مكتوب عليه لكل العائلة؟

الطريقة التي ضحكت بها منار اثبتت له فعلاً أنها سوقية وبلا أخلاق . وعندما سكتت أخيراً قال لها بدر :

– احتراماتي . . الاختلاف يثلج صدري . . وهذه الضحكة أيضاً .

فعلاً ليس أطباء الأسنان وحدهم قليلو الأدب . قال عبد الحليم لنفسه ، ثم تهكم بصوت عال :

– لا تقل لي أنك من برج الأثد؟

– كلا ، ولكني أواجه صعوبات الأسد ، فهو يريد أن يكون الأقل كلاماً لكي يكون كلامه قوياً بندرته .

– لهذا تجدني قليل الكلام؟

قال بدر :

– ولكنْ لم تجب على السؤال . . ألا تكل أو تمل من هذا العمل؟ . . ألا تعلم أن هناك أمواتاً ينبغي قتلهم؟

– لو صعدت إلى طائرة ، هل تفضل أن لا يتم تفتيش حقائب المسافرين؟

– . . . . . .

– ها؟

– نعم أريدها أن تُفتَّش .

– هذا ما أفعله يا سيدي . .

انتصر على منار عدة مرات ، وقفز فوق قشور موزها باحتقار واقتدار ، لكنه لأول مرة يشعر بانتصاره على بدر في خروجه من الباب الأخرى وهروبه من المطر ، فقال أخيراً وهو يشعر بأن المطر قد توقف تماماً :

– أفتش حقائب المسافرين من أجل سلامتهم .

الفصل الخامس عشر

شعيط ومعيط وجرار الخيط

قالت منار ، نقلاً عن دراسة جينية ، إن أجداد أولئك الرجال الذين اجتاحوا قارة أوروبا ، انتلقوا إلى القارة من الهلال الخصيب الذي يمتد من مصر إلى العراق . ونقلت عن الدكتورة باتريسيا بالاريسك من جامعة ليستر البريطانية قولها إن ٨٠ بالمائة من كورموسوم (واي) الموجود لدى الرجال في أوروبا هو من أصول شرق أوسطية . ويبدو أن سيطرة القادمين من الهلال الخصيب قد يعود إلى كونهم من المزارعين الذين كانوا أكثر جذباً للنساء .

– هه . . ولكن انظر أين أصبحوا وأين أصبحنا؟

على تلك الزخة من المطر فتحت منار نافذتها لذلك اليوم ، ثم جعلته يحتار ويتساءل هل يمكن أن يعود إلى قسم الرقابة السياسية؟ وإذا عاد ، أفلا يجب أن لا يلعن حظه مرة أخرى؟ . . أنت من طلبت الجوابات . . ماذا تخرف هذه المجنونة؟ ألا تجد سواي تسأله ثم تزعم أنه هو الذي سأل السؤالات . . اقبل فلسفتي أو أرفضها ، ولكن دعني أعرضها عليك أولاً . . إن الرقابة سياسة غبية تسمم الروح وإن الكلمات هي مادة خام كالقماش يفصلها الكاتب ويلبسها القارئ ، وأنت تختار أن تضع نفسك بينهما في دائرة الاحتمالات بلا داع ، ولفيلسوف الهند العظيم طاغور رأي

عظيم في أمر الرقابة والرقباء ، إذ يقول إذا أنت أغلقت بابك دون الزيف والضلال امتنعت عنك الحقيقة أيضاً .

أية باب وأي ضلال؟ تفو عليك يا منار وعلى طاغور . . لكن لا . . . شعر عبد الحليم فجأة بأنه معني بالدفاع عن مهنته التي يعشقها بدلاً من الهروب إلى باب أخرى لن تحميه من المطر ، فقال لها : كلامك هذا سيقودنا إلى الفوضى ، وإذا انتهت الرقابة نفشت الأفاعي سمومها في كل مكان . فقالت منار : إن الأمر لا يستحق مثل هذا العناء ، ولا أعتقد أن من يهتم بقراءة الكتاب سيكون صيداً سهلاً لتلك الافاعي . . نحن الآن في عالم مفتوح على مصراعيه ، ومن يريد الرذيلة فلن يذهب إلى مسرحياتك التي تراقبها وتلونها بقلمك الأحمر . فقال عبد الحليم : ولأننا نعيش في عصر الرذيلة والخراب ، ينبغي علينا حماية ما تبقى من الخير من أجل أولادنا وأحفادنا الذين سيدركهم الإنترنت ويفسدون من البيضة . قالت منار : المسرحية والرواية والقصيدة هي جسور لعبور الزمان والمكان . . هي أبواب تنفتح على عالم لا نعرفه ، لأننا لا نمتلك الخبرات التي يمتلكها المؤلف . . وتأتي حضرتك بجرة قلمك ، الذي يشبه الشعفورة في الإظفر لشطب تلك الخبرات . قال عبد الحليم : أنا لا أطلق النار على أحد ، ولكني أمنع بعض الخزعبلات ، وهذا من حقي . . أم أنك تعتقدين أن المؤلف نبي معصوم من الخطأ ، أو أنه يجب أن تُعلَّق أقوالُه على الجدران كما تفعلين أنت وراء ظهرك . فقالت منار : ولكن

الممنوع مرغوب ، وما أن تمنعوا كتاباً حتى يصبح من أعز الأشياء على القلوب والعقول ، ويبادر الجميع إلى البحث عنه . فقال عبد الحليم : لو كان كلمة جميلة فلن تموت . . صدقيني . . بجرة قلم يشبه شعفورة الإظفر . فقالت منار : الكلام الذي يرتدي مسوح المسرح يصنع وجوداً قد يؤثر في الناس أكثر من همس من يرتدي مسوح الرهبان وصراخ من يرتدي عمامة إمام المسجد . فقال عبد الحليم : لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك ، سواء كنت راهباً أو كاتباً او إمام مسجد . قالت منار : وما الكاتب؟ أليس إنساناً حيّاً يفكر ويعيش ويجتمع معنا في قبضة الزمن ، أم أنك تمسح ما لا تفهم وتسمح ما تفهم؟ . قال عبد الحليم : الحرية بلا نظام لا تؤدي إلا إلى الفساد . . ألا ترين ما يحدث عندهم من أشكال الإلحاد والانحراف والمجون؟ . فقالت منار : هل هذا هو فقط ما فهمته من كلامي؟ . . أنا لا أتحدث عن الفسق والمجون ، بل أتحدث عن الوعي بجمال هذه الدنيا . . والكتابةُ الجميلة ستنتشر خارج موطن الرقيب رغماً عن أنفه . . أنا اتحدث عن أسطورة البقاء وأنت تتحدث عن أسطورة النظام . . أنا أتحدث عن الحرية وأنت تتحدث عن القيود . قال عبد الحليم : وهذا هو مربط الفرس . . تريدين أن تضعي العربة أمام الحصان . . عندنا هذا غير لائق ولا مقبول . . أين القواعد . . أين النظام؟ لا حرية بدون نظام . . أنا ليس بيني وبين الكاتب عداوة أو ثأر . . أنا اؤدي واجبي في ردع من يتجاوز على الحدود أو يخدش الحياء

العام . . وهناك أعمار خطرة وناس جهلة ، فمن يحميهم؟ الكتابة ليست حرية شخصية ، ولكن حرية عامة ، فكيف تريدين ترك الحبل على الغارب؟ . . . . قالت منار : ما أجمله القارب وحبله متروك على غاربه فيتهادى على صفحة النهر كالحلمان . . فقال عبد الحليم : حسناً ، إذن ، قُضي الأمر ، بأضدادها تُعرف الأشياء وبكونك ضدي ستظهرين المعنى الذي تريدين ، وإلا ما كان هناك معنى . . ولكن احرصي على أن تكوني داخل القارب لا تحته . . ضحك . . ضحكت منار ثم أنهتْ كلامها بقول سلام لكاتب سلام يقول أن العقل الأوروبي لا ينكر الظاهرة أو يغفلها ، بل يناقش محتواها بالرفض أو القبول أو التعديل ، أما العقل النقدي عندنا فيتولى مهمة تزوير الواقع والنص عن طريق إلغاء وجود المشكلة لكي يتحرر من معضلة مواجهتها . الإنكار طريق سهلة ، لكنها غبية ، لأنها قد تصل في تطرف شذوذها إلى حدّ منح الشرعية الضمنية للظاهرة التي يجري رفض وجودها علنا .

. . . . . -

– هؤلاء عزيزي هم من يحملون الكروموسوم (واي) العرب . . . . ولكن انظر واين أصبحوا وواين أصبح الأفنديات .

لماذا تحمّل هذه المجنونة الموضوع أكثر مما يحتمل؟ ، وكيف تسمح لنفسها أن تحوّل جمع التكسير مرة أخرى إلى جمع مؤنث سالم قد لا يحتمل سماعه مدير المدرسة ، فيفلت زمامه كما يفلت زمام الجماهير؟ وكيف لوجهة نظر خاصة عن أحلام

غير واقعية أن تكون قاعدة رقابية؟ هل جُنّت منار هذه إذ تتحدث وهي تغلق عينيها عن القارب الحلمان؟ . . كيف سيفلت زمام القيادة من العقلاء الأمناء إذا كانت تريد لأحلامها أن تتسيد الموقف فتتطاير الجماهير كالريش في العاصفة الهوجاء؟ . . وهل كل من يقرأ ويشاهد هو من العقلاء الحكماء الرزنين؟ . . هل تريدنا أن نمشي على الأرض حفاةً عراةً كما البهائم التي تظهر عوراتها على الملأ فتصبح بهيمة وليست إنساناً؟ ، أم هي تريد للإنسان أن يصبح كالشجرة المريضة التي تظهر جذورها للرياح والضوء الزائد للشمس فتحترق ثم تموت؟ . . أتعرف أني رأيت بأم عيني من عين الباب السحرية ، في سفرتي الوحيدة إلى موسكو ، كيف يتصرف الناس عندما يشعرون بأنهم غير مراقبين . . أكثرهم يمدون أيديهم إلى مواقع خفية من أجسامهم أو يدخلون أصابعهم إلى أنوفهم أو يحكّون مؤخراتهم ويعدلون وضع مدير المدرسة . . قلة منهم من رأيته يتصرف بعقل عندما يكون بلا رقيب . . وهكذا هم الناس إذا ما تُركوا بدون رقابة . . يتخبطون ويتموعون ويشذون عن جادة الصواب فتضيع القضية الجوهرية ، وقد يتمردون حتى على أسمائهم اذا ما استبدلنا المعارك المصيرية بأحلام خرقاء لا صوت فيها ولا صراخ . . . ألا تعلم أن الشفافية قد تسببت في انهيار الاتحاد السوفيتي؟ . . ألا تعلم أن الناس ساعاتهم ليست سواء . . وعلينا نحن الرقباء أن نحميهم من جميع أنواع المنكر حتى وإن اضطرننا إلى حفر

أهدافنا على خشبات المسارح؟ . . وبعض الكلمات أشد فتكاً من المنكر ، فكيف ندعها تقال على رؤوس الأشهاد فيعم الجنون؟ . . إنه ليذكر جيدا صديقة فائضة عن الحاجة من صديقات جدته شهرزاد اسمها الحاجة نبيهة كانت تضع يدها على فمها خجلاً كلما سمعت نكتة من نكات شهرزاد الخارجة عن الأدب ، خوفاً من الضحك والسقوط في المنكر .

تذكّره منار بجدته شهرزاد التي كانت تتنقل من رأي إلى آخر كما تتقلب في نومها وأحياناً تريد ترك الحبل على الغارب والتمرد على كل شيء والثورة على الرجال الخارجين من مصانع الورق . . . . لا شيء مهم برأيها ، بعد أن ولى آخر عهد على آخر الرجال المحترمين . . وإذا ما قام هؤلاء الرجال الورقيون بشيء مرعب ، فهو البرهان على أنّ من تبحث عنهم من الرجال لم يعد لهم وجود ، إلا عبر أخبار البي بي سي . أما المجاهيل أزواج بناتها فكانوا ،كما تقول ، مثل رذاذ البعوض القاتل لا يقتل سوى البعوض . . سبع تنابل يجلسون على الأرائك المتقابلة في المقاهي ليس لديهم ما يفعلون سوى لعب الطاولي والدومينو ، وليس لهم شخصيات حقيقية تبث الرعب في النفوس ولا يصلحون للزواج من بناتها الجميلات اللواتي اكتسبن أسماءهن من المقام العراقي وتاريخ العرب : نهاوند ثم حجاز ثم ميان ثم صبا ثم بلقيس ثم عالية . . ثم صباح آخر العنقود التي ولدتها شهرزاد وهي تسمع شحرورة الوادي تغني في الراديو بعد إعلان الجمهورية العربية المتحدة : بدي عريس

أسمر عربي شرط شرط . . شرط من المتحدة طلبي شرط شرط . أما حفيدتها الأولى فأسمتها سلامة تيمناً بوصول ابنها معيط سالماً إلى السويد بعد أن كان قد نُفي إلى سجن نقرة السلمان الذي يقع وسط بادية السماوة ، وسط الصحراء الغربية القريبة من الحدود السعودية . . ثم نُقل إليه مع باقي المعتقلين الشيوعيين بعد الثامن من شباط عام ١٩٦٣ بقطار أوشك الجميع أن يموت فيه فسموه الناس قطار الموت ، . . كاد أن يموت مرة أخرى عندما حاول الهرب من هذا السجن وتاه في تلك الصحراء النائية . . ولم يصادف أحداً في طريقه من البدو لكي يساعده في نجاته ، وكادت الذئاب أن تفترسه لولا عناية إلهية جعلت أحد الرعاة يعثر عليه في الرميثة وهو بين الحياة والموت . . كان يستحق نوطاً للشجاعة على بطولاته تلك . ولكن زوجته طلبت منه الطلاق عندما لم يعلن براءته من الحزب الشيوعي وتزوجت رجلاً آخر هو ضابط التجنيد عبد الصاحب ، صديق كاتب الأغاني عبد الملك الذي دفع البدل النقدي بدلاً من الالتحاق بالخدمة العسكرية وكتب فيما بعد أغنية عن عيد الميلاد الميمون ، وبالرغم من تخلفه عن خدمة العلم بمليون دينار عراقي ، فقد ظل شارباه يتدليان حول فمه على شكل ثمانية وثلث .

لم تر أياً من أزواج بناتها السبع يصلح للزواج . . واحد تصفه بأن لديه كرشاً كبيراً وأن قلبه تحرك وأصبح مكان معدته وكان أكثر الجميع انشغالاً طيلة الحروب ونصاباً في الصرافة

وبيع السكائر . وا ر شب خطيباً من أفصح فصحاء العرب . . بليغاً مفوهاً يرفع الفاعل وينصب المفعول ، ثم انتهى يكتب القصائد عن زين القوس وعرس الفاو ، والثالث قصّر دشداشته وأطال لحيته وصار لا يأكل الخيار مع الطماطة . والرابع ذهب إلى موسكو في بعثة دراسية فعاد بتوقيع المنجل والمطرقة ثم هاجر إلى تلفات الدنيا ولم يعد . والخامس كان ضافر كرسي الخيزران الذي تبخر مع رائحة السيكوتين في ظروف غامضة بعد أن ضفر العديد من كراسي الخيزران لحديقة القصر الجمهوري ، . . . . وحده محمد مروض الأسود الذي غدر به الأسد ، ومفتن الذي تاه بعد أم المعارك في جبال ديانا كانا رجلين بحق ما دامت قصتاهما قد تناقلتهما الأخبار . .

. . مسكينة شهرزاد . . كانت تعتقد أنها تعيش زمن الرجال صيادي الطرائد الذين يعودون إلى الكهوف يجرجرون الأسود وراءهم . . هكذا كانت ترى الرجال الذين يجب أن تعجب بهم النساء ، وتقول ما فائدة الشوارب ، إذن ، إن لم تكن لتحسس الطرائد والانقضاض عليها؟ وما نفع الرجل إن لم تعجب به امرأة؟ . . وكيف تعجب به امراة إذا لم يمتلك انتفاضة التمساح وانقضاضة الفهد ورقصة فرس النهر؟

تريد شهرزاد رجالاً يتقاتلون ، لا يكتبون القصائد والأغاني ، وكانت تسأل أين إذن ذلك الشيء الذي يجعل الرجل رجلاً؟ . . أين عضلاته السمراء التي يصيد بها الأسود ، وعيونه الحمراء التي تقدح الشرر؟ . . ما فائدة الرجال ، إذن ، إذا

لم يشلّهوا أكمام قمصانهم الخاكية لتظهر من تحتها سواعدهم المفتولة بالعضلات؟ . . ما فائدتهم وهم لا يحملون ولا يلدون ولا يطبخون ولا يكنسون ولا ينشرون الملابس على حبال الغسيل ولا يجيدون ترتيب حقيبة واحدة من حقائب السفر؟ . . أيضعون مدير المدرسة على الجانب الأيمن أو الأيسر من السروال؟ . . أيبنون البيوت ثم يهدمونها ويحولونها إلى خرائب بسبب الحروب؟ .

في هذا تصدت لها نورية الحيزبون ثالثَ مرةٍ في حياتها ، وقالت لها : على مهلك يا شهرزاد . . يا أم نهاوند . . ألستِ أنت عاشقة الحروب والانقلابات؟ . . ألست الفرحانة بضجيج الدبابات وهدير الطائرات؟ . . ألست التي تحبين صفارات الإنذار ولصق النوافذ بمانع التشظي وصبغ مصابيح السيارات باللون الازززززرق؟ ، فلماذا تكرهين هدم البيوت بسبب الحروب؟ . صفنت شهرزاد لتلك الانتباهة العجيبة من نورية الدنغوزة ، عاشقة اليانسون والصمت الرهيب ، وفكرت عدة أيام بتلك المفارقة العجيبة في عشقها لأن تكون الدنيا محيا على الدوام وفي الوقت نفسه هي المرأة الرؤوم والأم الحنون التي ربت ثلاثة أجيال من البشر هم أولادها وأحفادها وأولاد أحفادها . . أيوجد في جوفها قلبان . . قلب يريد السلام وقلب يعشق الحروب ويمجد الثوار والثائرين؟ أم أن حب الثورات يجري في عروقها مجرى الدم ، وقد ورثته من جدها محمود المهوال مردد الهوسة الشهيرة (الطوب أحسن لو مكواري)؟ . . هل تعشق

الأفعال أكثر من عشقها لمعاني تلك الأفعال ونتائج تلك الأفعال؟ . . هل التفتت عن الأفعال المحتشدة بالحكمة ورجاحة العقل إلى الأفعال الصاخبة بالهوسات والهوجات والحماس الجميل؟ . . أم أن الأمر خارج قدرتها ولا تستطيع السيطرة عليه؟ ألم تكن في طفولتها تعشق ضوء البرق وأصوات الكراكيع وتفضل الأجواء المتقلبة الماطرة على أجواء الصحو والسكون . بلى كانت كذلك منذ أن كانت أسنانها اللبنية رقيقة كقشور الحب الأبيض فماذا تفعل؟؟

هنا اسعفتها فتحية ، صاحبة محل النهضة العربية لتأجير الكتب والمجلات ، بنظرية سمّعَتها لابنها ياسين في درس الاجتماع ، وتقول إن المزاج ليتقلب بين الاثنين وإن لدى كل واحد منا شخصيتين متناقضتين تماماً ، وهذا شيء طبيعي عند العرب فلا تقلق ولا تهتم . . هزت شكشوكة كتفيها وقالت بعد رشفة من يانسون نورية : هل تردن الصدق يا بنات؟؟ تره صحيح المزاج يلعب جوقلومبة . . مرة برتقالي ومرة فوق النخل . . . ولم تؤيدها شهرزاد بالرغم من اقتناعها التام بنظرية ياسين ، ولكنها أضافت لها شيئاً توصلت إليه بعد صفنتها الطويلة من كلام نورية الحيزبون ، وهو أنها كانت تأمل بعد كل ثورة أو حرب بحدوث شيء جديد وجميل ثم يخيب أملها فتنتظر ثورة أخرى . . مع ذلك فقد قررت شهرزاد أم نهاوند التحول من عاشقة الانقلابات الثورات والحروب إلى شهرزاد الناطقة باسم الأبرياء الذي ذهبوا ضحايا الحروب مقابل غرائز

الموت والقتال لدى الرجال . . استغرق منها هذا التحول عدة شهور استمعت فيها من البي بي سي إلى برامج منوعة غير برامج الأخبار ، فسمعت أن عشيرة واحدة من النحل تستطيع أن تجمع نحو مئة وخمسين كيلوجراماً من العسل في الموسم الواحد ، والكيلوجرام الواحد من العسل يكلف النحلة الطيران مسافة تعادل محيط الأرض عدة مرات في المتوسط . سمعت أيضاً أن حشرة الحرير ، لكي تحافظ على وحدة بيتها ، تقوم بربط البيوضات بعضها ببعض بواسطة مادة خيطية لاصقة تقوم بإفرازها ، وبهذا تمنع تناثر البيوض في الأطراف . . . تساءلت شهرزاد من أين تعلمت الأم ، الحشرة الكاملة التي تصنع الحرير ، كيفية المحافظة على أطفالها؟ ، وكيف استطاعت أن تفرز هذه الخيوط لتلصق بها بيوضاتها ، دون أن تكون هناك مشاكل؟ . . وماذا عن البعوضة؟ . . إنها حشرة مصاصة للدماء ، وإنها تعيش على هذه الدماء . ولكن هذه المعلومة ليست دقيقة ، حسب البي بي سي ، لأن الأنثى فقط من البعوض هي التي تمص الدماء . . فهي التي تحمل بيضاتها ، وهذه البيضات تحتاج إلى البروتين لتكبر . . بمعنى آخر أنها تحافظ على دوام نسلها بهذه الطريقة . .

يبدو تفككها الأسري ، إذن ، كتفكك أسرة العناكب وربة بيته الأرملة السوداء . . . العنكبوت الذكر لا ينسج شبكاً ، والأنثى هي التي تقوم بصنع نسيج البيت ، ولكنها لا تلتصق بشبكتها ، بل تترك ممراً سرياً غير لزج لتغادر الشبكة من الخلف

وكذلك يهجر صغار العناكب أعشاشها في سن مبكرة . . إنها أيضاً تقتل زوجها بعد ليلة الزفاف ، ولذلك سُميت بالأرملة السوداء . . شهرزاد وجدت المواساة بتتمة التقرير الذي يقول إنها تفعل ذلك لتثأر من ذكر العنكبوت الماكر الذي يحتال عليها بافتعال الموت من أجل إغرائها وحثها على التقرب إليه ، وذلك بوضع ذبابة في فمه يصطادها لهذا الغرض . أما أنثى القرش المسكينة فيهاجمها اثنا عشر ذكراً دفعة واحدة ويتركونها مثخنة بالعضات والجروح . سمعت من البي بي سي أيضاً بالنمل الذي يقيم وادياً له على هيئة مستعمرات تغطي مساحات كبيرة تبلغ ما بين خمسين ومائة ياردة أو أكثر ، وقد تكون على شكل مدينة هائلة تبلغ مساحتها خمسين فداناً وتتكون من ألف وستمائة عش ويحتوي كل واحد منها على طوابق ربما تصل العشرين ، في جزئه الأعلى ، وعلى عدد مماثل من الطوابق تحت سطح الأرض . . . .

هذا هو إذن بيتها . . أصبح مليئاً بالحشرات المختبئة في أعشاشها ، وإن عليها أن تهرق الماء عليه لكي لا يتحول إلى مستعمرة نمل . . . أصبحت هي ملكة لكل انواع الوحوش والدود والعناكب ، فشبهها حفيدها عبد الحليم بالغولة التي يخاف منها أطفالها ، ولكنهم لا يجدون ، عند اقتراب الخطر ، من يحتمون به سواها ، فهي أمهم وجدتهم العظمى . لم تكن تستطيع حتى جمعهم في صورة واحدة يقفون فيها على السلم كما تفعل الملكة إليزابث الثانية . . يذكر عبد الحليم في أعوام

السبعينيات ، عندما كان في العاشرة من العمر أو نحوها ، أرادت شهرزاد أن تلم العائلة لالتقاط صورة فوتغرافية ، فاغتنمت العيد الكبير لجمع أفرادها من كركوك التي أصبح اسمها التأميم ، ومن الناصرية التي أصبح اسمها ذي قار ، ومن الكوت التي أصبح اسمها واسط ، ومن ستوكهولم التي مزق معيط جوازه في مطارها وأصبح فيها مواطناً سويدياً من الدرجة الأولى . . ولكن لم يأت أحد منهم . . خافوا أن يكونوا الضحايا القادمين للسفاح أبو طبر ، ولم تجمعهم ضرورة الصورة أو دفعتهم لكي يأتوا الى بغداد . احتفظت شهرزاد بجرجوبة الصورة أربعين عاماً وهي خالية من رجال العائلة .

اعتقادها المفاجئ بغفلتها عن امتلاء بيتها بالحشرات زال بعد أيام ، وانقلبت إلى أخبارها في البي بي سي من جديد بعد سماعها الصواريخ تسقط من جديد في يوم من أيام رمضان . . والله زمان يا صافرة الإنذار التي لم توقظ جرار الخيط من النوم ولكنها ملأت الزقاق بالرجال الناظرين إلى السماء . . فامتلأ قلبها فرحاً بذلك المنظر الجميل الذي زادته الصواريخ مهابة ، لأنه سواء كان أولئك الرجال في غاية الوسامة كمفتن أو كانوا في غاية القبح ككلنتون ، فإنهم ليسوا رجالاً إلا في أخبار البي بي سي . أما خارج الأخبار فلا ترى رجالاً ، بل أكياساً من ورق لو وضعتها في كفة ووضعت طلقة رصاص في الكفة الأخرى لترجحت كفة الرصاصة . . . . . وعادت ريمة الى عاداتها القديمة تريد الرجال رجالاً يصنعون الثورات

والانقلابات . . ثم تستمع إلى أخبارهم في البي بي سي .

جاءتها فتحية من مجلة روز اليوسف بكلمة غينس وقالت لها إن أطول سيجار كوبي ملفوف في العالم قد دخل موسوعة غينيس ، فعزز ذلك من قناعة شهرزاد بمنصبها الرفيع كأم بيت قلّمتْ مئة ألف ثمرة بامية وقشرت عشرين ألف رأس بصل وغسلت خمسين ألف قطعة ملابس وكنست ما يعادل خارطة العراق من الأرض . . هه . . أبعد ذلك يتعجرف الرجال الفارغون الذين يوسخون شراشفهم ويأكلون الخبز من يديها القديمتين فقط ، ولولا تنورها لماتوا من الجوع؟ . . عجنت الطين الحر من التراب الأحمر ، فجلبته من شط الجعيفر ووضعته في حفرة وسكبت عليه الماء ثم تركته ليختمر أربعة ايام ، خلطت بعدها الطين الحر بالتبن الناعم ودعكته جيداً ثم قطّعته وفتلت من هذه القطع حبالاً وضعتها وبشكل دائري الواحدة فوق الأخرى وصولاً إلى الأعلى حيث فتحة حلق التنور . . ومثلما غمست كفها في دم الخروف الحار وطبعتها على باب بيتها ، وضعت شهرزاد مراية وسبع عيون على تنورها من جهة الأمام منعاً للحسد . بعد غينيس جاءتها فتحية بكلمة أوكازيون . . فأعلنت أن الرجال جميعاً يستحقون الوضع في أوكازيون عدا نسيبيها محمد ومفتن وابنها السويدي معيط الذي تحتفظ له من السجن بعلبة نمنم كتب عليها الرقم ١٩٦٣ . الجميع يستحقون وضعهم في تلك التنزيلات ، لأنه ليس لديهم ما يتباهون به سوى علب السكائر وأهداف كرة القدم وسجل ألقاب العاهات البدوية : أبو بطن . .

وأبو ظهر . . وأبو ركبة . . وأبو لغد . . وأبو عقلين . . . .

كانت الأسواق المركزية (اورزدي باك سابقاً) توشك أن تقفل أبوابها ، وعليه أن يلحق بدجاجة يوم الإثنين مع نصف طبقة من البيض وكيلو من الرز العنبر . وبما أنه كان مفلساً إلى حد الثمالة ، فقد وجد الجرأة لاستدانة خمسة دنانير من منار فأعطته ما طلب من فلوس . . صادف ذلك اليوم الثاني لارتدائه نظارة طبية بعد أن أصيبت عيناه بقصر النظر لكثرة ما قرأه من نصوص مسرحية وما كتبه من تقارير ، فوجد أن هذه النظارة تحول النملة إلى فيل وأن ثمة شعيرات ثلاث قد نمت بالقرب من شفة منار اليسرى لم يكن قد شاهدها من قبل ، والآن يشعر بالقرف منها لأنه يكتشف الآن أنها ليست جميلة كما كانت تبدو من بعيد . . وجد أن هذه النظارات اللعينة تكشف عيوب الناس وتحول الوجوه الجميلة في عينيه إلى حبوب وثآليل وشعيرات وأوردة وشرايين . . . . ما هذا القرف؟ . . أكانت كل تلك القاذورات موجودة من قبل وهو لا يراها؟ وهل في وجهه ما يشابهها من بشاعات لم يكن يعلم بها من قبل؟

وقف بجسمه المربوع أمام المرآة ونظر لنفسه مرتدياً نظارته الطبية الجديدة وقال ألا عاب هذا الرأس الكبير وهاتين العينين الجاحظتين . . . . . إن القلبقة(*) ، وهي تلد علاجمها من ظهرها ، لأجمل من هذا الشكل مئة مرة . . قالت له منار إنها

---

* قلبقة :ضفدعة باللغة التركمانية .

تلاحظ تغييرا جوهرياً عليه ، وسألته هل حلقت شاربك؟ فقال لها كلا ، ولكني ارتديت نظارة طبية ، فسكتت ولم تعلق أو تقول أعوذ بالله . . منار التفتت عنه لترمي قشور الموز وتسأل صاحبتها . . أين ذلك الشيءالذي يشدك إليه في البداية؟ . . أين حماسه في الدفاع عن قضايا المرأة وضرورة المساواة في كل شيء بينها وبين الرجل؟ . . شيء آخر مرعب : إنهم يعبدون كرة القدم ويركضون وراء الكرات كالمجانين . . قد يخبرك أنه بطل العالم في الرماية وأنه يريد السفر إلى اليابان أو سويسرا أو اليونان . ولكنه سيضعك في جيبه حتى وإن كان شحاذاً . . فأين ذلك الشيء الجميل؟ الشيء الذي يشدك إليه في البداية . . . . . إنه يعرف كيف يجامل ، وكيف يقول كلاماً جميلاً يدخل القلب . . . يستعمل نفس الأسلوب مع كل النساء . أما علامة الخطر التي تشير إلى أنه سيضعك فوراً في خيمته البدوية من جديد ، فهي أنه سيقول لك بعد الزواج إن النساء هن ماس وجواهر يجب إخفاؤه عن عيون الناس .

لم يفهم عبد الحليم شيئاً مما تقوله مقشارة الموز ، واختلط كلامها مع ما كان يسمعه من كلام شهرزاد في زيارة يوم الخميس قبل عودته يوم الجمعة إلى بيت أبيه شعيط في كركوك . . يوم واحد كان يكفي للجلوس مع الملكة بعد هروب أسبوع كامل من مجلسها المنعقد على الدوام . . مع ذلك فقد تظاهر بالفرح وشكرَ منار وأثنى على حسن كلامها قبل أن يطلب منها الدنانير التي يحتاجها من أجل الأسواق المركزية .

الفصل السادس عشر

الحدائق جنة العالم

لم يبق أحد في المكتبة الوطنية لم يعرف بالخبر ، فقد انفجر من غرفة إلى أخرى مثل ألعاب نارية فرح بها الجميع وسال لعابهم لهذه الإثارة التي لم يصلوا فيها إلى بائع صحف يتجول في مناطق الإشارات المرورية أو يدفعوا لها قرشاً ولا مليماً . يكاد يجزم أنهم سيقيمون مهرجاناً في متنزه الزوراء يقومون فيه بالرقص والدبك لتقديمه قرباناً على مذبح الوطن ابتهاجاً بالمناسبة الوطنية التي ستجعله حامل راية الخيبة إلى الأبد . . وحتى الذين لم يصلوا إلى حفل في حياتهم أو يحضروا مباراة لكرة القدم سيشاركون في هذا المهرجان الفريد . . الطعام فيه مجاني ، وكذلك الفرجة على الألعاب النارية . . جماهير غفيرة احتشدت في ممرات الوزارة تتهامس حول موقعة ستكون ، على ما يبدو في وجوههم ، حامية الوطيس . كانت الأمور تجري طبيعية منذ الصباح ، لحين جاء المساء المغبر عندما ظهر المذيع باكياً مولولاً على الشاشة ، فاعتقد عبد الحليم أنهم في الأول من نيسان ، وأن ما يجري لا يمكن أن يكون سوى كذبة . . . . صحيح أن حظه سيّئ للغاية ، ويمكن أن يجعله يغرق في شبر ماء ، ولكن لا يمكن أن يكون سيئاً إلى هذه الدرجة . . أرقام الهواتف المهمة في جيبه كانت

لا تعد ولا تحصى . . من كاظم الساهر والمدير الفيتنامي العام وحتى رفاق منار ، نيوتن وإينشتاين وأديسون ، كلها لم تفد لتخليصه من قرار سيصدر بنقله إلى مكان آخر ، الله وحده يعلم كيف يكون ، أو لا يكون على الإطلاق ، كبش فداء هذا مؤكد ولا غبار عليه . . أصبح كبش فداء لهذه الغلطة التي هي ليست غلطته ، فلماذا يتحمل هو نتائجها؟ . كان مؤلف المسرحية ، لعن الله عرضه ، قد جعل رئيساً عربياً ، في المسرحية التي أجازها قبل أشهر ، يُغتال بثلاث رصاصات قرب وادي الخلد ، وثمة أسباب وجيهة لذلك الاغتيال جعلته يجيز تلك المسرحية الملعونة . . وفي اليوم الأول لعرضها تعرض الرئيس مساءً إلى محاولة اغتيال مشابهة قرب ساحة الأمة العربية .

ما هذا الحظ السيّئ؟ . . إنه رقيب مسرحي وليس فتاحاً للفال أو عرافاً لكشف المستور . . . . ولو حلف الآن على جبل من القرائين بأن ما حدث هو محض مصادفة وقدَرٌ أحمقُ الخطى ، لما صدقه أحد . . . وراح يضرب أسداساً بأخماس . . . ترى ماذا سيحدث له الآن؟ وكيف سيتم إلقاء القبض عليه؟ ومن يشمت به بشكل مؤكد؟ ومن سيقف معه في محنته؟ . . الكل ذئاب بثياب حملان ، فكيف سيأكلونه ، وماذا سيأكلون؟

جلس على مصطبة خشبية قرب الباب الشرقي للمدينه يفكر ببرامج كئيبة مثل (الحدائق جنة العالم ، وتيلي ماج ، والمرسم الصغير) ، فجاءه الهواء الشرقي الساخن محملاً

بالتـراب والأوسـاخ وأفكار غـريبـة تقـول إنهم إذا كـانوا في الإمـارات يرشـون البـحـار بالذهـب لعلهـا تمطر ذهبـاً هناك ، فـمن الأولى بـهـم رش بلاده بـالماء أولاً كي لا تموت من العطش . . مرت عشر سنوات تبعتها عشر سنوات أخرى وهو يسمع عن مولات دبي وكورنيش الجميرة وشارع مكة دون أن يرى شيئاً من تلك العجائب ، فقد كان مشغولاً عنها بطنب الصغرى والكبرى وأم موسى وبحياته الحزبية الحافلة بجيوش القدس والجولان والقادسية التي كانت تحمل تلك المولات أسماءها . . بلاد العرب أوطاني . . من الشام لبغدان ، ومن نجدٍ إلى يمنٍ . . إلى مصرَ فتطوان . . ولكن الظروف الاستثنائية لم تسمح بتذوق المشويات في شاطئ شرم الشيخ ، ولا المشروبات في شارع الحمراء ، ولا رؤية الجميلات في مكة مول . . كان فقط يرتدي بدلة السفاري من اجتماع إلى آخر ، ورفيقُه عبد الباقي مقصود يرتدي البدلة الخاكية من قاطع الى آخر . . . فما أحوجه إلى عود شبيه بعود توت طلبه أباه من جاره ليزرعه في حديقة المنزل ، فغرسه وجعله يتّكئ على عود طويل يشد من أزره إلى أن كبُر ولم يخرج شطأه ، بل أصبح عملاقاً بلا ثمر . . كان فحلاً إلى درجة ضربت جذوره أنابيب المجاري وخرّبتها . . أليس فحل التوت في البستان هيبة؟ ، فأين إذن العيدان التي يستند عليها في محنته؟ وما أدراه ، بعد أن أجاز مسرحية (الرئيس آخر من يعلم) ، أن واقعةَ طبق الأصل ستحدث في المساء نفسه ، فيخرج المذيع يبكي ويولول على الناس وهو يقول

لهم إن الرئيس قد تعرض لعملية اعتداء غادرة . . صحيح أنها باءت بالفشل بسبب تطابق سيارة الرئيس مع كل سيارات الموكب ، لكن من هو الإله المنصف الذي سيصدقه ، إذا قال إن التشابه بين المسرحية ، والحادث هو محض صدفة . . تفو عليك يا آرسطو طاليس . . أليس أنتِ من قلت إن الفن يحاكي الحياة وإن الحياة تحاكي الفن ، فما هذا الحظ التعس الذي جعل المحاكاة تتم بعد ثلاث ساعات من عرض المسرحية؟ . . . . كل واحد كان يمر بقربه كان يعرف بخيبته ، فيتحاشى عبد الحليم النظر إليه ويرغب بالنهوض من المصطبة ، ولكنه لا يريد أن يعود إلى البيت لئلا تحدث الكارثة فيجيء زوّار الفجر إليه في عز الظهيرة . . هذه المسرحية ، التي أسماها بدر الحاقد ضاحكاً بالمشرحية ، ستقوده إلى المشرحة بكل تأكيد . . . مشرحة؟ هه . . وهل سيتبقى منه شيء ليذهب إلى المشرحة؟

كانت المسرحية تتحدث عن قرص دوّار ابتكره أحد المهندسين لشق جبل أسود يعترض الأفق ، إلى نصفين . . وكان الرئيس كلما ضاقت به الدنيا يمتطي مهرته شيرين ذات اللون الأبيض الناصع ، فترمح به بعيداً عن القصر ، وغرتها المسترسلة تطلق ذؤاباتها في الهواء الطلق وتتطاير من عنقها إلى وجهه ويديه . وعندما تصل به قريباً من الجبل الأسود يلجمها لتتوقف ويلبث ناظراً إليه بصمت متمنياً لو يقطعه إلى نصفين كما تفعل السكين مع الزبدة أو أن يتلاشى كالأشباح فينفذ إليه ممتطياً فرسه من جهة ، ثم يبزغ كالسهم من الجهة الأخرى

في لمح البصر ، وتلك أمنية جمع من أجلها أمهر مهندسي الطرق والجسور ، وطلب منهم تنفيذها على الفور ، فاخترع له أحدهم ذلك القرص العملاق الذي يختصر زمن تفتيت الجبل إلى بضعة شهور .

اجتمع العلماء حول ذلك الابتكار الذي أُحيط بأقصى درجات السرية ، وبعد أن تأكدوا من قدرته الفائقة على التفتيت والتهشيم جربوه على التلال الصغيرة المحاذية للبلدات البعيدة عن المدن ، ثم جربوه على إسفلت الطرق الخارجية ، وعلى بيوت قديمة آيلة للسقوط ، فأبهرتهم النتائج ، وراحوا بحذر يضعون الأقراص على سفح الجبل حيث نقل المهندسون إليه طريقاً مرسوماً على الخريطة يمتد بين أقصر نقطتين في المنحدر الذي يتوسط الجبل ، ويجعله يبدو من بعيد كحرف ميم باللغة الإنكليزية . وأبدى الملاك المهندس إخلاصاً منقطع النظير في الحضور إلى مواقع العمل فكان يتمرغل بالتراب من مشرق الشمس حتى مغربها ويحث العمال على التفاني في اختصار الوقت اللازم لإنجاز ذلك العمل . ولما أعلن كبير المهندسين بأن ما تبقى من ذلك الزمن المطلوب هو ستة أشهر كافية لإنجاز الشق راح الملاك المهندس الذي كان يعرف أهمية الأسماء للسيد الرئيس يفكر بأنه لا جدوى من عمله المتقن ولا خلود من دون التفكير باسم مبتكر يطلقه على شق الجبل إلى نصفين ، فيدخل به إلى التاريخ مع الاسم أكثر مما يدخله مع المسمى . ولأن جنة الخلد كانت مطمحه ومطمح كل المؤمنين ،

فقد اهتدى أخيراً إلى اقتراح اسم (وادي الخلد) على ذلك الفتح الذي يوشك أن يكتمل ويشق الجبل الأسود إلى أبد الآبدين .

وجاء رجال المراسم يرتدون أحذية سوداء في غاية النظافة ، وتفوح منهم روائح طيبة ، وقادوا الجمع المجتمع في قاعة الثريا إلى سرادق مهيب يواجه الشق الذي أحدثته أقراص الملاك المهندس في الجبل الأسود ، فاتخذوا مقاعدهم على الأرائك في صباح صيفي جميل . واتخذت ثلة من الموسيقيين أماكنهم في صفوف مرتبة ، وطاف عليهم رجال الضيافة بالقهوة وقطع الحلوى ، ثم تُليت آيات من الذكر الحكيم نهض بعدها السيد الرئيس ، الذي قدم مباشرة من قاعة الثريا ، إلى مقعده في الصف الأمامي القريب من منصة إطلاق الأقراص الدوارة ، ودعاه وزير التشييد والتعمير إلى طرق جهاز التحكم عن بعد لتشغيل القرص الأخير الذي سيزيح به صخرة رمزية أخيرة من صخور الجبل الأسود فيشقه إلى نصفين ، وهرع رجال الأمن والحماية للإحاطة به إحاطة السوار بالمعصم ، وامتدت سبابته إلى أزرار سوداء في لوحة وضعوها تحت يده . . داس عليها فانطلقت الإشعاعات القادمة من قرص بعيد وأزالت آخر طبقة صخرية تغطي الأفق الذي كان فيما مضى يشبه الخصر الذي يفصل الجبل إلى نصفين متساويين بشكل افقي ، فاختفى ذلك الخصر بالفعل مع دحرجة عدة صخور تحركت من مكانها وبأن الأفق البعيد قريباً

للأعناق المشرئبة والأنظار المصوّبة نحوه بإمعان .

عزف الموسيقيون السلام الجمهوري فكف الجميع عن التصفيق ووقفوا جميعاً احتراماً ورفع العسكريون منهم أيديهم إلى صدوغهم بقوة بينما أبقى المدنيون من خلفهم وأمامهم أيديهم مرسلة بثبات على الجانبين ، واستمع الجميع إلى عزف مهيب من أجمل ما يكون للسلام الجمهوري ، ثم عادوا إلى مقاعدهم وجلسوا بعد جلوس الرئيس . في لحظة جلوسه قال :

- أسمع صوتاً غريباً .

ثم التفت فجأة إلى سكرتيره إبراهيم وسأله :

- ولكن أين الملاك المهندس؟ .

فالتفت إبراهيم بدوره ونظر إلى أكثر من مكان ، ثم قال بصوت واهن :

- يبدو أنه لم يحضر بعد .

فانتفض الرئيس من مكانه وراح إبراهيم يغيب عن الوعي من هول الصدمة ، ثم سقط على الأرض مغشياً عليه قبل أن يرى الصخور وهي تتدحرج من سطح الجبل وتكتسح المنصة بقضّها وقضيضها وتزيحها عن ظهر الوجود ، لتبعثرها في مسافات شاسعة من الأرض الجرداء انتشرت رمالها في البر والجو وغطت بعجاجها خط الأفق .

أضطر المخرج ، لعنة الله على عرضه هو الآخر ، إلى تغيير تلك النهاية الترابية العاصفة بنهاية أخرى لا يختنق معها الجمهور وأيضاً ينجو معها الرئيس كما هو الحال دائماً . .

استبدل المخرج نهاية المسرحية في يوم عرضها الأول ، بتعرض الرئيس بعد افتتاحه لوادي الخلد لوابل من الإطلاقات النارية التي جعلها المخرج تتردد كالزغاريد في فضاء المسرح . كانوا مطمئنين إلى أن انفعال الرقابة مع قضية وجود السفير الإسرائيلي ثم طرده ، ستجعل تلك المسرحية بمنجى من التأويلات الشيطانية لرجال المخابرات في بلاده .

ظَلّ ظله يمشي وراءه . . فكان عبدالحليم يتلفّت بين الحين والآخر ليكتشف ويتبين أن الأشجار أصبحت بيضاء اللون . . والوجوه زرقاء والسماء خضراء والأرض بنفسجية . . . . . .

في ساعاته الأخيرة حلم حلماً شبيهاً بواقعة بدر مع المروحة المنضدية ، فقد كان جالساً في مطعم مع منار وبدر ، وكان بدر يلف ساقاً على على ساق ، ومنار ترفع ساقيها على المنضدة ، وهو الوحيد الذي يجلس بشكل طبيعي بين الثلاثة ، ولكن رجل الأمن دخل إلى المطعم وتوجه إليه وقال : لماذا تجلس بطريقة صحيحة؟ صحيح الفقير فوق البعير وعضه الكلب . . وكما يحدث دائما في الأحلام فقد تغير المكان فجأة الى سرير يجمعه مع منار وهو يستمع إلى محاضرة من محاضراتها الألف قالتها ضاحكة وهي تهمس : ألم تسمع بقصة الإمبراطور العاري من الثياب؟ ألم يكن طفلاً من قال إنه عار من الثياب؟ . . فلا تُلبسوا الإمبراطور ثياباً من الهواء ثم تقولوا للناس إن المخلصين فقط سيرون تلك الثياب والخونة سيرونه عارياً منها . .

استيقظَ من النوم يلعن دماغه الأحمق . . دخل إلى الحمام وخـرج وهو يلعن دمـاغـه الأحـمق . . . أهذا وقت هذا الحلم بالإمبراطور العاري من الثياب؟ . . . . . لماذا لم يحلم به في أيام الصفاء والجمال؟ كانت منار هي الوحيدة التي جاءت ، في اليوم التالي ، ترتدي فستاناً مليئاً بالفراشات المتطايرة من فستانها إلى الهواء الطلق . . عندما دخلت عليه وقفت معه في محنته من النظرة الأولى ، وقالت له في تواصل غريب مع الحلم :

– لا أعـرف هنا أحـداً أتوسط عنده ، ولكني جـمـعت الموظفين وسنذهب إلى المدير العـام لنتـوسط لديه بظهـورنا العارية . .

بالرغم من أنه كان ضعيفاً بالحساب فقد تاقت نفسه ، في تلك الساعات الأخيرة من حياته ، إلى أن يرسم بموازاة جسمه خطّاً شاقولياً مستقيماً ثم يرمي ناتج القسمة خلف ظهره العاري إلى الأبد ليرى ماذا في نهاية المطاف سيتذكر عندما يظل راجعاً الى الوراء ، فوجد ، وهو في قمة لا مبالاته من ناتج القسمة الأخير ، أنه من المحال أن ينسى كاظم الساهر وهو يغني أنا وليلى في باحة المدرسة الثانوية . . . . كان هو أيضاً في تلك الأيام فقير الحال يعشق غنية ميسورة الحال . . فجفت على بابها الموصود أزمنته . . ليلى وما أثمرت يوماً نداءاته . . رقم تلفون كاظم الساهر أيضاً كان في جيبه . . ولكنه كان قد غادر العراق إلى الأسكيمو ناجياً بنفسه من هذا الطاس والحمام . . إلى أبد الآبدين .

الفصل السابع عشر

لحية القاضي

للتو يتذكر نافذة الغرفة التي رأى بدر يتوقف عندها كثيراً ، وكان عبد الحليم يتمنى أنه يسقط منها ذات يوم وفق رغبة دفينة راودته عدة مرات لفعل ذلك . . تلك فكرة استعارها من مديره الفيتنامي العام الذي كان يقول دائماً تحركوا ، فإذا لم تتحركوا الى أمام دفعتكم من الخلف . . لم يكن قد اقترب من تلك النافذة سوى مرة واحدة قبل يومين عندما حزم أوراقه وطلب التمتع بإجازة لمدة شهر لحين انجلاء الغبار ، فتوقف للمرة الأولى أمامها ونظر منها إلى الخارج فلم يرَ غير سوق شعبي ونساء ملفوفات بالسواد يفترشن أرضية مليئة بالأزبال والأوراق والأكياس . تُرى إلى ماذا ، إذن ، كان ينظر بدر طوال الوقت وأين هو النهر الذي يتحدث عنه والحدائق التي كانت تشيد بالقرب منه؟ . . . لم يكن هناك غير سوق شعبي تتناثر حوله النفايات والأنقاض . . فأين هي دار الأوبرا التي تحدث عنها بدر؟ .

من تلك النافذة العلوية رأى أيضاً سطوح منازل الميدان القديمة المتهالكة . . تتكئ على بعضها البعض بتداع شديد ، وكأن هذا التراصف وحده هو الذي يمنع عنها خطر السقُوط . . . كانت تلك البيوت تنخفض بشكل ملحوظ عن الشارع الذي

عُبّد بعد بناء المكتبة الوطنية في السبعينيات ، وهو الشارع الذي كان عبد الحليم يستعمله للمجئ إلى المكتبة فيجد أصحاب تلك البيوت قد اضطروا إلى شق سلمة أو سلمتين خلف الأبواب لغرض الصعود عليها والخروج إلى الشارع . . وعندما يهطل المطر وتنحدر مياهه إلى داخل البيوت تبدأ حملات التجفيف بتشكيلة متنافرة من القدور والأواني والدلاء . . وكل ما يصلح لجرف المياه وإخراجها من البيوت الغرقانة .

ثمة سائق أجرة يطفئ محرك سيارته البرازيلي الحمراء . . تتجمهر حوله أعشاش من شعور الأطفال المنفوشة ، وبعضهم راح يعبث بمقابض أبواب البرازيلي حتى أن السائق وجد صعوبة كبيرة في فتح بابه والنزول إلى الأرض . . كهربائي نصب مكبّرَ صوتٍ مخروطي الشكل فوق سطح بيت من البيوت ثم رمى الأسلاك من السقف إلى الأرض ، فسقطت في حوش المنزل ، حيث كان البيت قد اكتظ بالنسوة والأطفال ، وقد تدلت نهاياتها بموازاة الحائط لتصبح في متناول يده بعد أن يهبط من السطح . طفلة كانت تجلس في صندوق خشبي صغير يسحبه طفل آخر وقع نظرها على سيارة الأجرة فقالت :

– ما هذا؟

– تابوت . . ألم تري تابوتا؟

– وماذا يفعلون به؟

- أبو جاسم مات .

بعد قليل كانت سيارة الأجرة تنطلق بالتابوت ، يحيط بها موكب من العباءات السود التي خرجت إلى الشارع ، يتبعها الكهربائي وهو يحمل لفة من الأسلاك البيضاء ، وأعشاش رؤوس الأطفال تشيع المنظر بابتسامات خجول . .

أهذا ما كان يتفرج عليه بدر من النافذة كل يوم؟ . . فقر وموت وماء آسن؟ . . فعن ماذا كان يتحدث ذلك المجنون؟ . . . . وأين هي الحقول المسحورة التي كان يراها ، ودار الأوبرا التي يتحدث عنها؟ . . إنه مجنون من مجانين منار الذين تجمعهم حولها بلا خجل . . ميمو وليمو . . وسمس . . وبدغ . . تفو عليهم جميعاً . . وتفو عليك يا منار . . جعلتك أوراق الكتب ترين جدارك السماوي هو السماوات ، وكلماته هي النجوم والأقمار . . غسلتِ يديك بقشور الموز ، واتكأت على ذلك الجدار كما لو كنت تغفين في فراش من ريش النعام . . . . . لا ترين الحياة إلا عندما تغمضين عينيك ، فتكتبين على جدارك السخيف أقوال المغرورين النائمين من أمثالك .

لو تعرفين أيتها المتفلسفة الحمقاء بحال الدنيا من الأعماق لما عرفت الفاعل من المفعول به وضاع منك الخيط مع العصفور . . . تظنين الدنيا كتاباً للفيزياء المسلية ، وهي غابة من الألغاز وألعاب الأمم التي لا تُسرّ عدواً ولا صديقاً . كنت لا ترين من البحر سوى رغوته . أما أنا فكنت أغوص في البحر

إلى القاع لأعثر هناك على الطين الحر . . كنت المدافع الأخير عن هذه العربانة . . ولكنك لم تفهميني ولن تفهميني قط . .

لا يشعر بالرغبة بمغادرة المصطبة إلى الباص . . وها هو ، بعد أن جلس قليلاً ثم وقف ، يكتري سيارة الأجرة ذهاباً إلى غرفته في الفندق حيث اختلفت مشاعره كلياً عن السابق عندما كان يجد الحماسة للإجابة على استفسارات السائقين الفضوليين بحكم المجلات التي يضعها في حضنه : هل أن وردة الجزائرية تزوجت من المشير عبد الحكيم عامر؟ ، أو هل أن رغدة تزوجت من صدام حسين؟ ، أو هل أن صباح تزوجت من أمير في الكويت؟ فكان يبرع بالإجابة على تلك الأسئلة مضيفاً اليها من عنديات جدته شهرزاد بعض حكايات وردة وصباح ورغدة قائلة وهي تضحك بالفم الملآن إنهن تركن العمل الصالح للأمة العربية من المحيط إلى الخليج . وإنها لا زالت تحتفظ بصورهن المقطعة من مجلة الموعد في دفتر عتيق أصبح كالعَلوجَة بسبب قطرات من القير سقطت عليه من شقوق السقف .

الآن لم يعد يشعر بالرغبة في الضحك . . بل لم يعد وجهه يشجع السائقين على الكلام . . . روحه ذابت وشمسه غابت . . . . . ولا من جرس يصرفه ولا من بايسكل يقوده إلى حضن الشارع وقت الظهيرة . . لا هم ولا غم سوى انتظار وقت الغداء . . . . أصبح كتاب مئة نكتة ونكتة في حضنه بعد أن لم تعد له حاجة حقيقية . . فقد سافر بدر إلى بريطانيا التي غابت عنها الشمس ، ولن تجد منار من تناكده بعد أن ينتقل هو قريباً

الى خلف الشمس فليسلِّ نفسه ويفرّج عن قلبه على الأقل بقراءة النكات في الكتاب الذي كان صغيراً أكثر مما ينبغي :

الصفحة الاولى : قروي يقول لأبيه يابه أريد أكمل دراستي برة . . فيقول له أبوه ماكو مشكلة قل لأمك تفرش لك في الحوش .

الصفحة الثانية : نملة شافت عصير فراولة منسكب على الأرض قالت : يااااااه أخيراً شفت البحر الأحمر . .

الصفحة السابعة : بوش وبلير كانا في مؤتمر صحفي ، فأعلن بوش قراراً بقتل عشرين مليون عربي وقطة واحدة فسأله الصحفيون ولماذا القطة؟ فتطلع بوش إلى وجه بلير وهمس في أذنه : ألم أقل لك أن لا أحداً سيهتم بالعشرين مليون عربي .

أخيراً شاف البحر الأحمر عندما وصل الى غرفته في فندق (صح النوم) ولكنه في فترة صحوه الممتدة بين العاشرة مساءً والعاشرة صباحاً لم يجد شيئاً ذا بال يحدث في العالم ، سوى أن إسرائيل هجمت على غزة وأمطرتها بالصواريخ هادمة بعض البيوت على رؤوس أصحابها . . ليس ذلك هو ما يبحث عنه في أخبار ذلك المساء الحزين الذي تشابهت فيه حادثة الاغتيال مع المسرحية . وعندما أشرق الصباح وجد نفسه نائماً بالمقلوب ، رجلاه على الوسادة ورأسه في الطرف الآخر من السرير دون أن يكف عن التفكير بمقولة منار الأخيرة عن أن الوضع الأعوج الذي نعيش فيه أصبح مثل الإظفر الطويل الذي نعتاده لأنه ينمو ببطء ، أما اذا شاهدناه فجأة في كف شخص

آخر فنفزع منه ونشعر بالقرف . . . وهنا أذّن آذان الفجر ، فتاقت نفسه ، كما فعل في أيام البكالوريا قبل أعوام طويلة ، إلى الصلاة والدعاء إلى الله بالنظر إليه من علياء السماء والوقوف إلى جانبه على هذه الأرض الفانية . . ولكن الله المستوي على عرشه لا يقف مع كافر لا يصلي ولا يصوم ، أو مع غشاش منذ الطفولة لم يغمض عينيه قط في لعبة الغميضة ولم تبلعه الأفعى قط في لعبة الحية والدرج . . بل أن الله لينسى من نسيه ومستغن عن جميع السفلة من أمثاله الذين خلقهم ليعبدوه ولكنهم عبدوا أنفسهم وضلوا عن السراط المستقيم .

الفصل الثامن عشر

قيام جلوس

كيف لا يكون سافلاً وهو يحتفظ في بيته بالكتاب الحزبي ولا يحتفظ بالمصحف ولا بأي كتاب مقدس آخر؟ . . إنه لا يحفظ سورة واحدة من سور القرآن ، وللتو يعرف في وقت الشدة أن الله حق ولا أحد غيره يتوجه إليه ليخلصه من محنته التي ستهوي به إلى التهلكة في توقيت غريب من توقيتات صعوده سلم المجد الوظيفي . . .

لعل منار كانت سبباً فيما حدث له . . لعل لغوتها التي لا تنتهي ، هي ما جعلته يقرأ تلك المسرحية التي أجازها ، دون أن يتدارك ما فيها من ألغاز ورموز . . فماذا سيفعل الآن وقد ارتفع آذان الفجر في اللحظة التي فكر فيها بالتوجه إلى الله؟ . . هل سيدفع رشوة مفضوحة لله فينهض إلى المسجد لكي يصلي؟ . . وهل فعلاً كان يسمع آذان الفجر بعد التفكير بالتوجه إلى الله لإنقاذه من ورطته ، أم أن العكس هو الصحيح؟ . . أي أنه وخلال ثانية واحدة سمع الآذان أولاً ثم فكر بالتوبة النصوح بفارق ثانية واحدة بين الاثنين شبيه بالفارق بين . . ماذا؟ . ماذا؟ لم يعد يتذكر ما قالته منار حول ذلك . . .

إذا كانت تلك الأفكار كلها من تهويمات خياله المتعب من

طول السهر ، فإن تلك الآذان إشارة إلهية تخبره بالتوجه إلى صاحب الآذان ومالك السماوات والأرض وأن عليه أن يلبي النداء وينهض إلى الماء ويتوضأ ويصلى صلاة الفجر حاضراً لأول مرة في حياته . . .

ليس صدفة بالتأكيد ما حدث له غداة اليوم الذي استيقظ فيه ليصلي الفجر ، فقد مرت الليلة بسلام ولم يأته زوار الفجر ولا زوار الصباح ، إنما أشرق الصباح الخريفي الجميل وهو في أحسن حالاته . . شعر بالرغبة في الطعام فطق بيضتين ببعضهما البعض أكلهما مع رغيفين من الخبز الساخن ذابتا في فمه كالحلاوة مع الشاي والبيض المخبوط . . دخن بعدها ثلاث سكائر وليس سيكارتين كما اعتاد أن يفعل كل صباح . . . . وفجأة انقلب مزاجه رأساً على عقب وتشاءم من هذا الفطور الذي يشبه العشاء الأخير لشخص محكوم بالإعدام . . قال لنفسه إن هذه الوليمة الصباحية ليست إشارة إلهية لأول يوم من أيام شهر العسل ، وإنما هي تشبه السيكارة الأخيرة التي يدخنها الماضي إلى الموت قبل أن يلتفّ حول عنقه حبل المشنقة . عادت أفكاره السوداء تتلاعب به وخنطلت تعابير وجهه حتى شبع منها وكاد أن يتقيأ ، فقال كفى وهيا لأكنْ شجاعاً وأواجه مصيري بقلب ميت . في الغرفة الزجاجية وجد على المنضدة طبقاً من لغط أمناء المكتبة والرقباء والمصححين قدمته له منار قائلةً ثمة قرار بنقله ليكون رقيباً على خطباء الجوامع أيام الجمعة . . . .

شكراً يا رب . . شكراً يا ناصر المظلومين . . شكراً ، يا من أنجيتني من هاوية حياتي . . ولا بد أن ثمة علاقة وثيقة بين صلاة الفجر ودعاء المظلوم وبين ما يحدث الآن . هذه المرة الإشارة مؤكدة ، وعليه قراءتها جيداً ، فهو لم يُسجن أو يرسل إلى المقبرة ، ولكنه نقل من قسم رقابة المطبوعات إلى قسم رقابة الجوامع ، واذا كان البعض يعتبر ذلك عقوبة فإنه يراها إشارة ربانية تخبره بالبدء من جديد لكي يرسم الخط الشاقولي بموازاة نفسه ، ويرى ماذا يتبقى منه بعد استخراج الجذر التربيعي بشكل صحيح . . . يبدو أنه أخطأ المرة الأولى في الحساب عندما رمى باقي القسمة خلف ظهره ليجد أنْ ليس له ما يتبقى منه سوى أغنية (أنا وليلى) لكاظم الساهر ، بينما الحساب الصحيح يقول إن أيامه تمضي يأكل بعضُها بعضاً كالعفن ، فأين العمل الصالح؟ وأين الصدقة الجارية؟ وأين الولد الذي يدعو له؟ . . لا أحد يأتي ولا أحد يذهب ، وغودو هو تنبل من خزعبلات المجانين بينما العقلاء يصلون ويصومون ويؤدون الفرائض الخمس ، فلماذا لا يحذو حذوهم ويفي الله بما وعد وأغدق من وعود عند صلاة الفجر .

عندما جاء ليلملم أوراقه قبل الذهاب الى قسم كتابة التقارير عن الشيوخ وخطباء الجامع ، قالت له منار بهدوء غريب خال من السخرية :

– ولكن أتعرف كيفية الوضوء قبل أن تدخل إلى الجامع؟

– طبعاً أعرف الوضوء .

تخلت المجنونة فجأةً عن هدوئها وقالت :

– أتحداك أن تخبغني أين هي القبلة؟

– وما علاقة القبلة بالموضوع؟ . . عندما أدخل إلى الجامع سأفعل كما يفعل الجميع .

بعد مضي ساعة واحدة فقط اكتشف عبد الحليم أن لا حاجة به لمعرفة أين تكون القبلة ، ولا كيف يكون الوضوء؟ . . فحكاية نقله إلى قسم كتابة التقارير عن خطباء الجوامع كانت إشاعة لئيمة أطلقها مجهول قد يكون متواطئاً مع بدر . . إذ سرعان ما أرسلوا جلده للدباغ ونقلوه إلى مكان مظلم ودندلوا جسده من المروحة السقفية التي ظل معلقاً فيها تسعة أشهر حتى قامت الحرب وعبرت الدبابات جسر الجمهورية باتجاه نصب الحرية فهرب المجانين مع السجناء إلى الشوارع وقامت الدنيا ولم تقعد .

الفصل التاسع عشر

هنا لندن

رحمة الله عليك يا شهرزاد . . جميلة الجميلات التي ماتت من قهرها ، وهي ترى علم السيد صفي الدين الحلي يتحول إلى فانيلة بيضاء (بلا ردن) من فانيلات السيد سهام العبيدي المجاور لمحل السيد الحليب والمقابل لتمثال السيد أحمد حسن البكر . . . كانت تجلس في خيمة إرسالها الإذاعي ، قبل أن تموت ، وهي ترتدي أتك كريب ستن تحت صاية سوداء اللون ، أخاطته لها جارتها اليهودية راشيل منذ ستين عاماً عندما كانتا تستمعان إلى أغنية (انسى الدنيا وريّح بالك) للسيد محمد عبد الوهاب غناها في فلمه الجديد آنذاك (رصاصة في القلب) .

ولدت شهرزاد قبل دخول الراديو إلى بغداد عام ١٩٢٧ ، ولم تسمع به إلا وهي في العاشرة من العمر عندما قال والدها صبيح ، الذي زار بغداد للتدرب على قيادة القطار ، إنه سحر من الجن ، وقد اعتبره بعض رجال الدين حراماً يجب منعه من الدخول إلى البيوت . ولكن الطوفان وصل ودخل إلى البيوت . وما أن حل عام ١٩٣٦ حتى تم افتتاح إذاعة بغداد بأجهزة بث من شركة ماركوني . بغداد تدخل عصر الإذاعة أولاً . ثم شمل البث بغداد وبعض أطرافها بعد ثلاث سنوات . . فاستمع

الناس إلى صديقة الملاية وزهور حسين وعفيفة إسكندر يغنين في الراديو ، وقبل ذلك كان بعض البغداديين يستمعون إلى الأغاني إما مباشرة ، في حفلات المقاهي والحدائق ، أو من أسطوانات الفونوغراف .

كانت فيما مضى هي البي بي سي التي تزف لهم أخبار الوقائع السوداء والمرابع الخضراء والمواقع البيضاء والمواضي الحمراء . . تحتفل بالنكبات والانتصارات على حد سواء ، فالمهم أن تفتح الراديو وتجده يردد نشيد الله أكبر فوق رأس المعتدي ، فتعرف إن الرجال قد ثاروا وينبغي تحويل المؤشر إلى محطة البي . بي . سي . بعد النزول من السطح . . . من المرجح أنها ورثت عشقها للبي بي سي من أبيها صبيح سائق القطار . . ولكن نورية الدنغوزة التي كانت تكره الأجواء الباردة سألتها ذات يوم عن سر هذا العشق فقالت لها جدته شهرزاد وهي تطفىء سيكارتها في منفضة أسد بابل :

– المذيع الوفي هو السبب . . . إنه يجعلني أشعر إن أمه قد ولدته هناك لكي يذيع لا لكي يعض أصابع الندم .

– ماذا عن هوساتك مع الثوار فوق السطح .

– أغلق بابها وأفتح باب البي . بي . سي . عندما أريد النزول من السطح .

قال أبوه شعيط إنها يومَ احتفلت إسرائيل بعيد الغفران ، جاءتهم بنبأ تدمير خط بارليف الحصين في سيناء وخط آلون في الجولان ، معلنةً سقوط أسطورة الجيش الذي لا يقهر ، في

اليوم الذي عبرت فيه القوات المصرية قناة السويس مخترقة كل المواقع الحصينة والأسلاك الشائكة وأجهزة الإنذار المبكر والسواتر والدفاعات والخراسانات وحقول الألغام والخنادق المحصنة تحصيناً شديداً على القناة . في حرب يوم الغفران أو حرب تشرين المسماة بستة إكتوبر ، توغلت القوات المصرية عشرين كيلومتراً شرقي قناة السويس ، والقوات السورية في عمق هضبة الجولان المحتلة ، فأصبحت تتذكر ذلك السبت بفخر شديد قائلة إن الثانية ظهراً كان موعد الاتفاق العربي الوحيد على ذلك الهجوم المفاجئ الذي صعق الإسرائيليين والعالم بأسره . . تقول شهر زاد ما أجمل تلك الأيام التي اتفق فيها العرب على القتال فأرسلت أغلب الدول العربية فرقاً من جيوشها إلى الجبهتين المصرية والسورية ، بل إن السعودية وليبيا قد أعلنتا حظراً على صادراتهما النفطية لأمريكا مما أقام الدنيا ولم يقعدها إلا تحت خيمة داود المسماة بكامب ديفيد .

في تلك الأيام الخوالي التي وقفت فيها شهرزاد تلوح للمدرعات العراقية وهي تشق طريقها بين الورد والدموع إلى الجولان ، كادت أصابع الجنود أن تنفرج بالنصر الأكيد الذي انتظره كل العرب ، لولا أن اوقفت ثغرة الدفرسوار إطلاق النار في الرابع والعشرين من الشهر نفسه بين العرب مجتمعين وإسرائيل منفردة مرة أخيرة وإلى الأبد ، فيما عدا بضعة صواريخ سكود أطلقها صدام على إسرائيل في حرب الخليج وزغردت لها النسوة من سطوح معان والزرقاء ومؤتة جزماً منهن

بأنها ستحرر فلسطين .

منذ أن اقتنت الراديو في نهاية الأربعينيات وهي تفتح صباحها بعبارة (هنا لندن) ثم تقضي ساعة الصباح الأولى في غرفة الأخبار مع باكيت سكائر الجمهوري ، وشخاط الأمان أبو النجمات الثلاث ومنفضة من الزجاج المضبب المصبوب على شكل أسد بابل ، ثم بعد إعلان دقات ساعة بك بن السابعة صباحاً ، تضئ أمام غرفتها لافتة وهمية تقول (سكوت) . . ممنوع الزيارة أو الدخول ، فإذا تكلمت معي لن أكلمك وإذا سألتني لن أجيبك . . . . وكيف يمكن أن تجيبك إذا كانت تنصت لأمر يتعلق بسبعة جيوش عربية ، من اليمن والسعودية ومصر والأردن وسوريا والعراق ولبنان ، اشتركت في الحرب ضد عصابات الهاجاناه؟ ، أو بثلاثين جيشاً اشتركت بعاصفة الصحراء ضد العراق؟ ، أو بآلاف العسكر الذين شاركوا في عرائس الثورات في مصر والجزائر والعراق؟ . . . تلك أسماء كانت تذوب في فمها كعلكة الماء وتحفظها مثل حفظها للسُّوَر القصار التي تشفع بها سورة الفاتحة عند الصلاة . . أما مبادرات روجرز الثلاث أو رحلات المضروب هنري كسينجر المكوكية ، فكانت بالنسبة لها العتبات التي لا بد من صعودها للوقوف على الأسباب الحقيقية لوقف إطلاق النار ثم فك الاشتباك ثم اتفاقية السلام الشامل المعقودة تحت خيمة كامب ديفيد . .

أول خبر نقلتْه إليهم بعد اقتنائها لمذياعها هو اغتيال الكونت برنادوت ، أحد أفراد العائلة المالكة السويدية ورئيس

الصليب الأحمر السويدي ، الذي كان قد أصبح هدفاً للتصفية بعد عدة أحداث تاريخية بدأت في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٧ ، عندما اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بأغلبية الأصوات ، قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين واحدة يهودية وأخرى عربية ، مع تدويل القدس . . وقد قبل معظم اليهود هذا القرار في حين رفضه العرب في فلسطين والدول العربية واستعدوا لمحاربته بقوة السلاح ، وفي الخامس عشر من آذار عام ١٩٤٨ ، وحينما نشبت الحرب بين الدول العربية وإسرائيل بعد انسحاب القوات البريطانية من فلسطين ، أوفدت الأمم المتحدة الكونت برنادوت إلى فلسطين كوسيط دولي للتوصل إلى تسوية سلمية للنزاع بين الطرفين على أساس قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين ، فبدأ برنادوت مهمته ، خلال فترة توقف القتال ، بالتقدم إلى طرفي النزاع بمقترحاته حول التسوية السلمية ، واقترح إجراء بعض التعديلات على الحدود بين الدولتين العربية واليهودية كما يرسمها قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة ، ومن بين هذه التعديلات ضم منطقة النقب للدولة العربية وضم منطقة الجليل للدولة اليهودية ، كما اقترح إدخال القدس بأكملها ضمن الدولة العربية مع منح الطائفة اليهودية فيها استقلالاً ذاتياً للشؤون البلدية ، مؤكداً أن القدس يجب أن تظل تحت السيادة العربية . وفي يوم الجمعة السابع عشر من سبتمبر عام ١٩٤٨ وصل الكونت برنادوت ومساعده الفرنسي الكولونيل

بيير أندريه سيرو إلى مدينة القدس قادمين من سوريا بعد أن انتهيا من بعض الإجراءات المتصلة بمهمتهما في القدس حين اعترضت طريقهما سيارة جيب مكتظة بعدد من المسلحين اليهود وفتح ثلاثة منهم النار على الكونت وأردوه قتيلاً . .

وفي يوم آخر ليس بعيداً عن ذلك اليوم جاءتهم شهرزاد بنبأ مقتل المهاتما غاندي الذي قاتل الحرب بالسلام والتسامح فأرداه متعصب هندوسي قتيلاً وهو يؤدي صلاته مع جمهور المصلين . . . بعد ذلك قرر رئيس وزراء إيران محمد مصدق عام ١٩٥١ تأميم البترول الإيراني ثم صرح أن واجبنا تجاه البترول يفرض علينا حمايته للأجيال القادمة ، ولاقت أقواله وقراراته تأييداً جماهيرياً ، مما اضطر الشاه إلى الخروج من البلاد ، ففرضت شركة برتش بيتروليوم حصاراً اقتصادياً على البترول الإيراني بإلزامها شركات النفط العالمية بعدم شراء البترول الإيراني ، وخرجت مظاهرات معادية في حملة شعواء لإسقاط مصدق . ونجحت الخطة ، وتدهور الاقتصاد الإيراني ، واتُّهم مصدق بالتحول إلى المعسكر الاشتراكي ، مما دفعه إلى الاستقالة ودفع شركات نفط أميركية بريطانية كبرى سمّت نفسها «الأخوات السبع» لإدارة النفط بعد إلغاء قرار تأميم النفط الإيراني وعودة الشاه المضروب إلى سدة الحكم ، والذي حكم على مصدق بالإعدام .

كانت الستينيات هي سنوات عرائس الثورات في سوريا والعراق والسودان حضرتها شهرزاد جميعا وهي تزغرد ، كما

حضرت عرساً آخر هو عرس ماو الثقافي الذي انقلب على الحرس القديم لكي ينفرد بالحكم عبر عصابة الأربعة التي يساندها ملايين الشباب من الحرس الأحمر من الذين كادوا أن يقودوا البلاد الى شفا حرب أهلية لولا أن تم نفيهم أخيرا الى المزارع والحقول . . صرحت شهرزاد أن ذلك الانقلاب أباد ملايين الرؤوس قبل اكتشاف بطلانه ، كما كان مجانين الثورة العراقية قد أبادوا رؤوس الذين وصفتهم بيانات الثوار ، بالخونة والعملاء . . . وحين لم تقتنع بهذه المجزرة ، كانت تضع شهرزاد إبهام يدها اليمنى على صدغها والسيكارة بين أصابع اليد نفسها ، وهي تقول إن معنى الخيانة ينطبق أيضاً على تلك الانقلابات التي قام بها ضباط عملوا تحت رعاية وحماية من انقلبوا عليهم . . .

هذا لم يمنعها من الزهو بالثورة والثوار ، ولم يكن ممكناً أن يمحو من بالها أول نداء وجهه المجاهدون الجزائريون في القيادة العامة لجبهة التحرير الوطنية إلى الشعب الجزائري في الأول من نوفمبر من العام ١٩٥٤ معلنين ساعة الصفر للتحرر من الإستعمار ، أو أول بيان أذاعه مجلس قيادة الثورة في مصر في الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ معلناً ساعة انتهاء حكم الملوك في أرض مصر . . . وعندما شهد عام ١٩٥٦ الحدث الأكثر تأثيرا في التاريخ العربي المعاصر ، وهو أزمة السويس التي بدأت بقرار الزعيم المصري جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس لاستكمال العمل في مشروع السد العالي ، لم تر

شهرزاد مبرراً لبريطانيا العظمى للانضمام إلي إسرائيل في الهجوم على مصر في أواخر عام ١٩٥٦ وأيدتها البي . بي . سي في ذلك ، بينما لاقى ضغط الرئيس الأمريكي آيزنهاور بعكس هذا الاتجاه ترحيب شهرزاد وامتنانها لأمريكا وحنقها على فرنسا وبريطانيا العظمى . أملها خاب بعد ذلك عندما أعلن الرئيس الأمريكي جون كنيدي عام ١٩٦٢ ، إثر اجتماعه بغولدا مائير وزيرة الخارجية الإسرائيلية ، أن أمريكا تعتبر إسرائيل حليفتها في الشرق الأوسط ، ومن ثم تبع ذلك تزويد إسرائيل بالسلاح . . . . . في مثل ذلك اليوم التاريخي من عام ١٩٦٢ كان إبنها شعيط يستمع الى إذاعة صوت العرب وهي تذيع في نشرة الأخبار خبرها الأول الذي يقول إن الجيش اليمني تحرك صباح اليوم وحاصرت دباباته قصر البشائر في صنعاء وسيطر الثوار على دار الإذاعة اليمنية ، وأعلن بيان الثورة الأول سقوط النظام الإمامي الحاكم وتشكيل مجلس الثورة بقيادة العقيد عبدالله السلال ، فصعدت شهرزاد إلى السطح وزغردت بفرح شديد . . ثم علت زغاريدها عندما علمت أنه توجد في اليمن دبابات . . ما أمتع ما كانت تشعر به من زهو وإثارة وحماس لدى نزولها من السطح وسماعها البي بي سي تؤكد مثل تلك الأخبار المثيرة عن الدبابات .

لم تكن شهرزاد قد رأت غاندي عارياً ولا الدالاي لاما حافياً ولا إيدن مستقيلاً أو نيل ارمسترونغ هابطاً على سطح القمر ، بيد أنها كانت تعتقد أن صوت مذيع البي بي سي

يجعلها تتخيل ذلك بطريقة لا تفهمها سوى أنها تشبه الحلم . . فتخيلتْ هبوط مركبة الفضاء أبوللو ١١ على سطح القمر عام ١٩٦٩ . كما تخيلت محاولات الهاربين بالمناطيد فوق الجدار الذي اخترق برلين مسافة ثلاثة وأربعين كيلومتراً ليشطرها إلى شرقية وغربية . . . بل إنها تدربت على علامة النصر التي اخترعها ونستون تشرتشل بعد الانتصار على النازية في الحرب العالمية الثانية ، لحين جاء وقتها ولوحت بها للدبابات العراقية المغادرة إلى دمشق في مرورها المثير للعواطف من الشارع العام الذي حوّل دقات قلبها إلى ضربات شبيهة بدقات الطبول . . كانت هي تلك الأيام التي أصبحت تسأل فيها عن أسعار النفط كل يوم بدلاً من أسعار الخيار والطماطم ، فقد هدد العرب على مدى العقود الماضية بحظرٍ نفطي على الغرب كوسيلة لحل القضية الفلسطينية ، ولكنهم لم يضعوا ذلك التهديد موضع التنفيذ إلا عقب حرب تشرين ١٩٧٣ ، عندما لم يفلح الجيشان السوري والمصري في استعادة المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، فظهرت فكرة استعمال سلاح النفط كبديل للمعركة .

عرفتْ أن الشركات النفطية تشتري برميل النفط بدولار واحد من إيران وتبيعه في نيويورك بأربعة عشر دولاراً . . هذا غير معقول . . حسناً فعل ، إذن ، معمر القذافي بإشعال الشرارة الأولى التي غيرت مجريات الأمور ، ثورة ليبيا في عام ١٩٦٩ التي وضعت حداً لسيطرة شركات النفط في عهد الملك إدريس

السنوسي ، ولأول مرة استطاع قطر عربي رفع سعر النفط خمسين سنتاً . واجتمعت منظمة الأوبك في شباط ١٩٧١ في طهران ، ورفعت الأسعار بنسبة ٣٥٪ للنفط الذي لم يستعمله العرب كسلاح ولم يضعوا التهديد به موضع التنفيذ حتّى خلال حرب حزيران ١٩٦٧ .

كانت شهرزاد تنقل أحداث تلك الحرب بدقة وسرعة في عصر لم تكن فيه الإمكانات التقنية متطورة . . إنها أول من علم بالعدوان الثلاثي على مصر وأول من أذاع خبر دمار الطائرات المصرية على مدارج المطارات . أما المرة الاولى التي استمعت فيها إلى خبر انسحاب الجيش المصري من سيناء ، فكانت من إذاعة بي بي سي التي كان يتم التشويش عليها في ذلك الوقت ، إلا أن شهرزاد كانت تواصل نقلها للأخبار ، حتى بعد أن انتهت المعارك على الأرض بسقوط سيناء المصرية والجولان السورية وقطاع غزة والضفة الغربية بما فيها القدس ، بل إنها تابعت النقاشات السياسية والدولية في أروقة الأمم المتحدة ، فكانت أول من شرحت مشكلة (أل) التعريف ، عندما أصدر مجلس الأمن في ٢٢ تشرين الثاني من ذات العام قراره الشهير رقم ٢٤٢ الذي استند إلى مشروع قرار تقدمت به بريطانيا وبتوافق تم بين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جونسون ورئيس الوزراء السوفييتي ألكسي كوسيغين في مدينة غلاسبو بالولايات المتحدة . أخذت سوريا والعراق والجزائر ، وكذلك المنظمات الفلسطينية ، على القرار المذكور أنه بدلاً من

مطالبة إسرائيل غير المشروطة بالانسحاب فإنه أعطاها بعض الامتيازات ، كما تجاهل سبب الصراع الدائر في المنطقة أي القضية الفلسطينية ، واختزلها إلى «تسوية مشكلة اللاجئين» ، بل نزع إلى الغبن لتضمنه في واحد من بنوده الأربعة ما ينص على أن إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط يستوجب : «سحب القوات الإسرائيلية المسلحة من أراضٍ احتُلّت في النزاع الأخير» ، أي بحذف أداة التعريف (ال) من النص الإنكليزي» . وبرغم إبقاء كل من النصين الفرنسي والأسباني على أداة التعريف ، فقد أصرّت إسرائيل على أن النص الإنكليزي ، والذي لا يطالبها بالانسحاب من كافة الأراضي العربية المحتلة ، هو الأساس . حزنها الشديد من غياب (أل) التعريف لم يمنعها من الابتهاج بـ(اللاءات الثلاثة) التي جاء بها مؤتمر القمة العربي الرابع المنعقد بعد نكسة حزيران في الخرطوم ما بين ٢٩ آب و٢ أيلول ١٩٦٧ . . (لا صلح ، لا تفاوض ، لا اعتراف) . فيا أهلاً بالمعارك . . . ومرحبا بالنصر الذي سيأتي فوق ظهور الدبابات وطائرات الميراج . ولم تصبها الجلطة حينذاك إلا لأن أم كلثوم كانت تغني : . . . أصبح عندي الآن بندقية . . الى فلسطين خذوني معكم . . إلى رُبَى حزينة كوجه المجدلية . . . .

فيروز غنت أيضاً : سنرجع يوماً إلى حيِّنا . . سنرجع خبرنا العندليب غداة ألتقينا على منحنى ، غداً سنرجع هيا بنا ، فما حاجتها إلى حبوب الضغط أو ورد لسان الثور وقد أصبح عند

العرب بندقية نزار قباني وتأكيدات العندليب وتلويحة جمال عبد الناصر الذي يقفز له قلبها من الفرح .

في السبعينيات ، بعد أن غاب ذلك الرجل عن الدنيا ، إثر قمة خارجة تواً من أيلول أسود ، كانت قد عادت من بغداد إلى كركوك ونصبت سرادق العزاء أمام بيت ابنها شعيط المطل على نهر الزاب الصغير قريباً من آلتون كوبري وشعلة بابا كركر . . . تناطحت بعد ذلك القمم من عمان إلى بيروت دون أن تستطيع إخراج الجميع من مستنقعات الدم . . ومَن لم يمت بالسيف مات بغيره . . تعدد الأسباب والموت واحد . . عبد الناصر مات . . وأم كلثوم ماتت . . وعبد الحليم حافظ مات . . والمضروب القذافي انشغل بتغيير أسماء شهور السنة الميلادية إلى أسماء عربية فزادً التسميات بدلاً من أن تتوحد . . وحدثت انقلابات بيضاء هنا وهناك ، وولدت الأُسود أشبالاً حصل بعضها على الدكتوراه في مجال الديموقراطية ونقد الاستبداد . وفي عام ١٩٧٨ ، عندما هرب ذكر الكركدن من حديقة الحيوان في الزوراء ببغداد ومات قتيلاً في الشوارع التي فزعت من رؤيته ، زار السادات إسرائيل مبلغاً إياها رسالة السلام . . ثم قتل في حادث المنصة الذي قلب الاحتفال بالذكرى الثامنة للسادس من اكتوبر ، عام ١٩٨١ إلى مأتم آخر ، ليس بالنسبة لشهرزاد التي صعدت إلى السطح وزغردت مرة أخرى وقالت إن السبعينيات قد انتهت بعيد بعد أن كانت قد بدأت بمأتم . .

جلست على طاولة ترسيم الحدود عندما قبل العراق في اتفاقية الجزائر بفكرة اقتسام مياه شط العرب بين العراق وإيران . . شرحت لهم معنى خط التالوك في عام ١٩٧٧ وقالت لهم إن هذا الخط هو الذي أدى إلى انهيار الحركة الكردية المسلحة بعد توقف الدعم الإيراني لها مقابل اقتسام شط العرب . في يوم ٣٠ مارس ١٩٧٧ خرجت الأمهات الأرجنتينيات في مظاهرة صامتة يحملن لافتات تحمل تساؤلا واحدا : أين أبناؤنا؟ . لم تنقل الصحافة الأرجنتينية خبراً واحداً عن المظاهرة ، وهل تستطيع الصحافة أن تتحدى اليد الفولاذية للجنرال الذي أطاح بحكم الرئيسة ايزابيل بيرون؟ . . في الأسبوع التالي كان للبي بي سي موعد آخر مع الأمهات اللاتي قررن أن يتقابلن مرة كل أسبوع في ساحة مايو في بونيس آيريس ، زاد عددهن واستمر في التزايد البطيء أسبوعاً بعد أسبوع . وطرزن اسماء ابنائهن على الأقمطة البيضاء ليحفظنهم أحياء في الأذهان . لم يعد ممكناً تجاهل الأمر ، وعندما وصل الأمر إلى الجنرال آرغيدنغي صاحب القبضة الفولاذية ، سخر من الخبر وتعجب كيف تقوم أمهات ضعيفات بمثل هذا التحدي الذي عجز عنه الرجال ، بعد أن أسكت المقاومة وأخرس المعارضة؟ ، وكانت ردة فعله التي نقلتها عنه الأخبار هي وصفهن بأنهن أمهات مجنونات! . . بقيت شهرزاد تتابع أخبارهن مع ذلك المجنون عدة سنوات ، ثم سرعان ما نسيت أمرهن بعد أن كثر المجانين وكر الموت زرافات وراحت

تعلك أخبار المَصارع على الجبهات الإيرانية كما لو كانت تعد ما تبقى من دجاج في خزين المجمدة . لم يذهب إلى الحرب أحد من أحفادها الوارثين من جدهم ممتاز أثمن ما في جعبته من إرث : رجل مسطحة . . .

كانت شهرزاد ترى لافتات الشهداء تتسلق الشوارع وواجهات البيوت تاركة خلفها فراغات سرعان ما تملؤها سيارات يابانية بيضاء أو برازيلية حمراء اللون ، بينما أصحاب الأقدام المسطحة لم يستطيعوا الظفر بسيارة نصر مصرية المنشأ . . . . وعندما دخل وخرج صدام من الكويت في مطلع التسعينيات وصفت لهم شهرزاد شارع الموت الذي أوقف المضروب بوش بسببه الحرب بعد خراب البصرة . تخيلت ذلك الشارع كما لو كانت تراه من طائرة حربية . . تحيط به الأشلاء المقطوعة والسيارت المحترقة . . في تلك الحرب التي عرفت بحرب تحرير الكويت ، وقامت في أعقاب اجتياح الجيش العراقي للكويت في الثاني من آب ، كانت جدته تتابع الموقف لحظة بلحظة مع مراسليها داخل الكويت وخارجه ، مثلما كانت تتابع معارك العرب الكبرى من البي بي سي أولاً بأول .

أحياناً كانت تشارك ابنها شعيط في الاستماع إلى إذاعة صوت العرب ، مصدقاً النصر الذي أعلنه المضروب أحمد سعيد وهو يصرخ «سنلقي بهم فى البحر» معيداً هذا النداء مرات عدة وهو يؤكد اسقاط ثلاثين ثم أربعين ثم سبعين طائرة إسرائيلية ، بينما كانت البي بي سي تذيع خبر تدمير الطائرات

الإسرائيلية للطائرات المصرية وهي على مدارج المطارات . بعد ذلك اليوم بربع قرن كان المضروب محمد سعيد هذه المرة هو الذي الذي يبشّر بانتحار أمريكا على أسوار بغداد ، قائلاً إن الأفعى التي وصلت بغداد من أم قصر سيقطع رأسها في بغداد .

شهرزاد التي لم تقهرها (نكبة فلسطين) ولا (نكسة حزيران) ولا (أم المعارك) ماتت مهزومة بالقهر بعد شهور من نهاية (أم الحواسم) . . أصابتها الجلطة القلبية بعد دقائق من خاتمة ندوة أقامتها البي بي سي مع مجموعة من النقاد التشكيليين عن جماليات العلم العراقي الجديد الذي تحولت ألوانه الزاهية من الحمراء والخضراء والسوداء إلى بيضاء باهتة يقطعها خطان زرقاوان كتلك الخطين اللذين يقطعان العلم الإسرائيلي . . لو كانت مضغة قلبها قد انتظرت حتى نهاية الندوة لعرفت أن أغلب من شارك فيها من التشكيليين لم يستسغ ذلك الطعم الماسخ للعلم الجديد ، وأن علم صفي الدين الحلي بقي يرفرف فوق سطح بيتها طويلاً ، وإنْ كان فارغا من النجمات الثلاث . لم يكن شريط حياتها هو آخر ما مر بها في لحظاتها الأخيرة ، ولكن الذي فكرت فيه ، حسب ما سمع أهلها من هلوساتها ، هو كلمات مبتورة عن حزب الله وحركة حماس وكتائب عز الدين القسام وشبيبة خالد بكتاش وهضبة الجولان ونكسة حزيران وقمة عدم الانحياز في بلغراد وأول قمة عربية في انشاص . . كما عثروا تحت مخدتها على وَرْوَرْ

إنكليزي من نوع أبو البكرة الذي يُكسر ، لدى تعميره بست رصاصات ، إلى نصفين ، رجحوا أنه للانتحار لولا أنْ داهمتْها الجلطة القلبية . . وذلك كان مجرد تخمين في تخمين اتفق عليه جميع أولادها وأحفادها ، ولكنهم اختلفوا لماذا كانت ترتدي سبعة اثواب بعضها فوق بعض وهي على فراش الموت؟ . . لماذا؟ لماذا؟ فعلاً لماذا؟ . . قال حفيدها نصر إنه من أجل سهولة تغيير ملابسها المتسخة من الخارج فقط ، وقال حفيدها تعداد إنها من أجل الحفاظ على الدفء والسخونة في جسمها ، وقال حفيدها عبد الحليم إنها تدل على خوفها من الأقمار الصناعية أن تخترق الملابس وترى جسمها العاري .

لم تشكُ شهرزاد حزنها لأحد ، ولا كانت تشعر بالشماتة إذا انتقم القدر العادل من أحد الذين ألحقوا الأذى بآمال أمتها العربية كالطيّار الذي شارك بمهمة قصف المفاعل النووي العراقي ، والذي قتل حين تحطم المكوك الفضائي (كولومبيا) ، وشارون قاتل الفلسطينيين الذي دخل في غيبوبة لا تنتهي ، وأوزال صديق مجرمي الحرب الذي أصابه مرض عضال ، وغوربتشوف بائع الوطن والشرف الذي أزاحه يلتسن ، وتاتشر التي انتفض عليها حزبها فاستقالت قبل الحرب التي صفقت تبنها مع بوش بشهرين . . مضروبة . . أصبح لديها الوقت الكافي لزيارة رفيقها في الدرب أوغستو بينوشيه الذي كان قد اقتحم ورجاله القصر الرئاسي في العام ١٩٧٣ فقتلوا أللليندي وأعلنوا أنفسهم المجلس العسكري الحاكم . . أما عندما تهاوى

مركز التجارة العالمي إلى الأرض وذاب كحلوى الشكرلة في الحادي عشر من سيتمير ٢٠٠١ ، فقد ضربت ستاراً حديدياً حول نفسها وغابت في الصمت خوفاً من أن تراها الأقمار الصناعية التي تحوم في السماء .

لم ينتقم القدر العادل من البرادعي ولا من إكيوس ولا من بوش أو بلير أو بريمر ، لكنها اغرقت فوطتها بالبصاق على الأول وهي تسمعه من البي بي سي يقول : «كان ينبغي قبل حرب العراق أن أصرخ وأصيح ، بصوت أقوى وأعلى ، لمنع أناس من إساءة استغلال المعلومات التي قدّمناها» . . مضروب لماذا لم تصرخ إذن بدلاً من أن تمتمت؟ .

كعادة النساء اللواتي لا يُرزقن الذكور ، فقد أعطت شهرزاد أسماء بشعة لتوأمها الثلاثي الذي ولد بعد نصف درزن بنات . . كانت أسماء الذكور ، وهي شعيط ومعيط وجرار الخيط ، تتناقض بشكل صارخ مع الأسماء المبتكرة لأحفادها وحفيداتها الذين كان من محاسن الصدف أن يكون عددهم اثنين وعشرين مطابقاً لعدد الدول العربية . . أسماء تختارها بعناية فائقة لتتناغم مع معارك وأزمات الوطن العربي المصيرية فحملوا ، ابتداء من العام ٦٧ فما فوق ، أسماء منفعلة مع الأحداث المتعاقبة التي تمخض عنها تاريخ العرب المعاصر : سلامة ثم نكسة ثم كرامة ثم ثورة ثم بيان ثم أوبك ثم تشرين ثم تأميم ثم تحرير ثم سيناء ثم جولان ثم لبنان ثم جزائر ثم حرب ثم تعداد ثم نصر ثم حصار ثم عدوان ثم بغداد ثم

غزة . . . ثم الحفيدة التي حملت اسم كفى ، وكانت تحمل الرقم ٢١ في شجرة الأحفاد والحفيدات . كما أطلقت اسم انفصال على واحدة من بنات خواصها من الحرس القديم عندما جاءها خبر المخاض وهي تستمع إلى خطاب ألقاه جمال عبد الناصر في الخامس من تشرين الأول عام ١٩٦١ بعد انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة . أما عبد الحليم فقد أطلقت عليه هذا الأسم في فاصل من الزمن الجميل عادت فيه للسير في اتجاه السينمات فذهبت لمشاهدة فيلم من أفلام عبد الحليم حافظ يحتوي على خمسين قبلة وقبلة . كان اسمه (أبي فوق الشجرة) عرضته سينما النصر القريبة من مختبر الرافدين لفحص البول والدم . . .

لم تشغل بالها بمصائر موسى الصدر والمهدي بن بركة . . كما لم تكن لتعلم بإعدام الأخواني المصري سيد قطب عام ١٩٦٦ ، لولا أن حدثها فلاّح الحديقة المصري بسيوني قائلاً بأنه في نفس العام الذي أُعدم فيه قطب ، هجمت دودةُ القطن على المحصول بضراوة لم يرَوْها من قبل فأتلفته ، وكانت الديدان تمشي على الأرض عياناً جهاراً ، ولم تفلح معها مقاومة أو مبيدات ، وكان أمراً عجباً .

لم تدخل إلى حروب الجمهورية اليوغسلافية وجمهوريات الاتحاد السوفيتي في التسعينيات ، ولم تثر اهتمامها قط اسماء كالبوسنة والهرسك وكرواتيا والبان كوسوفو . . كانت تعرف فقط أن تيتو ، وكان زعيم المقاومة ضد النازيين وحلفائهم

الكرواتيين في البلقان خلال الحرب العالمية الثانية ، قد ترأس الاتحاد اليوغوسلافي منذ نهاية الحرب حتى وفاته عام ١٩٨٠ . . وقد أعلن القطيعة مع ستالين نهاية الاربعينيات وأصبح من مؤسسي حركة عدم الانحياز مع عبد الناصر وحليفه الآخر الذي زار بغداد فهتف له العراقيون سوكارنو . . أهلاً بيك ببسي وكوكا تحييك . . . أخبرها شعيط بأنه ، بعد عشر سنوات من وفاة تيتو ، أدت النزاعات ، التي غذتها سياسة أمريكا في التقسيم الطائفي ، إلى مقتل أكثر من مئة الف شخص وتفكك جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية مع استقلال البوسنة والهرسك وكرواتيا ومقدونيا ومونتينغرو وصربيا وسلوفينيا ، وأدى هذا الحال إلى سقوط نظام الديكتاتور الروماني نيقولاي شاوشيسكو وإعدامه مع زوجته عام ١٩٨٩ فى ظل مد التحرر من الأنظمة الشيوعية الذي اجتاح أوروبا الشرقية ، وبلوغه الذروة بسقوط جدار برلين فى نفس العام . . يا خسارة نقرة السلمان يا معيط . . علام سقتَ نفسك إلى قطار الموت ثم إلى نقرة السلمان ثم إلى كمب أبناء الخايبة في تلفات الدنيا؟ .

لم تعد تهتم كثيراً لغير مصائب بلادها ، فقد تفاقم عليها داء السكر أيام الحصار وانشغلت بتحويل ستائر بيتها إلى تنورات ، وبطانياته إلى معاطف . . كل يوم تقسم بأغلظ الأيمان بأنها لن تفتح المذياع وتسمع خبراً من أخبار العرب بعد اليوم ، كما وأخبرت وصديقاتها الثلاث فتحية ونورية وشكشوكة بأنها

ستنسى الدنيا وتريح بالها كما قال وغنى مُحمد عبد الوهاب في فلمه رصاصة في القلب ، ولكن ما أن يدق الباب كنّاس الشوارع حتى تهرع إليه وتسأله عن أخر الأخبار . . اتضح لها أن الذي فيها لا يخليها وأنها كانت تبحث عن هدير الدبابات وأزيز الصواريخ في أخبار البي بي سي . . كانت تشعر بالمتعة الخفية عند لعلعة الرصاص وانطلاق الدبابات وتنكّب جميع أشكال السلاح . . . وفرحت فرحاً كبيراً عندما وجدت أحد المحللين في أخبار البي بي سي يؤيد نظريتها عن (شغل الليل) ويقول إن العرب يمتلكون سلاحا فتاكاً يمكنهم به مواجهة القنبلة النووية لليهود ألا وهو القنبلة المنوية . دعت شهرزاد (أبو خيمة الزرقة) أن يوفقهم جميعاً من أجل مزيد من الآباء والأبناء الذين يعشقون اختصار أسماءهم الى كلمات جميلة كأبو ياسر وأبو نضال وأبو مازن . . . . وبعد أن سمعت من البي بي سي خبراً يقول إن صدام أرسل أسلحته بعد الهجوم الأمريكي ، في سفينة تدور في المحيط الهندي وبحر العرب . . نظرت شهرزاد إلى خيط دخان سيكارتها المتصاعد إلى أعلى وتخيلت تلك السفينة تمخر في أمواج ذلك البحر الذي تسمع به أول مرة ، ثم تمنت تلك اللحظة أن تتحول إلى سمكة تسبح بين الأمواج حول تلك السفينة التي أغرقها هياج البحر لتتنزه مع الحيتان وشياطين البحر . . بين خرائب الدبابات وأطلال الصواريخ

الفصل العشرون

بدروسازوكي

«كلما أسأل نفسي لا أجد جواباً ولا أعرف من هذا الذي سأل ولا هذا الذي لا يجد جواباً . ربما نسيت أو ربما أنني نسيت أنني نسيت . . إنني هادئ ، أراني جالساً هناك في بدر ، في ظلمته ، في المكان الذي لا يمكن ان أسحب نفسي أو أحركها أو لا أعرف أنني أردت أو رفضت أو أحببت أو كرهت . إنني هناك فقط من دون عاطفة ولا كيان . . هل هذا مخيف؟ أعرف إنه مخيف ، إلا إنني لا أستطيع أن أحدد» .

تلك كانت أول رسالة افتتحت عهد الإيميلات في حياة منار ، وكانت من بدر الذي طار إلى تلفات الدنيا قبل الحرب بأشهر . وعندما حط ذلك الإيميل في بريدها الإلكتروني نقلت في دفترها الخامس مقطعه الختامي الذي يقول : « . . احتراماتي . . الخُضرة هنا هي الأجمل وليس الظلام هو الأجمل . . لقد ركبت البحر الأزرق المغطى بالزبد الأبيض . . البحر الذي ركبه سندباد في ألف ليلة وليلة ، وأوليس في الأوديسة ، وسنتياغو في الشيخ والبحر . . وتحدثت مع البحر حتى وصلت بلاد النور لأجده نوراً بلا شمس . . لا تقولي إن بدراً يهذي بين تلال الثلوج . . ولكنه يتحول من بدر إلى بدر آخر ، ويذهب أبعد مما يعرفه حيوان أو إنسان ، أبعد على نحو

متر ، متر في الظلام والأسى وانعدام الأمل واللامبالاة ، أبعد على نحو لا يمكن إنقاذه ، أبعد وهو يدري أنه نادم على كل شيء أمتلكه . . خجلان من كل شيء اقتناه . . رحل إلى مكان مليء بالنجوم والأقمار والمطر ، ولكن سيراه هو الآخر بلا نجوم أو أقمار أو مطر . . لم يكن رجل الغموض والأسرار كما كان يظن عبد الحليم ، بل كان الباحث عن طريق الفناء الشريف . . . كان رجل الرحيل الدائم والغياب التام الذي يقول إذا أردت أن تكون سعيدا ينبغي أن يكون لديك اكتفاء ذاتي . . . .»

منار تقرأ رسالته وعيناها مغرورقتان بالدموع ، فقد أصبحت وحدها في الغرفة الزجاجية التي خلت من الساكن والجار ، فذهب الأول إلى السجن والثاني إلى طريق المنافي . . ماذا كانا سيفعلان لو أنهما الآن معها في نفس المكان؟ . . كانا سيضيفان إلى وجودهما شخصاً آخر هو نفسها التي اختفت وتاهت منذ أن تركاها وحيدة في الغرفة . . وحيدة إلا من جدار قصاصاتها الذي أضافت إليه مقالاً صالحاً لكاتب صالح يقول فيه «إن الصراع الداخلي مع الذات لا يقل خطراً عن الحروب بين الجيوش كما يقول رامبو . حرب الداخل أخطر من حرب الخارج ، لأن العدو يصبح منك وفيك . وبودلير عاش هذا الصراع المحتدم ومشى به إلى نهاياته . هل كان بودلير شيزوفرينياً يعاني من انفصام الشخصية؟ بالطبع ، كمعظم الكتّاب الكبار . كل عُقَد الأرض موجودة فيه ، وعن هذا

الصراع المرير والشرس نتجت قصائده العبقرية في «أزهار الشر» ، يكفي أن نفتح هذا الديوان على أي صفحة لكي نجد آثار هذه المعركة أو أشلاءها بادية للعيان :

سوف أضربك بدون غضب

وبدون حقد ، كجزار

كموسى يضرب صخرته!»

ها هي تعود إلى مقال صالح لكل مقام وزمان يتحدث عمن يعيشون غربتهم في المكان ولا ينفكّون منها إلا بطريق بدر . . طريق الفناء الشريف . . علقتْ رسالة بدر قريباً من ذلك الاقتباس ، وبقربه جارهما الطيب جان بول سارتر وهو يقول إن اللا اختيار اختيار أيضاً .

بعد الحرب جاءتها رسالة غريبة أخرى من بدر تتحدث عن ياباني ظريف اسمه سازوكي تعرف عليه بدر أيام السبعينيات في المدرسة العالمية لدراسة اللغات في لندن ، عندما كانا يدرسان اللغة الإنجليزية في صف واحد تقوده المسز روبنسون ويضم عشرين طالباً من مختلف الأعراق والجنسيات ، منهم الهولندي والتركي والعربي أو القادم من (شمرة عصا) من مدينة باريس ، أو من (تلفات الدنيا) من مدينة طوكيو . كتب بدر يقول إن سازوكي ككل اليابانيين له (أكسنت) ظريف في التحدث باللغة الإنجليزية فيلفظ اللام راءً . . . وأحياناً كنا نشاكسه حول اسمه ونقول له إنه اسم لشخصية كارتونية يحبها الأطفال في العراق ، فيقول إن هذا الاسم الشائع في

اليابان يستخدم للإناث والذكور معا ، وإن الفتاة التي يحبها أيضاً اسمها سازوكي مع فرق بسيط في لفظ الحرف الأخير بحيث يصبح الاسم سازوكا وليس سازوكي . وكانت براءة اليابانيين المطبوعة على وجهه تضفي على تعليقاته المستمرة مزيداً من خفة الدم ، وعلى جو الدرس مزيداً من المرح والحيوية ، وبالتأكيد فقد كان لبدر ، صديقه الأقرب من باقي الطلاب ، حصة الأسد من تلك التعليقات ، فكان لا يدع كلمة يقولها أو حركة يأتي بها إلا ويقهقه لها عالياً وهو يتقافز كالأطفال من شدة المرح .

اقتربت أيام الدراسة من الانتهاء ، وجاء أوان الوداع ، فجعل سازوكي بدراً يقسم على عهد بينهما على أن يظلا يتبادلان الرسائل وألاّ ينقطع أحدهما أبداً عن الاتصال بالآخر ، وإنْ حدث وانقطع هذا الاتصال لأي سبب من الأسباب ، فإن عليهما أن يتصلا ببعضهما بعد ثلاثين عاماً من يوم محدد هو آخر يوم سيلتقيان فيه .

خلال تلك السنين الثلاثين لم ينقطع ساوزكي عن إرسال الصور إلى بدر ، تلك التي كان يأخذها معه في السفرات الجامعية التي كان يقوم بها المعهد إلى ضواحي لندن ومتاحفها الشهيرة . فاليابانيون مغرمون بالتصوير ومنظرهم والكاميرات في اعناقهم مألوف في الحياة كما هو في السينما ، لذلك لم يكن يمضي شهر أو شهران حتى يفاجئ سازوكي بدراً بصورة جديدة كان قد أخذها معه ، في بيت شكسبير في ستراتفورد ، أو في

متحف مدام تيسوت في لندن ، أو في حدائق الستروبيري في توركي ، أو في حديقة الحيوان في بريستول ، أو على شواطئ البحر في دولش . وكان بدر يبادل سازوكي الرسائل والمكالمات الهاتفية التي تلخص آخر أخباره مشفوعة أحياناً بأحدث الصور وأحياناً أخرى بأقدم الذكريات . قال في إيميله إنه كان يشعر بالامتنان لهذا الوفاء الياباني المنقطع النظير حتى جاءت الحرب فانقطعت أخبار سازوكي ولم تعد الاتصالات موجودة في البلاد وتحولت البدالات إلى رماد والحياة إلى خراب ، ولأنه سافر إلى لندن قبل تلك الأحداث والمصائب التي نقلت أهله من محنة إلى محنة ومن بيت إلى آخر ، فقد كان سازوكي عندما يحاول الاتصال للاطمئنان على نجاته من تلك الحرب المهولة ، لا يجد من يرد عليه ، بل لا يتمكن ، كما أخبره فيما بعد ، حتى من إتمام المكالمة ، لأن الأرقام أصبحت خاطئة أو غير موجودة . بدر أيضاً لم يغب عن باله قط البر بالقسم الذي تعاهدا عليه في آخر يوم من أيام المعهد قبل ثلاثين سنة . فلما جاء اليوم المحدد كان بدر هو المتصل بسازوكي في اليابان ومن لندن هذه المرة ، إذ توقع بأن رقماً أرضياً في طوكيو لا يمكن أن يكون قد تغير . «ولا تتخيلي يا منار فرحة سازوكي عندما سمع صوتي مرة أخرى في الهاتف» . . . وطبيعي أن يكون أول سؤال يسأله :

– بدر؟ هل أنت حي؟

قال بدر :

– نعم . . ولكن . . . . .

قال سازوكي :

– ولكن ماذا؟

قال بدر :

– أخي مات . . وابنة أخي ماتت . . وصديقي مات . . وزوجته ماتت ، وتبعثرت إلى أشلاء في انفجار ، وابن خالتي فجّر نفسه ومات . . وأمه ماتت حزناً عليه . . وأخوها قُتل في انفجار وابنته أردته رصاصة في القلب . . . . عفواً أقصد في الرأس . . وأعز أصدقائي قتلته سيارة مفخخة وابنه مخطوف لحد الآن . . وأخوه وجدوه جثة مقطوعة الرأس في الطب العدلي . . وجارنا الموسيقي فتحت عليه النار همر أمركية فمات هو وزوجته وطفلته الرضيعة . . ومحمد مات .

هنا قاطعه سازوكي وقال :

– من محمد؟

قال بدر :

– هناك محمد في العاشرة قتلوه على طريق عمان . . وهناك محمد أخو زوجة أخي مات في انفجار ساحة الخلاني . . وهناك محمد زوج زميلتي تفحم على جسر الجادرية ، لأنه كان يسير خلف سيارة مفخخة .

صمت بدر قليلاً ثم قال :

– وأبو عمر مات . . وأبو حيدر مات .

يبدو ان الأسماء كانت تستوقف سازوكي وتدعوه إلى السؤال :

– من هو أبو حيدر؟ ومن هو أبو عمر؟

قال بدر :

– الحلاقان ، سازوكي . . في حينا حلاقان ، والاثنان قتلا .

صمت سازوكي من شدة الأدب ثم قال :

– أكل اولئك ماتوا؟ إني آسف جداً يا بدر ، ولكن حمداً لله أنك حي .

وشعر بدر بالإحراج الذي كان قد تسببه لسازوكي بتلك الأخبار ، فقال له من باب المجاملة :

– وأنتم يا سازوكي ، من مات عندكم؟

قال سازوكي وهو يضحك حرجاً :

– لا أحد .

تفاجأ بدر بذلك الجواب وبالرغم من علمه بحالة السلام التي تعيشها اليابان وارتفاع عدد المعمرين فيها ، فقد دخل في ذهول يشبه الصدمة ، ثم خرج من الذهول وهو يضحك ولا يعرف ماذا يقول ، ثم انقلب ضحكه إلى بكاء هستيري ، فقال وهو يشرق بالدموع :

– لا أحد مات؟ أويلاه؟ لا أحد مات؟

ثم راح يبكي ويلطم حتى انهار على الأرض .

الفصل الواحد والعشرون

كامل في الشهر التاسع

خرج عبد الحليم شعيط من السجن فور عبور الدبابات الأمريكية جسور بغداد من صوب الكرخ إلى صوب الرصافة . . قطع المسافة من أبي غريب إلى شارع حيفا جالساً على قنفة موضوعة في الحوض الخلفي لحافلة تائهة مرت بالصدفة وهي محملة بالمراوح والأرائك والتلفزيونات وغرف النوم . . سعادته بالخروج من السجن سرعان ما بددتها مناظر بيوت مؤتمر القمة التي بناها صدام لقادة عرب كانوا سيحضرون مؤتمراً ينعقد في بغداد ، مشرورة فوق أسيجتها الدشاديش والفانيلات ، ويلعب أمام أبوابها أطفال عراة المؤخرات . . القذافي والنميري وبورقيبة . . كانوا سيسكنون تلك البيوت التي بناها صدام لمؤتمر القمة الذي قامت من أجله الدنيا دون أن ينعقد . بعد ذلك بقليل عبر النهر العظيم من جهة باب المعظم ماشياً على قدميه فرأى وزارة الدفاع تنتشر فيها تنانير الخبز وبراميل الماء ، والأطفال العراة تظهر مؤخراتهم ملطخة بالطين والخراء أيضاً ، ثم لاف باتجاه ساحة الوطن الأكبر ، فرأى النسوة يسلقن رؤوس البشر على ضفة النهر لإعداد تشريب الباجة . . كن يضعن قدوراً كبيرة فوق الحطب المشتعل يرمون اليها الرؤوس التي لا زالت تمتلك الوجوه العريضة ومغطاة بالشعر الأسود . . بعضها

كان يضع النظارات أيضاً على عينيه وتحتها توجد شوارب سوداء . انتبه من ذلك الكابوس القصير الذي راوده في حلم صحو قصير وهو يمشي باتجاه المكتبة الوطنية ، ثم سمع أحدهم ينادي :

- معيط . .

- نعم .

- يا هلا . . يا هلا . .

يكاد يقسم أنه لا يوجد في الدنيا من يحمل اسم معيط سوى عمه الشيوعي الذي هاجر بعد هربه من نقرة السلمان إلى السويد . . التفت عبد الحليم شعيط إلى مصدر الصوت فوجده يبتعد داخل سيارة همفي أمريكية مع شيخين من شيوخ فندق (صحِّ النوم) هما كاكا وكرومبا . . أحلمٌ هو أم كابوس آخر؟ . . استيقظ منه ليجد الكلاب السائبة تتجول بين أزبال قد تكومت فوقها الجثث وأحصنة العربات تجر ممتلكات الدولة وتأخذها إلى البيوت . . من المؤكد أن منار تلطم الآن على مصير قارب حلمان يغرق . . ومن المؤكد أيضاً أن هذا اليوم لبدر هو يوم البرهان التام على اليأس الزؤام . . أما لمن لا يؤمن بحلم أو بعلم فها هو يومه المشهود للرقص والركض من الدور إلى القصور . . استرجع يوماً فلسفياً أسود تحدثت فيه منار مع بدر عن الهامش والمهمّشين . . كيف يكون وجود الهامش اضطراراً وليس اختياراً؟ وكيف تنظر إليهم الدولة كشر مطلق فتدفعهم من المركز للأطراف؟ . . كم بدا ذلك اليوم ناصع

البياض قياساً إلى ما يحدث له الآن ، عندما رأى عبد الحليم كل الذي فعله في الماضي يذهب أدراج الرياح والنار والدخان ، ووجد حياته تتطاير أمامه هباءً وسخاما يرقص له البعض ويبكي البعض الآخر . . تحسر حسرةَ من لا يريد أن يشعر بالهزيمة . . من يريد أن يعثر على يقين واحد بين مشاعره المتضاربة . . كان مزهواً بمدينته المقفلة الحصينة ، وها هي تفتح أبوابها للعامي والشامي . . في يوم لم يخطر على باله في أقصى درجات الخيال ، فهل كنت ترى هذا اليوم إذن ايها الثعلب الماكر بدر ، عندما دعوتنا للتخلي عن كل أمل ، وقلت لنا قبل أن تهاجر أنك ستتركنا نشعل شموع الميلاد ونعد بيض المائدة ونركض من أجل دجاجة يوم الإثنين . . كنتَ لا ترد على أسئلتي إلا ساخراً ولا تسألني إلا صامتاً ، وحين أسألك عن شيء ترد علي بأشياء أخرى لا أفهمها . . كم كنت أستغرب أن تفهمك منار ولا أفهمك أنا . . كنت أعتقدها قارئة للفنجان ، وكنت أكرهها وهي تفعل ذلك ، كما كنت أكرهك وأنت تلعب بالكلمات لأني أعتقدك تفعل ذلك من باب الغموض والتشبه بالنجوم ، ولكني الآن أشعر بمكانك الخالي بعد أن رحلت في يوم جمعة دون أن تحمل حقيبة سفر قائلاً لمنار سأكره أن يفتشها أحد . . رحلت ونفذت بجلدك أخيراً في التوقيت الصحيح تاركاً المتن والهامش في ساعة سوداء . . مصخمة بالدخان . . لو أخبرتك الآن بأني أفتقدك وأشعر بالحزن لرحيلك ، فهل تصدقني؟

كان يسير باتجاه المكتبة الوطنية شاعراً بظل من الفرح لخروجه من السجن الذي ظنه عتبة أكيدة ترفعه إلى حبل المشنقة . ولكن الظل بدأ يسود شيئاً فشيئاً بفعل دخان الحرائق وهو يلتقي واحدة من تلك الأفاعي الملساء الطويلة ، زميله في سجن أبو غريب ، كامل دقناووز الذي دندل لسانه خارج رأسه كالعربيد عندما رأى تمثال المتنبي المنتصب في باحة المكتبة وهمّ بالإمساك به من عباءته التي تتلاعب بها الريح . . ولكن عبد الحليم شعيط كذب ليبخس في نفسه هذه الرغبة قائلاً له إنه تمثال مصنوع من التنك وليس من البرونز ، وإن صانعه هو ليس محمد غني حكمت كما يشاع ، ولكن شخص شايل نفسه اسمه عيسى فقير جهل . . ثم نصحه بالهرب الى خارج الحدود وقال له :

- الحدود مفتوحة؟

قال دقناووز وهو يحرك لسانه ذات اليمين وذات اليسار وقال :

- اليوب يوبي .

وصدق دقناووز ، الذي كان مصاباً بالزكام ، وعده ، فيوم السبت ٢٠٠٣/٤/١٢ كان يومه . . إذ نهب المتحف العراقي الذي يضم تحفاً فنية يعود تاريخ بعضها إلى سبعة آلاف عام ، وكان من بين المنهوبات القيثارة الذهبية السومرية من الألف الرابعة قبل الميلاد ، وتمثال دودو الوزير الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد ، وألواح من قوانين حمورابي ، وأخرى من أسطورة

جلجامش ورقيم للرياضيات مكتوب قبل فيشاغورث بألف وخمسمائة عام . ومن المتحف العراقي أيضاً خرج تمثال الفتاة السومرية ربة الجمال والخصب الشرقية الملقبة بموناليزا العراق ، المصنوع سنة ٥٨٠٠ قبل الميلاد ، وخنجر ذهبي من الألف الثالثة قبل الميلاد ، وعربة بابلية من الألف الثانية قبل الميلاد صنعت في أوروك . وقال خبير الآثار العراقي دوني جورج إن لصوص السومريات والبابليات والأكديات كانوا يعرفون عماذا يبحثون في المتحف ، وهناك تركوا تماثيل كثيرة كانت موضوعة للتضليل في نسخ طبق الأصل ، وذهبوا إلى التماثيل الأصلية مما يعني أنهم كانوا يعرفون ماذا يفعلون وعماذا يبحثون ، وأين يجدون الأصل .

ذلك المساء ، الذي قرأتْ فيه منار ذلك الخبر منشوراً في جريدة الشرق الأوسط ، بكت وبكت على قاربها الحلمان ، كما توقع عبد الحليم . عرفت أن الأيام القادمات ستكون أياماً مشهودة لكسر كل الأقفال والأبواب والشبابيك ، ولا عاصم لأحد من أحد حتى في مكتبة وطنية . . في تلك الأيام السوداء ساد المدينة سكون عجيب . . كأنه يوم جمعة لا أحد يذهب فيه ولا أحد يجيء ، واعتقدت منار أنه يمكن أن يولد من هذا الفراغ شيء عظيم . . كان صفراً يمكنه أن يتحول إلى عشرة أرقام ، ولكن هذا الصفر تناسل وتحول الى أصفار ، وامتلأ الفراغ بالدم والأنقاض والحواجز . . وكان اللصوص المثقفون من ذوي الألسنة المشطورة أكثر عدداً من الذين سارعوا من مقاه

تراثية قريبة من مبنى المكتبة لإطفاء النيران بأنفسهم ، ونقْل بعض المخطوطات بسياراتهم ، ولكن الحواسم كانوا أدق منهم في عنصر الاستفادة من مسألة الوقت وحرق المخطوطات . . وما هو إلا يوم واحد هو يوم الإثنين المصادف ٢٠٠٣/٤/١٤ حتى سمعت منار هذا الخبر :

«عاثت جموع من الناهبين نهباً وتخريباً في المكتبة العراقية في بغداد وأضرموا النار فيها ، مخلفين وراءهم أكواماً من الكتب والمخطوطات أحالتها النيران رماداً ، وتراثاً ثقافياً للبلاد قد ذهب طعماً للنيران . كما نهبت الجموع مكتبة الأوقاف ، وهي المكتبة الإسلامية الرئيسية في العراق ، القريبة من المكتبة الوطنية وأضرمت النار فيها . وهذه المكتبة تحتوي على نسخ من المصاحف والمخطوطات الدينية التي لا تُقدّر بثمن . ونقلت وكالة الأسوشييتد برس عن مدرس رياضيات كان يقف خارج الهيكل المتفحم للمكتبة الوطنية ، قوله : أوراق التاريخ كلها قد احترقت» .

الفصل الثاني والعشرون

همر للإله مردوخ

جلستْ منار ، بعد مرور وقت طويل على ذلك اليوم الأسود ، خلف مكتبها المغطى بالغبار . . تقلب ذلك البريد المغبر المبلل من التقارير والصحف القديمة بين يديها التي خلت من الأساور ، وتقرأ فيها أخبار ذلك اليوم في تتمة ما ذكرته وكالة الاسيوشيتد برس في خبرها المشؤوم عن المكتبة الوطنية ، واصفةً المكان بأنه كان مشهداً من الدمار الكامل ، بحيث لم يتمكن مراسلها من تمييز كتاب أو مخطوط وسط الرماد الداكن . بين تلك التقارير كانت مقالة الشاعر والأديب الفنزويلي (فيرناندو بياز) الخبير الدولي بشؤون المكتبات ، الذي قدّر خسارة العراق ، إثر احتلال بغداد ، بحدود مليون كتاب ووثيقة ومخطوطة يعود تاريخ بعضها إلى العصر الذهبي لعاصمة الخلافة الإسلامية والبعض الآخر حديث لا يتجاوز الحقبة العثمانية . يقول فيرناندو بياز في نهاية أبريل ٢٠٠٣ :

«ما زال الوقت مبكراً لمعرفة أي من الكتب قد دمر وأي منها نجا من الكارثة . ومن النصوص المختفية تبرز الطبعات القديمة لألف ليلة وليلة ، ومخطوطات رياضية لعمر الخيام ، ومخطوطات فلسفية لابن سينا وابن رشد والكندي والفارابي ، ومراسلات الحسين شريف مكة ، وكتب تاريخية عن الحضارة

السومرية . ومن المهازل العجيبة أن يجري أول تدمير للكتب في القرن الحادي والعشرين في البلد الذي اخترعت فيه الكتابة عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد . لحسن الحظ تم إنقاذ عدد من الكتب بعد نقلها إلى أماكن سرية أو إلى أقسام غير مطروقة من المكتبة . إنقاذ هذه الكتب شاهد على ارتباط العراقيين الوثيق بثقافتهم» . . .

وضعت منار ذلك الموضوع في كرتونة صغيرة كانت تحفظ بها صحفاً وقصاصات ومراجع تحتاج الى تبويب وترتيب قبل حفظها في الملفات الرسمية وليس على جدارها السماوي الذي كان قد تحول إلى رمادي غامق . . ومن الكارتونة نفسها أعادت قراءة قصاصة أخرى تقول : «ويأتي مراسل الاندبندنت روبرت فيسك ، الذي نقل هذه الجريمة للعالم كشاهد عيان ، ليؤيد رواية فيرناندو بياز ويقول إن الفاعل الحقيقي بدأ بسكب البترول في الطوابق العليا ، حيث الوثائق الأقدم ، ثم أخذت النيران مسراها لتلتهم كل ما في المبنى من أوراق تضم ذاكرة شعب وتاريخ أمة . . . قال أيضاً إن التاريخ يخبرنا بأن أول هجوم عراقي على الاحتلال البريطاني عام ١٩٢٠ كان في نفس يوم أول هجوم على القوات العراقية في البصرة ٢٠٠٣ ، ففي عام ١٩٢٠ ، وفي أول هجوم للمقاومة العراقية على القوات البريطانية قتل قائد بريطاني بتفجير دوريته ، وذكر فيسك أنه جاء إليه مقاوم عراقي وقال له إن جده قتل الضابط تيزاني ، وهذا يعني أن التاريخ يعيد نفسه» .

يستحضر فيسك هذه الرواية من بطون التاريخ ، وهو يحكي عن الإثنين الأسود الموافق للثاني عشر من صفر ، حين شبت النيران بفعل فاعل في المكتبة الوطنية العراقية وفي مكتبة علوم القرآن بوزارة الأوقاف ، على مرأى عربات مصفحة تقل جنوداً من مشاة البحرية الأمريكية المتوقفة في شارع قريب من المكتبة الوطنية التي كانت تلتهمها النيران .

«لقد رأيت الناهبين . . وقد شتمني أحدهم عندما حاولت استرداد كتاب للفقه الإسلامي من صبي لا يتجاوز سنه العاشرة . وبين رماد التاريخ العراقي وجدتُ ملفاً يتطاير في الرياح : أوراقاً مكتوبة بخط اليد بين بلاط شريف مكة الحسين الذي شرع بالثورة العربيّة ضد الأتراك ، بتحريض من لورنس الجزيرة العربيّة ، وبين حكام بغداد العثمانيّين . على طول الساحة القذرة قُذفت رسائل التوصية إلى حاشية الجزيرة العربية ، وطلبات الذخيرة للقوات ، والتقارير بصدد اللصوصيّة على الجمال والغارات على الحجيج ، كلها كُتبت بخط يد نسخ جميل . لقد كان بين يديّ آخر آثار بغداد للتاريخ العراقي المكتوب . مع الشروع بتدمير الآثار القديمة في متحف الآثار يوم السبت وحرق دار المحفوظات الوطنيّة ومن ثم مكتبة القرآن ، فإنّ السنة هي السنة صفر بالنسبة للعراق» . علق احد المحللين على ذلك قائلاً : «فعلاً التاريخ يعيد نفسه . . يا للمفارقة أن تشب النيران في الشهر نفسه الذي كانت مياه دجلة تجري سوداء وحمراء من دماء القتلى وحبر الكتب التي القيت فيه بعد غزو

المغول . . فعلا التاريخ يعيد نفسه» .

واصلت منار قراءة ما قاله الكاتب البريطاني فيسك في عدد من (الاندبندنت) يعود تاريخه الى يوم ٢٠٠٣/٤/١٥ : «ذهبتُ الى القوات التي تحتل البلاد ودخلت مكتب الشؤون المدنية لمشاة البحرية الأميركية . . لقد أعطيت خريطة المكان ، وعليها الاسم الدقيق بالعربيّة والإنكليزيّة ، قائلاً إنه يمكن مشاهدة الدخان من على بعد ثلاثة أميال ، والمسافة إليه تستغرق خمس دقائق فقط بالمركبة . وبعد نصف ساعة ، لم يكن هناك من أمريكيّ على المسرح ، بينما كانت ألسنة اللهب جامحة في الهواء لمسافة مائتي قدم . . كان من الصعب مسك الأوراق التي كانت ملقاةً على الأرضِ لشدة حرارتها ، وكانت لا تحمل طباعة أو كتابة ، ولحظة التقاطي لها صارت رماداً» .

فكرت منار هل كانت من بين ذلك الرماد تلك التقارير التي كان يكتبها عبد الحليم شعيط عن المسرحيات التي تقدم له وبينها تقريره عن مسرحية (الرئيس آخر من يعلم) ، تلك التي أجازها في لحظة غياب عن الوعي فدخل بسببها السجن؟ . . لعل ثمة قصاصة صغيرة تبقت بين ذلك الرماد لم يحترق ذيلها ، مرسوماً عليها حرف عين على شكل سفينة نجاة داخل لجة بحر . .

لم تجد منار شيئاً تفكر فيه ، بعد قراءة ذلك البريد الحزين القادم من بريطانيا العظمى التي شاركت في الحرب ، سوى أن بغداد ورقة تجعدت ولكنها لم تتمزق وعليهم الآن إعادة فرشها

من جديد مثلما فعل أجدادها ، وقالوا على لسان الإله مردوخ :

هناك ابني بيتاً وهيكلاً

به قدس الأقداس رمز جلالتي

سأدعو اسمه بابل

وسينهض لبنائه أمهر البنائين

لم يكن لدى منار الوقت الكافي لكتابة ذلك الاقتباس في جدارية جديدة تعلقها خلفها بعد أن احترقت الأولى في الحرب وأصبح الجدار السماوي خلفها كأظافرها مخلوطاً بالسخام . . انشغلتْ بترميم الكتب المحترقة وإعادتها الى الحياة في المكتبة التي عاد قسم الدوريات فيها إلى استقبال زواره من جلاّس الكتب ، كما رُزقت بمولّدة كهربائية صغيرة ترعاها وتربيها إكراماً لأمها المريضة وترحماً على الكهرباء التي ماتت ولم يدفنها أحد . وعاد المكان يشرق بالورود ونباتات الزينة ، بعد أن كان خريجو السجون من بغداد إلى واشنطن قد أمطروه بالقنابل والصواريخ ومشاعل النيران . . ومرت سنوات ثلاث تبعتها ثلاث سنوات أخرى ، ولم يعد هناك في المكتبة الوطنية من رقباء أوفياء ، وحالها حال الجميع لا تدري منار أين غابت الدوائر المنحلة الأخرى . . هل نُقلت إلى مكان آخر بعيد عن المكتبة الوطنية؟ أم أنها اختفت من الوجود؟ . . كانت تفتقد عبد الحليم حتى وهي تفكر بالحرية التي تُعطى لهم مقابل دمار كبير . . وبمقدار ما كان عبد الحليم يزعجها بتقاريره وتواقيعه عليها ، كان يحفزها أيضاً لأن تعادي أفكاره وتحلق بأفكارها نحو

المجهول . لم يلتقيا أبداً إلا ليبتعدا من جديد ، ولكن في فلكين متجاورين . . شبّههما ذات يوم بقارئة الفنجان ، ولكن لم يخطر ببالها ، وهي تقرأ المجهول في بطن الفنجان ، أنْ تتوقعه على هذا النحو الرهيب . . تتذكر أحياناً قصاصة نقلتها عن أبقراط كتبت فيها : يتداوى كل عليل بعقاقير أرضه ، فإن الطبيعة تفزع إلى عاداتها ، فقيل له لماذا أثوَر ما يكون البدن إذا شرب الإنسان الدواء ، قال لأن أشد ما يكون البيت غباراً إذا كُنس .

لا تستطيع أن تمنع نفسها من الابتسام بمرارة في عهد مكنوس امتلأ بالغبار العاصف وهي تتذكر لعبة الأفخاخ التي كان يضعها عبد الحليم أمام المؤلفين فيقفزون فوقها بالمشي على أطراف الأصابع مستخدمين ما بجعبتهم من أساطير ورموز وألاعيب . . إنه لمن المستبعد أن يكون الفن فناً بدون تلك الأقنعة والرموز والمجازات . . فلمن ستجمع جمع المؤنث السالم؟ ، ولمن ستخفق برموشها كالعصفور بعد ذلك؟ ، وبرأس من ستتفلسف أو تتلو عظاتها؟ ، بل كيف ستكون مدينتهم القادمة ، وقد فتحت أقفالها بعد أن سلمهم الرقيب الوفي مفاتيحها؟ . . كيف ستكون لعبةُ مَن لم يعد هناك شيء يقف في طريقه أو يستفزه؟ . . هل سينام ويتحلل كرجل عجوز يوشك على الموت؟ أم سيخترق الحجب والوقت مثل أسطورة لا تعرف الزوال؟ . كان من الصعب على منار أن تجيب على تلك الأسئلة بعد أن انقسمت هي نفسها إلى قسمين . . قسم يتحلل وقسم يخترق الحجب ، وعليها الآن أن تتأكد أولاً أن

صندوق عنتيكاتها وخواتمها سيمتلئ من جديد بكل القصاصات ، فبدونه لا يمكن أن تلف شريطاً حول الماضي وتتفرج عليه . . بدون صندوق قديم لا يكون عهد جديد ، وبدون علبة مليئة بالدناديش لا يمكن لامرأة مثل منار أن تعيش . . . .

لا زالت منار تفكر بسرعة شديدة دون أن تبخس أية فكرة حقها . . وأفكارها تتلاحق بمعدل ستين ألف فكرة في اليوم الواحد . . . . . ها هو بلدها يجتاحه جُند الهواء السحريون من الايميلات والموبايلات والستلايتات . . عنكبوتات وأخطبوطات تجعل المعلومات تعبر أطلس العالم تارة بالخير وتارة بالشر ، ولا ميزان سوى الهواء وكلامه المعسول . . . . . تجاوزت تلك المعلومات حدود المعقول وأصابتها الدهشة لتلك الكلمات التي تتطاير في الهواء ولا تجد مايلجمها من قلم أحمر أو ضوء أحمر ، ولكن رأسها يبدأ كل يوم من نهاية يوم آخر ، فيدخل من حيث خرج ، ويخرج من حيث دخل ، وتمر به ستون ألف فكرة أخرى .

جربت منار أن تجلس وترتاح ، ولكن تلك الأفكار تحولت إلى أحلام وكوابيس لها بداية وليس لها نهاية . . جربت أن تقرأ نصف صفحة في كتاب ، فتحولت تلك الأفكار إلى هباءات تسرح وتمرح على هواها . . جربت أن تمشي ثلاث خطوات إلى أمام ، فنمت تلك الهباءات إلى وحوش تتحرك ولا تهجع . . المشكلة هي أنه لا يمكن لاثنين من الإنس الاتفاق

تماماً على شيء واحد . . بل لا يمكن لواحد فقط أن يتفق مع نفسه على رأي واحد . . فأي صورة تلك التي ستصبح جزءاً من التاريخ ، وما منها ستترسّخ في الذاكرة لتجسّد الحقيقة عبر التاريخ؟ .

هه . . ضحكت منار . . أي تاريخ؟ في كل حين من الزمان له حفل موسمي يقيمه ويدعو الناس إليه مع الرجاء الحضور المبكر ، فيحضر الجمهور ليصفقوا أو يهتفوا له بالروح والدم . ويسيل الدم بالفعل أنهاراً تجري على الأرض ، لحاجة التاريخ إلى أن يبدل خطواته من اليسار إلى اليمين ، أو من اليمين إلى اليسار ، فيضع لينين بدلاً من بطرس الأكبر ، وعبد الكريم قاسم بدلا من الملك فيصل ، وجمال عبد الناصر بدلاً من الملك فاروق . ولكنه يعود بعد حين ليضع تمثال بطرس الأكبر بدلاً من تمثال لينين ، وتمثال عبد الكريم قاسم بدلاً من تمثال عبد الوهاب الغريري ، وربما الإسلامبولي بدلاً من أنور السادات .

التماثيل التي لم تسقط من الساحات هي فقط تماثيل الفلاسفة والشعراء من الذين تحمل مجلداتهم وتقتبس أقوالهم : لأنهم ينظرون إلى الموضوع الواحد من أوجه مختلفة فينجون من العقاب . أما الذين سقطوا من السوامق إلى الحضيض ، فهم أصحاب الحقائب الدبلوماسية المملوءة بالمناشير التي تنظر إلى الموضوع الواحد من جهة واحدة ، تقدسها كما تقدس القبلة . وعندما تتصفح مواقع الإنترنت العجيبة تجد الهواء يتلاعب بأفكارهم كما تتطاير الملابس على

حبل الغسيل . . يضعون ضحكة بوش على وجهي قحطان وعدنان ، ويضعون عقال عبدالله فوق رأس رامسفيلد ، ورأس كونداليزا فوق جسم هيفاء . وصار من المضحك ان تدخل عبارة لعادل أمام مع خطاب النصر الذي أعلن فيه جورج بوش انتهاء المهمة في العراق بمشيئة الرب ، أو أن يدخل مقطع من قصيدة لنزار قباني في خطبة دينية للشيخ يوسف أو الشيخ عثمان . بدأت المشكلة بعد ذلك تتفاقم عندما أخذ عمال المطابع الاسلاميون في مصر يغيرون في الروايات على هواهم فحذفوا ليوسف السباعي ، الذي اغتيل في قبرص بعد تأييده لكمب ديفيد ، مقاطع كاملة من روايته نائب عزرائيل . .

هه . . ماذا سيفعل عبد الحليم الآن ؟ وماذا سيقول؟ وماذا سيحذف بقلمه الأحمر . وكيف كان سيراقب ما يقوله الآخرون . . ومن المتأكد مما قاله الآخرون؟ . . أبراج وحظوظ وأطباق ووصفات وعقارات وأرقام وحروف بمجرد الضغط عليها تتحول الشاشة إلى كلمات .

ستون ألف فكرة مرت برأس منار وهي تعيش عصر الأجيال الجديدة التي أصبحت تحب العبث مع كل رسم تراه في الهواء . . فكرت لو أن التاريخ سيصبح ملكاً لسكان الهواء فمن غير المستبعد أن يصبح فريسة للهو والعبث والسخرية . . أصبحت حزينة مرةً وضاحكة مرةً ، بل تقهقه من أولويات وأيديولوجيات يموت البعض من أجلها ، في الوقت الذي تطير فيه ويتلاعب فيها الهواء لحين يصبح التاريخ مليئاً

بالثغرات . . . وهذا صعب للغاية ، ويزداد صعوبة كلما أذاعت الجزيرة خبراً عن البرادعي أو رامسفيلد أو توني بلير . أو أذاعت روتانا خبراً عن روبي أو لوسي أو نانسي عجرم ، الموائد منصوبة على مد البصر . . . . . بريد إلكتروني معلق بالأقمار الصناعية وموبايل مربوط بالأقمار الصناعية وتلفزيون يبث عبر الأقمار الصناعية . . وأصبح جدارها السماوي فائضاً عن الحاجة . . ومعه قلم الحبر أيضاً ، لأن الرأس مشكلة المشاكل أصبح مروحة تدور بلا توقف منتشياً بسماع الأخبار التي تبثها الفضائيات ، يريدها مثيرة وشهية ولا يريدها ماسخة بدون بهارات وتوابل كما لا يريد فيها فاصلاً واحداً من الراحة أو الإعلان . . الدليل الأكيد على أن الرأس هو الأكثر إزعاجا من باقي أعضاء الجسم ، أنه وحده الذي يضحك بعد كل ما يراه ويسمعه في التلفاز من أخبار تنتشر مجاناً وتقدم له ألف جواب وجواب . .

إنها تتذكر قصة عبد الحليم الذكية تلك التي رواها نقلاً عن جدته شهرزاد . . قصة الرجل الحكيم الذي وضع عمامته على الأرض وراح يصيح ويندب صاحبه الذي ابتلعته الارض لكي يبرهن على نظرية كلام الناس . . يا للمفارقة أن يضع الحكيم عمامته بدلاً من العباءة مثلاً . . يا للمفارقة أن تكون عمامة فارغة من الرأس في حكاية شعبية هي علامة عصرية عن غرابات هذا الرأس الذي جعل الناس يتجمهرون حول العمامة بين مستغرب ومتعجب وسائل ومستفسر . . وبعد وقت قليل وُضعت التوابل ونصبت المائدة وأصبح للعمامة

صاحبٌ بلعته الأرض بالفعل ويتداول الناس حكايته العجيبة إلى يومنا هذا . فكيف سيروي التاريخ قصتنا ؟ وكيف سيصف رأس صاحب العمامة ؟والذي يرويها يشبه من؟ يشبه عبد الحليم أم يشبه بدراً؟ . . ماذا تقول الآن يا بدر . . . لعلك تفكر وأنت تراني من بعيد : أيهما أولاً الرأس أم العمامة؟ . .

الفصل الثالث والعشرون

فنجان قهوة مع عبد الحليم

لا تكاد منار تصدق عينيها . . لا لا لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً . أين السفاري الرصاصي وأين القاط الزيتوني وأين الشوارب التي تشبه الهرم؟ . . أين العود اليابس والوجه الاصفر والشعر الأكلح؟ . . صحيح كلنا من ماء وطين ، ولكن يبدو أن هذا الطين يمكن له أن يصبح كرستالاً ما أن يعبر طريبيل ويطير إلى العالم . . كيف تحول عبد الحليم من رقيب وفي إلى نجم سينمائي فاتن؟ . . هناك . . ها هو يتحول من طين يابس إلى شمس مشرقة . . ها هو يجلس نظيفاً أنيقاً ويروي مذكراته . . . مذكرات؟ وهل لعبد الحليم مذكرات تستحق أن تُروى تحت عنوان «مذكرات سجين سابق في أبي غريب»؟ . . وهل هذه صورة عبد الحليم منشورة في البوكس بوست؟ . نظرة واحدة كانت كافية لمعرفة عبد الحليم الذي حاورته الصحيفة في لندن ، على أساس أنه سجين سابق في أبي غريب الذي اشتهر منذ حادثة تعذيب السجناء أيام رامسفيلد ، ولكنه سجين من زمن النظام السابق ، ومقدمة الحوار تقول عنه إنه سُجن بسبب مسرحية . . . . مسرحية؟ نعم تذكر منار ذلك جيداً تلك المسرحية . . سماها بدر بالمشرحية ، وكان اسمها مسرحية «الرئيس آخر من يعلم» ، وتتحدث عن رئيس دولة

فيها سفارة لإسرائيل ، يتعرض إلى محاولة اغتيال ، وفي يوم عرض المسرحية ، تعرض الرئيس فعلاً إلى محاولة اغتيال . . . . من المؤكد ، إذن ، أن عبد الحليم سيذكرها في ذلك اللقاء ولربما يعترف كم كان يستوحي من اقتباساتها الكثير من الديباجات التي يفتتح بها تقاريره . . ولكن أي تقارير وأية اقتباسات؟ . . تنكر عبد الحليم لهذا الفاصل من حياته ، وراح يتحدث عن سنوات شبابه التي قضاها ، مضطراً ، في ذلك الموقع كأيام صعبة لا تنسى ، ثم صال وجال في الحديث عن أيام سجنه في أبي غريب ، وقال إنه كان في زنزانة انفرادية في السجن ، وكان معه الشيوعيون والأزيدون وأعضاء حزب الدعوة والأكراد والكلدان والآشوريون ، بل كان هناك أيضاً قسم للعرب والأجانب فيه سجناء من مصر والسودان والمغرب العربي ، كما زج الى السجن بعشرات المتهمين في محاولة اغتيال الرئيس تلك ، أكثرُهم كان من حزب الدعوة . كان الراديو ممنوعاً في السجن ، فاستقبله السجناء القدماء بالورد والأحضان أول وصوله السجن ، لمعرفة آخر الأخبار عن محاولة الاغتيال وما تبعها من أحداث في الخارج . . أخبرهم بأن المنفذين قد لاذوا بالفرار ، وفي مكان الحادث تم نحر الذبائح وإقامة الولائم حمداً لله على سلامة الرئيس . . . . في السجن أيضاً طلب منهم الحراس الاحتفال بسلامة الرئيس . . ثم راح يروى للصحيفة كيف خرج الجميع إلى الساحة الأمامية للسجن للاحتفال بسلامة الرئيس عداه هو الذي نقل إلى زنزانة انفرادية عدة أيام

رأى فيها نجوم الضحى قبل أن يعيدوه إلى الجماعة من السجناء القدماء ، الذين عندما علموا أنه سجن بسبب تلك المسرحية ، أصبحوا يتندرون عليه ويمازحونه على الدوام . . . . هنا شرح للمحاورة كيف تعرف على الجانب الآخر من الحقيقة في جلساتِ تبادُلِ الأحاديث وشُرْب الشاي معهم ، فسمع ما لم يسمعه في الندوات والاجتماعات الحزبية ، وتعرف على رجال لم يكن ليتخيل وجودهم في بلاده . . كاكا كاوة والسيد عبدالرضا وأبو هافانا الشيوعي الذي يصلي الصلوات الخمس .

– هل تفكر بأن تكتب مذكراتك؟

يا لعشق الإنكليز بالمذكرات والذكريات القديمة . قالت منار وهي تعيد قراءة تلك الأسطر من جديد ، كما لو كانت تجلس إلى طعام طيب لا تريد الانتهاء منه بسرعة . .

– الكثير منهم يتولى الآن مراكز مهمة في الدولة .

– هل كانوا مناضلين؟

– كلا يا عزيزتي . . تجدين هناك من دخل السجن بتهمة التزوير أو السرقة وتجدين بعض الشرفاء كأبي هافانا الصحفي الذي شتم النظام في الثمانينيات ، والذي قضى هناك عشرين عاماً ثم توفي فور خروجه من السجن .

– للأسف الشديد . . هلا حدثتنا عنه؟ .

– كان لطيفاً جداً ومؤدباً ومثقفاً ككل الشيوعيين . . يحفظ الكثير من القصائد والنوادر وحكايات التاريخ . . لا يمكنني أن

أنسى كيف جعلني أرى العالم من منظور آخر وأرى مناضلين من طراز آخر .

– من المؤكد أنها كانت أياماً غير اعتيادية .

– بكل معنى الكلمة .

– هل تعرضت إلى الانتهاك أو الاعتداء؟

– نعم .

– كيف؟

– شي شبيه لما شاهدتموه في أبي غريب بعد الحرب .

– ماذا تتذكر أيضاً؟

– في عيد نوروز أخذ السجناء الإذن من المأمور للاحتفال به مدة ساعة واحدة في إحدى الغرف . . وهناك رأيت التركماني والكردي والصابئي والإسلامي والشيوعي والآشوري والكلداني يرددون نشيدا يقرؤونه من ورقة . كنت غريباً عنهم ، وكانوا غرباء عني . بل أن حتى اسماءهم كانت تبدو لي في غاية الغرابة .

– وماذا أيضا؟

– كان البعض يرفض الخروج إذا ما انتهت محكوميته . . فليس لديه مكان يذهب إليه .

وراح عبد الحليم يتحدث عن شيء من نقد ذاتي مارسه بحق نفسه وهو داخل السجن عندما رأى سجناء محكوماً عليهم بعقوبات شديدة بسبب تسجيلات صوتية ضدهم ، بعضها جاءت من أقرب الناس اليهم كزوجته أو صديقه أو من

المخبر السري ، ثم أخبر المحاورة أنه تألم لذلك اشد الألم .

أُعجبت منار به وهو يمارس نقداً ذاتياً بحق نفسه قائلاً إنه هو نفسه كان يكتب التقارير فيما مضى بحق الممثلين والمسرحيين وشعراء الأغاني ، ثم بعد ذلك أستحلفها بالله قائلاً ماذا يفعل من فتح عينيه على الدنيا ليجد أباه بعثياً وأمه تؤمن بجميع أنواع السحر الهوائي والمائي والناري والترابي والماكول والمشروب والمنثور والمنشور والمكتوب؟ . . .

– ربما كنت بعثياً قبل أن أولد أو أحبو أو انتمي ، بالضبط كما يكون البوذي بوذياً أو المسيحي مسيحياً أو المسلم مسلماً . لقد ولدت في كركوك قريباً من الشعلة الازلية في بابا كركر ، وعشت طفولتي وشبابي موزعاً بين كركوك وبغداد حيث علمني أبي أن أخاف منه وأن أقسو على الآخرين . . درست في الأولى الجلوس والقيام في حب القائد ، وفي الثانية تربيت على حب الوطن والدفاع عنه تماماً كما تربى أبي على حب الوطن والدفاع عنه . . . الدنيا لها ألف شكل ولون ، ولكن ما ورثته من أبي شعيط هو جمْعُ الأشكال والألوان كلها في حب واحد هو حب الوطن . . فأين الخطأ في أن أستميت في الدفاع عن المبادئ التي تربيت عليها؟ . . أليس هذا ما فعله عمرو بن العاص ، ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي؟ . . ألم يقاتلوا من أجل رفع رايات المبادئ التي يؤمنون بها؟ . . ألم يسرْ عمرو بن العاص إلى مصر ، وصلاح الدين الأيوبي إلى فلسطين؟ . . ما منعهم من الجلوس في بيوتهم سوى أنهم لا

يريدون أن يكونوا سانعين . . . . انظري إليهم . . لم ينسفهم أحد في التاريخ نسفاً ، ولم يدكهم دعاة حقوق الإنسان دكاً . . بل هم أبطال دافعوا عن حياض الوطن ، ذلك لأنهم ما لبثوا ينتظرون . . وما تقاعسوا عن نداء الواجب كما فهموه من أجل أمجاد بلدانهم والله أعلم بما في القلوب . . يومئذ تبعهم الجميع ورضوا بهم . . لماذا؟

– لماذا؟

– لأنهم ربوا الكبار على أفكارهم ومبادئهم . . وكذلك ربى الآباء أبناءهم ، ومن قبل أن يقضى الأمر كان التاريخ قد سجل أسماءهم بحروف من ذهب ، فلماذا أبيتم على الرقباء الأوفياء جنة لا مكان فيها للمتآمرين . . . أنا لم أظلم أحداً لم يظلم نفسه . . وكنت المدافع عن المبادئ في جنة الوطن الخالي من المتآمرين . .

– كيف؟

– ألم أكن أعمل على استتباب الأمن من شروق الشمس إلى غروبها ، وأسهر آناء الليل على حفظ الأمن وسلامة الأخلاق؟ . . فكيف يكون شراً من يريد أن يكون له نفع ولا يكون له ضرر؟ . . وكيف يكون شراً من يسهر لسماع دبيب النمل والناس نيام؟ ولو فرضنا أنه شر . . فإني أقول إنه في هذه الحياة لا يوجد شر محض ، فكل شر قد ينتج عنه فوائد ومكاسب لا تحصل لنا إلا بعد حدوث هذا الشر . هذا الكلام يتضح جلياً في الأخطاء والوقوع فيها ، فبعض الأخطاء قد

تكون مفيدة وتجعلنا نحصل على مكاسب كبيرة ، ولو لم تكن الأخطاء ذات فائدة لما أوجدها الله سبحانه في حياتنا ، بل لم يسلم منها إنسان غير الأنبياء .

يا لها من مرافعة نقدية كادت أن تقتنع بها منار وتمارس هي الأخرى نقداً ذاتياً بحق نفسها وتقول لها : فعلاً لماذا لم تكن تفهم عمله على هذا النحو الصحيح؟ ولماذا لم تفهم أنه تربى على فعل ذلك ومقتنع به؟ . . مسكين عبد الحليم . . لم ترحمه هي ولم ينصفه أحد ، ولولا هذه الصحيفة لما عرفت كيف يفكر عبد الحليم أبداً . . المسكين كان ينغمس بدور مرسوم في جو من الغبار والعتمة ، والآن يتطهر في جو من النظافة والدلال . . هكذا كادت منار أن تبكي قبل انتهاء الحوار لولا أنه بدأ بهز ذيله فجأة وقال في الختام إن جدته شهرزاد مشهورة بعشقها للبي بي سي وللملكة إليزابث الثانية ، وهي التي ، كالملكة ، لم تستسلم لصعوبات الزمان ولا تنازلت عن عرشها ملكة للأخبار والحكايات ، بل ماتت وهي تضع الراديو تحت وسادتها ، وكان آخر ما سمعته في حياتها هو ندوة أذاعتها البي بي سي عن جماليات العلم العراقي الجديد . . هنا وجدت منار عبد الحليم ، وقد ذكر جدته شهرزاد على الملأ ، منافقاً أشراً وهي التي تعرفه بدوياً مقيتاً يستنكف من عقل النسوان وذكاء النسوان . . أيظنها لا تتذكر كيف كان يصف جدته بامرأة لاترسو على بر واحد تتقلب بين الحرب والسلام كما تتقلب في فراشها ليلاً ؟ أيظنها لا تدري كيف كان

يستدرجها بالكلام ليأخذ من لسانها الدرر التي يزين بها تقاريره الماصخة؟ ، أوَ لا تعرف أن تقديره لعقل شهرزاد لم يكن من باب الوفاء لجدته وإنما من باب هز الذيل لولي نعمته الجديد أبو ناجي؟ .

- هل من كلمة أخيرة؟

هنا دخلت صوبة علاء الدين على الخط وأصبحت رمزاً آخر للمحبة والوفاء ، فقال عبد الحليم وهو يضحك نقلاً عن الصحفية التي أجرت الحوار :

- لابد من كلمة بحق إنجاز من إنجازات بريطانيا العظمى في العراق . .

استعجلت المحاورة وسألته :

- هل تقصد الباص الأحمر ذا الطابقين؟

- كلا . . إنها صوبة علاء الدين . . هذه المدفأة الإنكليزية التي باتت رمزاً من رموز البيوت العراقية . إنها فعلاً لازالت تدفئ العراقيين إلى يومنا هذا .

لولا أن الصحيفة قد وضعت الكثير من علامات التعجب بعد جملته الأخيرة لشكت منار في جدية الصحيفة ونفتها من صندوق عنتيكاتها الجديد إلى سلة المهملات .

الفصل الرابع والعشرون

كلكامش في المترو

«اعتبرت بريطانيا العظمى الرقيب الوفي عبد الحليم شعيط سجيناً للرأي ، ومنحته اللجوء الإنساني مع خمسة من مزوري النقود بعد أن ادّعوا أنهم موظفون من وزارات منحلة وملؤوا استمارات تشبه تلك الاستمارات التي كانت توزَّع عليهم أثناء التنقل بين الدوائر قبل الحرب . . كانوا جميعاً من برج الأثد ، وهم جميعاً يعيشون الآن في ثبات ونبات في ضاحية جميلة من ضواحي لندن غير بعيدة عن قصر بكنغهام ، فهل لا زالت تتكوم ، قرب المكتبة الوطنية ، جدارات الإسمنت والسيطرات وأشياءات أخرى كثيرة تتزايد منذ سبع عامات؟» .

هكذا كتب بدر إيميله متلاعباً بالكلمات ، ومحولاً جمع التكسير إلى جمع المؤنث السالم . ومع أن المكتبة أصبحت في مرمى النيران المتبادلة بين المسلحين الذين حاصروا المكتبة من الجهتين ، فإن من بقي فيها كان منشغلاً مع باقي موظفي المكتبة بترميم الكتب التي وُجدت محترقة أو مطمورة بالطين بعد أن فُتحت عليها المياه عن قصد . وأخيراً عندما سكتت أصوات النيران وعادت المكتبة تمتلئ بالقراء ، حطت على إيميلها رسالة أخرى من بدر تحمل صورة له مع عبد الحليم وامرأة تبدو حاملاً في شهرها الأخير ترتدي قرطاً كبيراً وتقف على حافة الصورة .

كتب عنها بدر قائلاً : «ها أنت ترين كيف عم التسرب النفطي جميع أنحاء العالم . . احتراماتي . . فإن براميل النفط الموجودة في الصورة أضيف لها برميل آخر هو زوجة عبد الحليم وابنة عمه (تأميم) التي شُحنت إليه براً من بغداد إلى دمشق مع فريق من عرائس الحصة ، وجواً من دمشق إلى لندن مع وفد كبير من سكان جرمانة» . . قال لها أيضاً إنه عثر عليهما تائهين ذات يوم في محطات المترو بلندن فرافقهما إلى المحطة التي يريدانها ، وإنهما يعيشان الآن في جوار واحد . . . تتذكر يوم خميس أراد فيه عبد الحليم أن يعود فيه معها بخط سيارات الدائرة إلى حي أور لزيارة جدته شهرزاد ، فقالت له ساخرة سبحان الذي جعل خطنا واحداً ، فأجابها جاداً . . لم لا؟ كلانا نشتم الاستعمار . . . تراه ماذا يقول الآن وقد تداخلت الخطوط وجمعته بريطانيا مع بدر وغير بدر على خط واحد . . من غير ميعاد .

كان وجه عبد الحليم قد أصبح هو الآخر نضراً مثل وردة مرشوشة بالندى ، ويبدو سعيداً كوجه تلميذ نجح أخيراً في امتحان النوم . أما بدر فقد ارتج على منار ولم تعد تعرف التعبير الجديد الذي انطبع على وجهه . . هل هو التعبير الذي أسماه سارتر (أمل اليائسين)؟ أم أنه تعبير الداخلين إليها بدون أمل كما يقول دانتي؟ . . في الحالين كان يبدو تعبيراً كيأس الرفاهية التي لا مكان لها إلا على وجوه نجوم متقاعدين . . وما تبقى منه كان سخرية ينثرها هنا وهناك إيميلاً بعد آخر : وكما ترون ،

فقد فات الأوان عليّ وعليكم ، ولسوف لن نستمتع بإنجازات الحرية إلا في القبور . . اضحكوا . . ثمة تلازم بين ضحكي ويأسي ونسياني .

مرت ستة أشهر تبعتها ستة أشهر أخرى ونافذة المكتبة الوطنية تطل على المياه الآسنة التي لم يعد ينظر إليها بدر وهو يدندن بضيّ القناديل . . كان الغبار يحدق بالأطفال والعجائز ممن يحملن عيوناً مطفأة لا تنظر في أي اتجاه . . رأت منار قارباً كبيراً موضوعاً في ذلك الزقاق يبدو من بعيد كالفلك الذي يركب إليه الناجون من الطوفان . . رمز غريب ذكّرها بسفينة نوح ، كان في واقع الحال آخر ما تبقى من ممتلكات الدولة التي حملتها العربات إلى البيوت . . لا يزال هناك منذ سبع سنوات ينتظر من يشتريه من السارق الذي أبقاه مستوياً على الجودي بينما لم ينحسر طوفان الحرب والغبار والخراب . الرمز الغريب الآخر الذي جعلها تسترجع كلكامش بينها وبين نفسها هو أن هذه المنطقة التي تقع فيها المكتبة الوطنية تُدعى بالسور نسبة إلى سور بغداد الكبير الذي بناه العباسيون على مراحل ، ولم يتبق منه غير الباب الوسطاني الذي لم يتلاش مع بقية أجزاء السور كباب السلطان ، وباب البصلية ، وباب الطلسم . . وثمة صورة مشهورة تتذكرها لكوكبة عسكريين بريطانيين على خيولهم يتقدمهم الجنرال مود ، قائد قوات الاحتلال يدخلون بغداد في ١١ مارس عام ١٩١٧ من جهة الباب المعظم في السور .

طوفان عظيم . . وملك جبار هو جلجامش . . كي يجد سر الخلود كان عليه أن يجد الإنسان الوحيد الذي وصل إلى تحقيق الخلود ، وكان اسمه أوتَنابشتم والذي كان مشابهاً جداً لنوح إن لم يكن هو نفسه . وأثناء بحث جلجامش عن أوتنابشتم يصل إلى دلون ويلتقي بإحدى الآلهات واسمها سيدوري آلهة النبيذ التي شكا لها همه الوجودي وقال : آه لقد غدا صاحبي أنكيدو الذي أحببت تراباً ، وأنا سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين ، فيا صاحبة الحانة وأنا أنظر لوجهك يكون بوسعي أن لا أرى الموت الذي أخشاه وأرهب . فتنصحه صاحبة الحانة سيدوري بأن يستمتع بما تبقّى له من الحياة بدل أن يقضيها في البحث عن الخلود . . . عليه أن يشبع بطنه بأحسن المأكولات ، ويلبس أحسن الثياب ، ويحاول أن يكون سعيداً بما يملك من زوجة وطعام ومال ، وأن يكون فرحاً مبتهجاً وينشرح ليل نهار ، وأن يقيم الأفراح ويرقص ويلعب ويجعل ثيابه نظيفة زاهية ويغسل رأسه ويستحم بالماء ، وأن يدلل صغيره ويُفرح زوجته ، فهذا هو نصيب البشرية ، لكن جلجامش كان مصراً على سعيه في الوصول إلى أوتنابشتم لمعرفة سر الخلود ، فترسله سيدوري إلى العبار أورشنبي ليساعده على عبور بحر الأموات والوصول إلى أوتنابشتم ، الإنسان الوحيد الذي استطاع بلوغ الخلود . . . وعندما يجد جلجامش أوتنابشتم ويخبره عن سعيه نحو الخلود ، يعرض عليه أن يتمكن من البقاء متيقظاً دون أن يغلبه النوم مدة ستة أيام ، لكي يصل إلى الحياة الأبدية ، ولكن

جلجامش الذي فشل في هذا الاختبار ، ظل يلح على أوتنابشتم وزوجته في إيجاد طريقة أخرى له كي يصل إلى الخلود . تشعر زوجة أوتنابشتم بالشفقة على جلجامش فتدله على عشب سحري موجود تحت البحر بإمكانه إرجاع الشباب إليه . يغوص جلجامش في أعماق البحر ويتمكن من اقتلاع العشب السحري ، ولكن الحية تسرقه منه فيعود جلجامش إلى بلاده مكتفياً بحلم آخر يخلد اسمه . . . هو بناء سور عظيم يحمي مدينته أور ويمنحه الخلود .

الغبار يكاد يطمر هذا السور ، ومنار ترى من نافذة المكتبة الأرض يابسة خاملة ساكنة لا تتحرك ، في سبات وسكون هاجعة هامدة قاحلة . . وكل سكانها وكائناتها محكوم عليها بالموت والهلاك ، فمتى تأتي اللحظة الحاسمة التي ينزل فيها الماء فتهتز وتربو وتبدأ الحركة؟ . . . وأين هو الماء . . وأين هو المطر؟ . نقلت بصرها من خارج النافذة إلى أظافرها فوجدتها تشققت هي الأخرى بعد أن أهملتها ولم تعد تطليها بزيت النمل وزيت الحية وزيت الكتان . . . . ستعاود طلاءها من جديد كما أعادت طلاء الجدار السماوي الذي أصبح خالياً من الكلمات بعد أن شغفت بالكلمات التي يتلاعب بها الهواء . . سترتدي أساورها وأقراطها من جديد ، فهذا أجمل بكثير من ترك السور وقطع أرجاء الكون من أجل الوصول إلى هناك . . إلى حيث الخلود في المترو ولذة اليأس الذي لا يغلبه الأمل . . . . . في المترو حيث بدر يقف قرب عبد الحليم . . في المترو . . .

يبدوان في الصورة وكأنهما قد نجحا في اختبار سيدوري . . أوصلهما الملاح في الوقت الضائع إلى المترو وليس لديهما شيء يفعلانه سوى ما قالته الكاهنة من حسن الملبس وطيب الطعام وحضن الزوجة . . . . . .

قطع على منار تلك التأملات رجل مربوع القامة دخل إلى غرفتها ثم نادى باسمها وقال :

- منار؟

- هل تعرفني؟

قال الموظف الجديد :

- وهل يخفى المنار؟

وهو يقف الى جوارها بظرف شديد لاح لها بصيص ضوء يشرق على هذا المكان الكئيب من جديد . . مدت يدها لتصافحه وقالت له :

- مرحباً .

ولكن الموظف الجديد لم يمد لها يده ، بل سحبها ووضعها جانباً على صدره لكي لا يصافحها وقال لها وهو يمسح لحيته السوداء كالفحم :

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

حفيد الـ(بي بي سي)

• مسكينة شهرزاد .. كانت تعتقد أنّها تعيش زمن الرجال صيّادي الطرائد الّذين يعودون إلى الكهوف يجرجرون الأسود وراءهم .. هكذا كانت ترى الرجال الّذين يجب أن تعجب بهم النساء، وتقول: ما فائدة الشوارب، إذن، إن لم تكن لتحسّس الطرائد والانقضاض عليها؟ وما نفع الرجل إذا لم يمتلك انتفاضة التمساح وانقضاضة الفهد ورقصة فرس النهر؟

تريد شهرزاد رجالاً يتقاتلون لا يكتبون القصائد والأغاني، وكانت تسأل: أين، إذن، ذلك الشيء الّذي يجعل الرجل رجلاً؟ .. أين عضلاته السمراء الّتي يصيد بها الأسود، وعيونه الحمراء الّتي تقدح الشرر؟ .. ما فائدة الرجال، إذن، إذا لم يشمّروا أكمام قمصانهم الخاكيّة لتظهر من تحتها سواعدهم المفتولة العضلات؟ .. ما فائدتهم وهم لا يحملون ولا يلدون ولا يطبخون ولا يكنسون ولا ينشرون الملابس على حبل الغسيل ولا يجيدون ترتيب حقيبة واحدة من حقائب السفر؟ ..

• من الرواية

ISBN 978-614-419-005-8
9 786144 190050